د. عبد السلام عشير

عندما نتواصل نغير

مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج

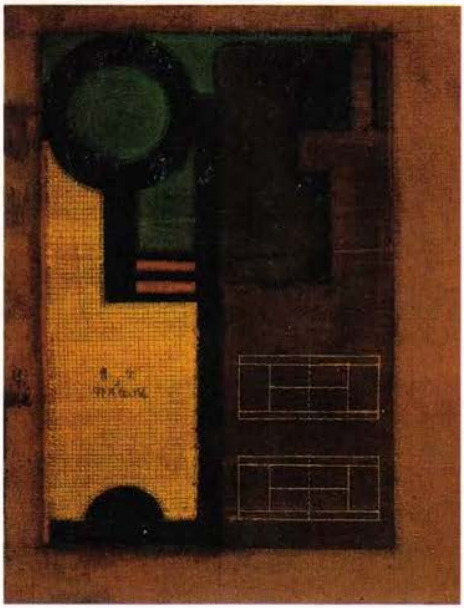

خذ الكتاب مصوراً

أفريقيا الشرق

عندما نتواصل نغير

مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج

© أفريقيا الشرق 2012
حقوق الطبع محفوظة للناشر - الطبعة الثانية
تأليف : **عبد السلام عشير**
عنوان الكتاب
عندما نتواصل نغير
مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج
رقم الإيداع القانوني : 2004/0622
ردمك : 9981 - 25 - 343-X
أفريقيا الشرق - المغرب
159 مكرر، شارع يعقوب المنصور - الدار البيضاء
• المطبعة: الهاتف : 04 95 25 0522 / 13 98 25 0522
الفاكس : 20 29 25 22ر0
• النشر والتصفيف الفني: الهاتف: 53 67 29 0522 / 54 67 29 0522
الفاكس : 72 38 48 0522
البريد الإلكتروني : E.mail : africorient@yahoo.fr

د. عبد السلام عشير

أستاذ التواصل والتداوليات بكلية الآداب والعلوم الإنسانية
- ظهر المهراز - فاس

عندما نتواصل نغير

مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج

خليل الكتاب مصورا
د. حسن داخل

أفريقيا الشرق

إهـداء

إلى كل من يناضل من أجل ترقية الإنسان

إلى أم أولادي

إلى أبنائي البررة

الى أساتذة كلية الأداب ظهر المهراز و في مقدمتهم الأستاذ

د . محمد الشاد الذي واكب هذا العمل

بسم الله الرحمان الرحيم

وبه نستعين

يقول الله عز وجل :

ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ

[سورة الرحمن]

وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ

صدق الله العظيم
[سورة يوسف]

تقديم عام

كان مجال اهتمامنا - لمدة طويلة - يدور حول الدرس اللغوي وما يتيحه من إمكانات خصبة[1] لفهم العالم والإنسان ، وهي مرحلة أولى تفاعلت مع الدرس اللساني المعاصر الذي حقق نتائج علمية ، كان لها التأثير البين على باقي العلوم الإنسانية الأخرى ، وقد كان هدفنا من ذلك ، تقريب هذه المعارف من مجال تداولنا العربي تنظيرا وممارسة ، ومع تطور الأبحاث والدراسات اللسانية الغربية في مجال تحليل الخطاب وفق مناهج متعددة وآليات لسانية وغير لسانية ؛ اتضح أن عزل اللغة عن الفكر والواقع «أي دراستها في ذاتها ومن أجل ذاتها» لم يعد له اليوم الضرورة العلمية ، خاصة بعد ظهور وتطور النظريات التداولية التي فتحت أفق البحث أمام المجال الحيوي للفعل الإنساني بما يحمله من مؤهلات ذاتية تطلق لدى الفرد حرية المبادرة والإبداع ، وبما يراكمه من تجارب فردية ومعارف موسوعية ووقائع خارجية تنقل الفرد من مجال الأقوال إلى ميدان الأفعال ، وهو انتقال لا يتم بشكل اعتباطي أي بدون ضوابط وقواعد ، بل هو محكوم بقواعد لسانية ، منطقية ، نفسية اجتماعية ، قيمية جمالية ثقافية ... هي خلاصة ما وصلت إليه نظريات متعددة تناولت تلك القطاعات المعرفية بشكل متخصص ، وفي نفس الوقت اهتمت بقطاعات أخرى ترتبط بعلوم التواصل مثل علوم البلاغة الحديثة والقديمة وعلوم المنطق المختلفة .

ولعل غياب دراسات عربية في هذا المجال النظري تعنى بتحليل الخطاب على ضوء تلك النظريات والمناهج الحديثة ، كان الفكرة الموجهة للموضوع وذلك باعتماد مقاربة تزاوج بين فهم عميق لتراثنا في مجال تحليل الخطاب

واستيعاب واسع للمناهج والنظريات التي عالجت الخطاب الإنساني مع الإقتدار على تطبيق آلياتها و تقنياتها ومناهجها .

وهكذا اتجه اختيارنا إلى المناهج التداولية المعرفية ، بهدف الاشتغال على إطارين : الأول نظري من شأنه أن يساهم في حل إشكالات تحليل الخطاب ، والثاني منهجي يسعى إلى مقاربة خطابات التواصل والحجاج التي تفرزها الممارسات اليومية من خلال المؤسسات الإجتماعية والسياسية والتيارات والفرق ووسائل الإعلام... .

كل ذلك من اجل فهم انتظارات الإنسان ومصالحه ، وتزويده بالمعارف والأفكار والآليات والتقنيات اللسانية وغير اللسانية حتى لا يقع في شَرَك الحيل والخداع والغش ، ومصايد التمويه ومنقلبات الإيهام . وحتى يستطيع مواجهة تحديات المنظومات الثقافية السلبية التي تصل إلينا عبر الوسائط الإعلامية الرقمية ، إنها في الأخير رهانات تطرح علينا تقوية جهاز فكرنا النقدي والإجابة عن مجموعة من الأسئلة الجوهرية المتعلقة بطبيعة الخطابات التواصلية و آلياتها وتشكلها وطرق فهمها وتحليلها وغاياتها وأهدافها .

إنها أسئلة حاولنا الإجابة عنها من خلال مدخل وأربعة فصول :

المدخل : قدمنا فيه تصورا عاما لطبيعة الإشكالات المنهجية التي تؤطر الموضوع كما وقفنا على المقاربات النظرية والإجرائية التي عالجنا في ضوئها القضايا والأسئلة التي يطرحها الموضوع .

الفصل الأول : عرضنا فيه نظرية التواصل والاتجاهات والنماذج والأبعاد التي تنتظم خطابات التواصل .

الفصل الثاني : وقفنا فيه على الآليات اللسانية وغير اللسانية التي تشكل خطابات التواصل والحجاج : الآليات ، اللسانية ، المنطقية ، التداولية ، المعرفية ، المجازية .

الفصل الثالث : تطرقنا فيه إلى استراتيجية الخطاب الحجاجي طرائقه ، تقنياته واشكالات الفهم والتأويل .

الفصل الرابع : أثرنا فيه علاقة الحجاج بنظرية المساءلة ، وخلصنا في نهاية المطاف إلى مجموعة من الخلاصات والاستنتاجات .

مدخل عام

في إطار الآفاق المنهجية التي ستؤطر مقاربتنا لإشكالات التواصل والحجاج سنتطرق في هذا المدخل إلى مختلف المحاور والقضايا التي ترتبط بالموضوع ، باعتبارها مساهمة متواضعة في تشكيل أرضية خصبة لنظريات ومناهج التواصل والحجاج في عالمنا العربي ، وهي مساهمة لا نعتقد أنها ستقف على حلول نهائية ، بل هي بداية لفتح أفق البحث أمام قضايا وإشكالات أخرى تتطلب معالجات ودراسات جديدة .

الإشكالية (1) : يطرح الموضوع إشكالية أساسية مصدرها تعقد شبكة العلاقات بين مكونات الخطاب (تواصلي – حجاجي) الداخلية والخارجية ، وديناميتها وخصوبتها وتداخلها ، وهي مكونات ترتبط أساسا بقضايا الإستقبال والفهم والتأويل ، في علاقاتها بأطراف الخطاب[1]* من جهة ، والسياق بمفهومه العام من جهة أخرى ، ويمكن تحديد الإشكالية هنا في تأويل العلاقات[2] التي تقيمها هذه المكونات فيما بينها ، لأن مبدأ العلاقة أصبح اليوم موضوع المعرفة ذاتها ، إنها الطفرة التي تعرفها مختلف العلوم والنظريات في الوقت الراهن[3] .

الإشكالية (2) : تتعلق بإشكالية الموضوع ، الذي يطرح طبيعة المنهج و ما يلائم تحليل مختلف القضايا التي يثيرها . ومختلف الاعتبارات التي من شأنها أن تفرض حدودا على كل محاولة تميل إلى إضفاء طابع الصرامة على المنهج المتبع .

---

1 - * التعبير عن الذات و احداث التأثير في الآخر ووصف العالم

2 - Essais sur l'argumentation . P.9

3 - Une logique de la communication P. 17.22
Voir Le langage silencieux EDWARD HALL

ولعل هذا التداخل الجدلي بين الموضوع والمنهج يفرض علينا منذ البداية البحث عن العلاقات الضرورية التي تنتظمهما ، وفق نظرة شمولية تراعي خصوصية الموضوع (التواصل والحجاج) وتحافظ على انسجام المنهج المتبع ، من أجل الوصول إلى الخلاصات والاستنتاجات الضرورية التي يتوخاها كل بحث أو دراسة .

الفكر المركب والتعدد المنهجي في مقاربة التواصل والحجاج

من هذا المنطلق يستجيب التواصل والحجاج في نظرنا لرؤيتين اثنتين ستؤطران تحليلنا ودراستنا لاشكالات الموضوع هما :

الرؤية الأولى : اعتبار الحجاج والتواصل موضوعا مركبا يصدر عن فكر مركب .

الرؤية الثانية : اعتبار التعدد المنهجي مقاربة نظرية وإجرائية للفكر المركب .

الفكر المركب :

من التحديات الكبرى التي تواجه الفكر المعاصر حسب «إدكارموران»[4] مسألة «المركبية» التي تفرض إصلاحا لنمط تفكيرنا ، فتجعله يتوخى النظام والدقة والوضوح في المعرفة ، ويستبعد النتائج والخلاصات المبتورة والمختزلة وذات البعد الواحد ، من منطلق أنه فكر لا يتجنب التحدي أو يقصيه بل يعمل على مواجهته وربما تجاوزه ، لكونه يسعى إلى المعرفة ذات الأبعاد المختلفة والمتعددة ، ويقر بمبدإ الشك وانعدام الكمال ، بغاية الوصول إلى معرفة غير مجزأة أواختزالية .

لقد عمل الفكر المركب على خلخلة أسس الفكر الكلاسيكي الذي كان يقوم على النظام والتخصص والعلية ، وعوضها بأسس جديدة ومفاهيم متفاعلة .

---

4 - Introduction à la pensée complexe.

وهكذا فقد تم :

أولا : وضع الإضطراب والتنظيم في إطار حواري Dialogique ، يمكن من خلاله حسب «موران»[5] لنظام منتظم أن ينمو في شروط قريبة من التنوع والاختلاف كما يمكن لسيرورات مضطربة أن تنبثق من حالات أولى محددة ودقيقة .

ثانيا : إعادة النظر في مبدإ التخصص بعد تطور «علوم المنظومات» التي تقوم بربط ما هو مدروس بطريقة منفصلة ، عبر تفاعل العناصر والمكونات وليس بانفصالها .

ثالثا : الدعوة إلى تأليف حواري بين الآليات التي اعتمدت في التفكير الكلاسيكي (الاستقراء والقياس والاستنباط والتماثل) وبين مفهوم التناقض من خلال استعمال هذه الآليات بشكل متفاعل تجعل من الاختلاف أساس التآلف الفكري .

بالاضافة إلى التصورات السابقة اقترحت النظرية المركبية «موران»[6] مجموعة من الحلول النظرية والمبادئ الأساسية ، تتوخى في مجملها المزاوجة المستمرة بين المتخصص وغير المتخصص ، من منطلق أن الفكر المركب هو نسيج من مكونات غير متجانسة ومرتبطة بطريقة غير منفصلة ، بعيدا عن التصور التبسيطي الذي لا يرى إلا الواحد أو المتعدد كلا مستقلا بنفسه ولا يمكن أن ينتبه إلى أن الواحد يمكن أن يكون في نفس الآن متعددا . فالإنسان مثلا[7] كائن بيولوجي وكائن ثقافي ، وكل فصل تبسيطي بين هذين الكائنين سيؤدي لا محالة إلى الانتقاص من القدرة الهائلة التي تكمن في تفاعل العقل العضوي البيولوجي والعقل الثقافي الإنساني في ارتباطهما الحواري .

---

5 - Ibid

6 - Ibid.

7 - Ibid.

الحجاج والفكر المركب :

يقول روني باي : «إن الحجاج هو نشاط ثقافي في الإنتاج والتلقي»[8] ، وهو بذلك نشاط للتفكير في كل ما هو قابل للنقاش والتأمل ، من أفكار وآراء ومواضيع وطروحات . وهي قاضيا تنمو مع الإنسان وتكبر معه وتتغير وتتشكل ، وقد تموت لينطلق البحث من جديد – في رحلة شاقة – من معارف جديدة ، أو كما يقول موشلير « ينبغي أن يظل الحجاج مفتوحا أمام النقاش والتقييم» .

وقد ينزل الحجاج كما يقول بلانشي ليغازل الغرائز فيتحول إلى جدال عقيم وسفسطة ، وقد يكون عقليا ينحو نحو العمل والقيم[9] ، وقد يعلو إلى مرتبة الحقيقة فيتحول إلى يقين ، يؤدي إلى الإتفاق المطلق أو الاختلاف المطلق ، وهو بهذا لا يعد موضوعا للتواصل والحجاج ، كما يقول موشلير[10] : «حين يتفق الجميع فلا مبرر لما يقال ، وحين يكون القول الحجاجي مغلقا فلا يشكل قولا حجاجيا» .

لذلك فإن موضوعات التواصل ستظل مطروحة مادام هناك تواصل بين الأفراد والجماعات والأفكار والطروحات ، ويأتي الحجاج كشكل من أشكال التواصل والتخاطب والنقاش والحوار ، لا يتبع منطقا معينا وليست له موضوعات محددة ، بل موضوعاته هي قضايا تشمل كل المعارف الإنسانية ، حتى تلك التي تعد برهانية ، فخاصية الحقيقة كما يقول«بوبر» تكمن في قابليتها للدحض ، ولا تخضع لحدود تفصلها عن كل العلوم الانسانية : (منطقية ، تداولية لسانية معرفية فلسفية وغيرها) ، باعتبارها وسائط للثقة بين الناس يكون الحجاج هو الدافع إليها . وهي عادة مرتبطة بالقيم الإنسانية الكونية والمجتمعية والمحلية في تفاعلها وديناميتها دون مصادرة حق الآخر في الرأي مع الاحتفاظ بمعتقداته في إطار الاحترام المتبادل بين الثقافات والأفكار ، دونما تعصب أو نزعة وثوقية ، وهكذا فالحجاج كما يؤكد «مارك اوجنو»[11] يتقدم بأدلته وحججه

---

8 - Introduction à la logique et à l'Argumentation.
9 - Le raisonnement.
10 - Dictionnaire Encyclopédique de la pragmatique.
11 - La parole pamphletaire.

من الشك إلى المحتمل ، من أجل اختزال الشك والتغلب على مقاومات التردد وتذويب المسبقات الفكرية الجاهزة .

ومن خلال ما سبق فإن الفكر الحجاجي يتطلب تشخيصا دقيقا يتوخى البحث في الإشكالات التي تثيرها مكوناته البنائية ، انطلاقا من البحث عن الآليات والتقنيات التي تحقق شكله الداخلي : (الآليات والبنيات والخطاطات والتقنيات) وتستجيب لمتطلبات وضعه الخارجي (السياقات والمقامات) ، وهو ما سنقوم بعرض بعض اشكالاته الأساسية و تحليلها ومعالجتها في الفصول اللاحقة من هذا البحث .

إشكالات البناء الداخلي للحجاج :

تطرح في هذا الإطار إشكالية حقيقية تتمثل في طبيعة البناء الداخلي للحجاج وتتمثل في السؤال التالي :

هل للحجاج بناء شكلي محدد يحكمه منطق معين ، وقواعد وآليات وطرائق خاصة ، يمكن من خلالها إثبات حجاجية القول الحجاجي ؟

يقول طه عبد الرحمن : «لا معرفة عقلية تصح بغير منطق يضبطها[12]» والحجاج باعتباره قواعد منطقية لا يوجد شيء منها في الحجاج وهي مشحونة به ، لكن هل هو منطق صوري أو رمزي أو معرفي أو واقعي ؟ إن الحجاج هو كل هذه الأشكال يوظف منها ما يلائم بناءه ويؤسس قواعده وأدلته وحججه ، وهو بقدر ما يوظف هذه الأشكال فإنه يكيفها ولا يخرج عنها ولا يتجاوزها . إنه يتمحور بين شكل العلم المعرفي (القوالب والأنظمة الذهنية) وبين العقل المتكلم (في نظرية المساءلة الفلسفية) لكن الشرط الأساسي الذي يتطلبه الحجاج هو الاتساق ، والاتساق في المنطق معناه : «أن كل شيء يفكر فيه أو يعبر عنه يحتاج فيه إلى طريقة يتم بها هذا التفكير أو هذا التعبير ، وهذه الطريقة لها قوانين تضبطها حتى إذا توسل بها المتوسل جاء تفكيره أو تعبيره مستقيما (متسقا) وإذا خرج عنها جاء معوجا (أي غير متسق ومضطرب)[13] .

12 - حوارات من أجل المستقبل .
13 - نفسه

ومن هنا يبدو أن التفكير في البناء الداخلي أو البحث في مكوناته وآلياته يظل مرتبطا بضرورة البحث في اتساقه ، وهي خاصية لا يمكن تشخيصها نظريا ، لأنها ترتبط بالملاءمة القولية أو الحجاجية في علاقتها بالبناء الداخلي ، بما يعنيه ذلك من نظام لساني داخلي ونظام استعمالي خارجي ، أي كل الآليات اللسانية والمعرفية والتداولية والنفسية وغيرها والتي عن طريقها يتحقق القول الحجاجي ودرجة قوته وفعاليته يقول بلانتان : «إن الحجاج لا يوجد في اللغة أساسا وإنما يرجع إلى مكانته في القول» .

وهكذا فهذه الآليات اللسانية وغير اللسانية ، حين تتلبس بالحجاج ، تخضع لطبيعته ومنطقه ، فيغيب الجانب الصارم فيها وتذوب في وظائف الحجاج ، وتتكيف مع مقتضياته وغاياته ، كما أن هذه الآليات حين تتلبس بالشعر أو غيره يطوعها الشاعر لوظائف وطبيعة وغايات الشعر ، فتأبى هذه الآليات إلا أن تدفع صاحبها إلى المغامرة الإبداعية لتفجير موضوعه الخاص» فكلما تعددت الطرائق والآليات فثمة حاجة إلى قيام حوار وحجاج ، لأن كل ما كان أصله متعددا فلا بد أن يكون الطريق إليه متعددا ، وقيمة التعدد تتحدد بالنتائج التي تقدمها في الأخير .

المنهج المتعدد والمقاربة المعرفية :

يطرح إشكال المنهج الذي سيؤطر تحليلنا للتواصل والحجاج نفسه بشكل ملح ، ذلك أن تعدد المناهج والنظريات التي قامت بمقاربة خطابات التواصل والحجاج يضعنا أمام اختيارات صعبة ، خصوصا ونحن نتطلع إلى وضع أسس منهجية تزاوج بين التحليل النظري والتحليل الإجرائي وما يدور في فلكهما : بدءا من التشخيص الدقيق وانتهاء بالتأويل المعمق ، من جهة ؛ واستحضاراً للطبيعة الإنتاجية أو الفكرية المركبة لخطابات التواصل والحجاج من جهة أخرى .

ويمكن القول ان الخطابات تعد أولا تقييما للموضوعات التي تطرحها أو تسائلها ، كما أن عملية التحليل النظري تعد ثانيا تقييما لعمليات التخاطب ، أما عملية التحليل الإجرائي فهي تقييم كلي لكل العمليات السابقة ، ولهذه

الاعتبارات دعا محللو هذه الخطابات إلى اعتماد تعدد منهجي تشييدي في كل مقاربة تطمح من جهة إلى الإحاطة والإلمام بالقضايا الأساسية والجزئية للموضوع[14] وتصبو من جهة أخرى إلى تقديم نتائج مرضية لا تخدم فقط جوانب الموضوع والمنهج ، بل تتطلع أساسا إلى خدمة المصالح العامة للناس بهدف إغناء أنظمتهم الثقافية والعلمية والأخلاقية ، وتنمية الفكر النقدي للعقل العربي ، تنظيرا وممارسة . ومن هنا يدعو«Plantin» إلى استبعاد الحذر اتجاه توظيف المقاربات المتعددة «Pluridisciplinaire» وتبنيها لصالح تعدد منهجي مرن وفعال[15] بحيث تسعى هذه المقاربات المتعددة إلى تشييد حقائق جديدة وناجعة .

وانطلاقا من ذلك سنقوم بإعمال المنهج التداولي المعرفي ، الذي هو عبارة عن تداخل متكامل ومنسجم ، بين مجموعة من المناهج والنظريات ، أبرزها العلم المعرفي (الذي انبثقت عنه التداوليات المعرفية) واللسانيات المعرفية (الجيل الثالث اللسانيات) .

وهذا المنهج عبارة عن توظيف مجموعة من آليات ومفاهيم وطرائق العلوم النظرية العلمية كالمنطق والمعلوميات والعلوم الاجتماعية أو الإنسانية كالفلسفة وعلم النفس وعلم الإجتماع وعلم السياسة وغيرها .

إن التداوليات المعرفية كما يؤكد ذلك طه عبد الرحمن : «تقوم على تعدد منهجي ، فالطرق إلى المعارف كثيرة ومتباينة ، لأن مذاهب المتناظرين شتى ، على عكس البرهان الذي يتوافق مع تصور نظام اجتماعي تستبد فيه بنية واحدة بالتوجيه ، ويسوى فيه غيرها من البنيات وما بينها من اختلافات طوعا أو كرها ، أما التداوليات ، فتعني الإقرار بواقع اجتماعي يقر بالمبادرة الفردية والنزعة الجماعية ويشرك الجميع في البحث عن حلول لأوضاع تقبل التنقيح و التغيير»[16] . وهذا التعدد المنهجي للتداوليات المعرفية يجد له منطلقا منهجيا فيما ذهب إليه المفكر الفرنسي «إدغار موران» (كما سبق الإشارة إلى

---

14 - Critique de l'Argumentation

15 - Ibid

16 - أصول الحوار و تجديد علم الكلام

ذلك) حيث تعمل التداوليات (التي هي أشكال الفعل والحياة[17] أو هي معرفة كل ما يفكر فيه الآخر)[18] على تحليل هذا الفكر مع ضمان النظام والدقة والوضوح في المعرفة واستبعاد كل النتائج المبتورة ذات البعد الواحد .

ونشير في الأخير إلى أهم المحاور المنهجية التي سنسلكها في تحليلنا للخطاب التواصلي والحجاجي ، فقد عملنا من جهة أولى على توظيف نظرية العلم المعرفي لفهم آليات اشتغال الذهن البشري انطلاقا من ثلاث مستويات : المعرفة والإدراك والذهن ، كما قمنا باستثمار نتائج نظريات تحليل الخطاب ، السوسيولوجية والسوسيوثقافية والسوسيوسياسية ، ومن جهة ثانية فتحنا دراسة الحجاج والتواصل على بعض النظريات الفلسفية لما بينهما من ترابط ، في ما يتعلق بالمنهج والموضوع ، كما استعنا بنظرية السببية ونظرية المساءلة ، ومن جهة ثالثة قمنا بتشغيل مجموعة من المناهج والآليات التأويلية التي ساعدتنا على تقييم موضوعات التواصل والحجاج ، كان من أبرزها آليات التأويل اللساني الدلالي ، وآليات التأويل اللساني التداولي وآليات التأويل التداولي المعرفي (علم النفس المعرفي وسسيولوجيا المعرفة ...) بالإضافة إلى اعتماد السياق بمفهومه الواسع في كل خطوة تحليلية ، لما أصبح يلعبه من دور مركزي في كل النظريات ، وما يحدثه من تأثير في الإنتاج والتأويل .

إن الاشتغال وفق هذا المنهج المتعدد ، الذي كان حاضرا في محطات التحليل ، لا يعد تقليصا أو تقزيما لبعض المناهج المتخصصة أو إلغائها ، بل كان استثمارا لها وإعمالا لنتائجها في المحاور والإشكالات التي اقتضتها الإجراءات المنهجية ، كما أن ذلك لم يمنعنا من تقديم الملاحظات والانتقادات الضرورية حول القصور الذي اعترى بعض المناهج والنظريات ، كل ذلك في إطار الموضوعية النسبية ، أو كما يقول الإمام الشافعي : «رأيي صواب لكنه يحتمل الخطأ وخطأ لكنه يحتمل الصواب» .

---

17 - Dictionnaire Encyclopédique de la pragmatique P: 133 Linguistique et pragmatique

18 - Théorie de l'Argumentation

الفصل الأول

التداوليات المعرفية ونظريات التواصل

- البلاغة وتحليل الخطاب-

لم تكن دراسة التواصل كنظرية علمية سطع نجمها في العقود الأخيرة ، بعيدة عن الإشكالات التي ترتبط بتحليل الخطاب ، في مختلف العلوم الإنسانية (فلسفة ، أدب لسانيات ، نقد ...) التي أصبحت تهتم بالخطاب في ذاته وفي علاقته بالحقول المعرفية الأخرى ، وتعمل على إبراز القيم الجمالية والمعرفية ، والفكرية ، التي ينشئها الخطاب كيفما كان جنسه ، بحثا عن إحداث تواصل : دلالي أو تواصل تداولي أو تواصل قصدي... حسب الاتجاهات والمذاهب .

فمن بين أهم الجوانب التي اهتم بها محللو الخطاب داخل نظريات التواصل نجد : الجانب البلاغي والجانب الخطابي بصفة عامة ، لما له من حضور فعال في كل نشاط إنساني ، سواء تعلق الأمر بإنتاج الفكر أو الممارسة ، ممارسة تتجه بالأساس إلى الآخر ، لأن الإنسان لا يفكر أو يتفلسف أو يكتب أدبا أو غيره ، بمعزل عن العالم ، أو يهدف إلى تأثيث رفوف مكتبته الخاصة ، إنه في تواصل مستمر وفعال مع محيطه الخارجي وما يحتويه من مؤثرات ومحفزات وإكراهات ، أو قل ما يطرحه من أسئلة وإشكالات وافتراضات وانتظارات . ومن هنا يدخل الجانب البلاغي كآلية رئيسية في تشكيل خطاب جمالي لتحقيق تواصل مميز ومثمر بين الناس .

واليوم نعيش عودة قوية للبلاغة ، التي تعرف حضورا متميزا في مشهد علوم التواصل ، لا عن طريق تعليمها في الثانويات والجامعات ، لكن عن طريق

الإشكالات التي تطرحها من داخل الخطابات اليومية التي يتداولها الناس فيما بينهم ، داخل المؤسسات الاجتماعية ، والسياسية والبرلمانات ، والحكومات ، والشارع والمقهى والمنزل ... فهم ويستهلكونها تحت ضغط الحاجة التي تقتضي تواصلا يجلب المنفعة والتفاهم وقضاء المآرب والمصالح والاتفاقات و... إنها الإشكالات التي تطرحها نظرية الحجاج باعتبارها في الحقيقة الخيط الرابط لكل النقاشات التي دارت حول الخطاب والتواصل منذ القديم إلى اليوم ، من ديمقراطية أثينا إلى «ديمقراطية» هيأة الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي .

وإذا كانت نظرية التواصل اللساني تنطلق أساسا من معرفة كيف يتم التواصل أكثر من معرفة ما يتم إيصاله ، فهي رغم ذلك ، تفتح بابا مهما لمعرفة الطرائق والآليات والتقنيات التي تتم بها صياغة الأقوال ، ومن ثم فهي تطل على الكيفية التي يشتغل بها الذهن البشري ، لترتيب الأفكار والتعبير بها عن المشاعر والمعتقدات ، والتأثير بها في الأخيرين ، وإذا كانت هذه الوظائف في غالبها ترتبط بالمعنى الضمني (أو غير المباشر) وليس بالمعنى الحرفي (المباشر) الذي هو مجال النظريات التواصلية العلمية (الآلية) ، فإن النظريات المعاصرة انفتحت على معطيات تجاوزت النقل الحرفي ، إلى البحث في الخلفيات المعرفية والسياقية التي تحكم التواصل التفاعلي الإيجابي بين المتكلمين والمستمعين ، وهي معطيات تداولية تؤثث الفضاء التواصلي العام بمختلف العوامل : المعرفية والسياقية والنفسية و الإعتقادية .

إن التداولية بصفة عامة هي المعرفة الشاملة بالآخر ، والمعرفة العميقة بمكونات عملية التخاطب ، أو هي كما يحددها فكوني ، جزء من العلم المعرفي باعتباره المستوى الوسيط بين العالم الحقيقي أو الفيزيائي وعالم اللغة ، وهما عالمان لا يرتبطان بشكل ميكانيكي ، وإنما تعمل اللغة على تجسيد سيرورة البناء المعرفي الواسع للعالم ، كما أن هذه السيرورة لا تعكس العبارات التي ينشئها الإنسان ، ولا العالم الحقيقي الذي تعتبر قضاياه صورة للتعبير اللغوي ، وإنما تنحو في اتجاه تنظيم الميكانيزمات التي تشتغل وفقها الأنظمة السيكلوجية والذهنية ، فاللغة باعتبارها ميكانيزما سيكولوجيا تتقاسمه آليات ذهنية متنوعة (تركيب ، استنباط ، استنتاج ، مجاز ، معجم...) تشتغل وفق عمليات تفكيكية

واستنتاجية ، وهي عمليات أصبحت تعالج اليوم في إطار تداولي داخل النظرية الحجاجية ، بعدما كانت تدرس وتحلل داخل النظام التواصلي الذي تحكمه قواعد النقل (وهذا ما سنقوم بدراسته فيما يلي في الفصل الأول تحت عنوان النموذج الترميزي والنموذج الاستنتاجي) .

لقد عادت البلاغة اليوم وتباينت وجهات نظر المشتغلين بقضاياها ، كما حفل تاريخها الطويل بالصراع المحتد باعتبارها فنا للتعبير أو فنا للإقناع تجاذباها بشكل مستمر وحاد ، فحين يتسع مجال النقاش الديمقراطي تهيمن كفن للإقناع (أرسطو ، محاكم أثينا ومجالس الشعب) وحين يتقلص مجال الحريات ترتكن في الأديرة والمعابد كفن للتعبير والتزيين (البلاغة العربية والبلاغة الغربية الكلاسيكية في عهد سلطة الدين (كاتوليكية)) . غير أن هدفها في الأخير يبقى هو الاتجاه نحو الآخر من أجل إشراكه والعمل على انخراطه في قضية ما أو طرح معين ، على أن الفرق سيظل أساسا في طريقة إشراك الآخر ، إما عن طريق الإغواء «فن التعبير» أو عن طريق الحجاج «فن الإقناع» وفي اختيار أحدهما يتحدد موقع المستمع ، وهو رهان لم يدرس بكامل الدقة من قبل دارسي البلاغة القديمة .

وبناء على التحليل الذي ينتظم الدراسة التي نقدمها ، وانطلاقا من التراكمات النظرية والتطبيقية التي خلفتها الدراسات القديمة والمعاصرة ، يمكن تصور منظور جديد للبلاغة ، ليس فقط باعتبارها نظرية لانتاج الأفكار أو الممكن منها ، لكن باعتبارها فنا لنظام الاعتقاد أو قل فنا للإقناع النظري والثقافي (الإيديولوجي) ، والتي سيحتل «موقع المستمع فيها» قطبا أساسيا يحدد طبيعتها واتجاهاتها وأهدافها (إغواء و إقناع) .

فطريق الإغواء هو أسلوب يتجه نحو مخاطبة العاطفة (ترهيبا وترغيبا) حيث يلعب على الجوانب النفسية والمشاعر الحساسة ، وهو تغييب شبه كلي للعقلانية ، أما طريق الحجاج فهو أسلوب يتجه نحو مخاطبة العقل وآلياته العقلانية ، إعمالا للحواس والإدراك والحدس ، وليس بحثا عن الحقيقة المطلقة التي دافع عنها أفلاطون أو الحقيقة العقلية التي تغنى بها ديكارت ، بل

سعيا إلى الإقناع والتدليل على الممكن الذي أعلن أرسطو ميلاده في القرن الخامس قبل الميلاد . وهذا التمييز بين الإغواء والحجاج لا ينبغي اعتباره انفصالا نهائيا بينهما ، لأن الأمر يتعلق بضرورة استيعاب هذه الثنائية : القائمة على استعمال الإغواء كطريقة للإقناع واستعماله كطريقة منبثقة من طبيعة الحجاج الهادفة إلى الإقناع دون أن تكون بديلا عنه .

موقع المستَمَع* في الدراسات البلاغية :

يعد «المستمع» مكونا أساسيا في العمليات التخاطبية والتواصلية وموجها ضروريا لطبيعتها وأهدافها ، مما يتطلب معالجة نظرية وتطبيقية في نفس الوقت ، لإبراز الجانب التعليمي و(الأكاديمي) والجانب التداولي (العملي) .

أ - **الجانب التعليمي** : لقد بذلت جهود جبارة منذ أرسطو إلى اليوم في تدريس البلاغة وقوانينها ، تدريسا نظريا ، يهدف إلى تلقين وحفظ القواعد لممارسة الخطابة وفن الإقناع في المحافل الخاصة بالجدال ومقامات المناظرة وغيرها ، وقد أضاءت هذه الجهود النظرية الطريق أمام فهم مكوناتها وآلياتها ، وفتحت المجال لانتقادها وتقويم الإعوجاجات التي كانت تطال بعض طرائقها المعيار ، ولم يخل الدرس ذو الأصل(الإغريقي القديم ، الذي كان السفسطائيون يتعاطونه كمهنة) من انتقادات المعلم الأول[1] ، كما لم تخل حلقات تكوين وتعليم التلامذة العرب لقوانين الخطبة والجدال[2] من التقويم ، ونفس الشيء نجده في الخطابة الغربية خصوصا النقد الذي وجهه ريتشاردز[3] للدرس البلاغي في الثلاثينات من القرن الماضي ، ونجده في النقد الذي وجهه «رولان بارث» في الثمانينيات من القرن الماضي[4] ، أما جامعاتنا العربية والمغربية ، فأغلبها لازالت منهمكة في تدريس أصول البلاغة

* المستمع ، هو ترجمة ل Auditoire وهو كل ما يحيط بعملية التخاطب * العمري : مجلة علامات في النقد

1- أرسطو فن الخطابة

2- الجاحظ البيان و التبيين

3- ريتشاردز عالم الفكر : دروس في البلاغة

4- قراءة جديدة للبلاغة القديمة

كما فهمها القدماء بل إعادة إنتاج ما أرخ له أحمد أمين ، دون تفعيل ذلك الموروث القديم وفتح أفقه على المناهج والنظريات الغربية المعاصرة التي أكدت حضورها في حقل التواصل .

ب - **الجانب العملي أو التداولي** : وهو المجال الأوسع لممارسة الفعل الخطابي أو البلاغي ، مجال التفاعل اليومي المستمر بين الأفراد والمؤسسات داخل المجتمعات ، حيث ينتج أشكالا عديدة ولا متناهية من الصيغ والأقوال التي لا تحدد قيمتها في الجانب النظري ، وإنما في جانبها العملي أو قل التداولي ، المتمثل أساسا في الفعالية والدينامية الاجتماعية وقد أدى البحث في العقدين الأخيرين في هذا المجال (أي التداولي) إلى كشف مناهج وطرائق جديدة للإقناع داخل المؤسسات الإنتاجية (اجتماعية ، اقتصادية وثقافية...) تنطلق من طرح سؤال مركزي : كيف تجعل الآخر يعتقد أن ما تنتجه من أفكار وأطروحات (...مفيدا أو غير مفيد؟ إن الجواب عن هذا السؤال يتطلب البحث عن اقتضاءات مشتركة داخل موقع المستمع (أو فضاء المستمع) من شأنها أن تخلق أثارا جماعية ومشتركة بين المتخاطبين ، كما تفعل نظريات التحفيز السلوكية مثلا[5] .

إن البحث في «موقع المستمع» داخل المجال التداولي يلغي تقريبا الطرائق المعيار وينتج طرائق متنوعة تتلاءم مع الوضع التخاطبي أو التواصلي المطلوب في عمليات التأثير والإقناع بالإضافة إلى الشروط والإقتضاءات «المجالية»[6] . ذلك لأن بناء العمليات الحجاجية يستوجب منذ البداية اعتبار « المستمع» والبحث فيه ، وبعبارة أخرى ، ينبغي البحث عن الاتفاقات المسبقة والمشتركة التي سيقوم عليها الاستدلال ، وإلا فإن الحجاج سيكون مصادرة على المطلوب ، ولا يؤدي وظيفته الإقناعية الأساسية .

5- دراسة عنصري المثير و الإستجابية في سلطة الإشتراك

6- المجالية مصطلح جغرافي وظف في المجال السياسي ثم في المنهج التداولي ثم الحجاجي .

إن قضية الإقناع لا تتحدد في ذاتها وإنما هي رهان يؤسس قاعدة الحجاج ، داخل اقتضاءات مجالية متنوعة ، يتمتع فيها المتخاطبون بقسط كبير من الحرية ، وإذا لم تتوفر الحرية ، فإن ما يطرحه ويدافع عنه الناس لن يكون سوى قول نظري خالص وفارغ من سلطة الإقناع ، والحرية شرط أساسي ينبغي استحضاره في كل مقاربة للخطاب الحجاجي (بالإضافة إلى الشروط الأخرى) ، حتى يقترب الدارس من الموضوعية النسبية المتوخاة من التحليل وتتاح له إمكانات التأويل ، إذ لا يمكن أن نحكم على خطاب موجه إلى الشعب (من أجل تجديد انتخاب رئيس ، دون أن يكون هناك منافس أو استفتاء حول دستور بلاد معينة...) بأنه مقنع ، ونحن نعرف جيدا أن عدم تجديد الثقة «بالانتخاب «أو عدم التصويت بنعم ... قد يجعل المواطن معرضا للإكراهات المادية أو النفسية .

إن هذه الإشكالات المرتبطة بالتواصل والتداوليات والحجاج ، تعتبر قضايا جوهرية ومترابطة فيما بينها ، وغير قابلة للتجزيء ، وغياب أو تغييب إحداها يعني تعريض الخطاب «للتشويه» و«التحريف «وفتح المجال للتبرير أكثر منه للتحليل والتأويل ، ونحن من خلال هذه الدراسة سنحاول فتح أفق البحث في نظرية التواصل والحجاج من خلال ما أنتجته النظريات والمناهج المعاصرة من أدوات وآليات التحليل ، وما تختزنه ثقافتنا العربية : لغة ومناهج ومفاهيم ، وما تفترضه الاقتضاءات المجالية من ظروف سياسية واجتماعية وثقافية وعقائدية وغيرها .

إنها أسئلة تستوقفنا بداية أمام موضوع أساسي تقتضيه الدراسة ، هو دراسة النماذج التواصلية ، التي استقطبت اهتمام الدارسين من مختلف تخصصاتهم (لسانية وتداولية وفلسفية وإعلامية ومعرفية وغيرها) حول قضية مركزية هي :

كيف يمكن للغة ، علمية كانت أو عادية (الكلام اليومي) أن تنتج المعنى؟ وبمعنى آخر كيف تنتج اللغة تأثيرا ما داخل سياق تواصلي انطلاقا من الاستعمال اللغوي ؟

إنها أسئلة تدفع إلى البحث في الآليات التواصلية (ذهنية ، معرفية ، لسانية ، منطقية ...) الهادفة إلى إحداث التأثير والإقناع ، والتي أصبحت تشكل تحديا لكل نظريات التواصل والقطاعات العلمية التي يكون التواصل حقلا من حقولها .

وقبل التطرق إلى هذه النماذج التواصلية واتجاهاتها وإلى المناهج العلمية التي اعتمدتها في صياغة وتشكيل برنامج اشتغالها ، لا بد من الوقوف ولو بشكل موجز ، على الميكانيزمات القبلية التي تهيئ عملية التواصل بين المتخاطبين ، وتحققه ، وتسمح بانطلاق عملية الفهم الأولي للأقوال ، والتي تليها عملية التأويل ، وهي الميكانيزمات التي أصبحت مجالا خصبا لدراسات العلم المعرفي ، وما يتفرع عنه من قطاعات معرفية أخرى ، كالتداوليات المعرفية وعلم النفس المعرفي ، والقالبية ، «لفودور» ، وغيرها ، وهي قطاعات أساسية وضرورية لفهم عملية التواصل ، وضرورية كذلك لتفكيك آلياته وتدقيق أبعاده المختلفة . ويأتي في مقدمتها البعد التداولي المعرفي الذي اخترناه كإطار نظري لمقاربة إشكالات التواصل والحجاج .

1- إشكالية التأويل وعملية الفهم في التداوليات المعرفية :

إن أكبر تحد كان أمام التداوليات المعاصرة (بداية الثمانينات) هو وصف عملية التأويل التامة للقول ، (قد تعددت المناهج والمقاربات) نظرا للإشكالات التي بدأت تظهر وتطرح في مختلف مجالات العلوم التواصلية ، حيث تعددت المناهج والمقاربات النظرية في محاولة لسد الفراغات وضبط المفاهيم وتحديد الآليات ، للوصول إلى نتائج تلائم التطورات التي عرفتها المجالات التواصلية الآلية (الحاسوب والعقول الإلكترونية والأنترنيت...) ، لذلك فقد توزعت جهود التداوليين بين مقاربتين أساسيتين لوصف عملية التأويل :

المقاربة الأولى : تتعلق بتأويل جزئي للجملة انطلاقا من المكونات الداخلية (تركيب ، دلالة ، فونولوجيا) وتندرج داخل التأويل اللساني .

المقاربة الثانية : ويتعلق التأويل فيها بإسناد مرجع معين لمختلف الحدود الداخلية للقول ، حيث يشير المرجع فيها بصفة عامة إلى أشياء العالم ،

وتندرج داخل التأويل التداولي . وهاتان العمليتان التأويليتان غير متكافئتين على مستوى التحليل ، بالإضافة إلى أن الميكانيزمات التي تحققهما يمكن أن تكون في بعض أجزائها متشابهة ، بالنظر إلى الدلالة أو المعنى أو المرجع ، وهي عناصر لا تخرج عن الهدف والغاية من كل تأويل للقول ، لكن الإشكال الذي طرح مع التداوليات منذ ظهورها هو : كيف يمكن الفصل بين عمليتي الفهم التي تكون أسرع ، وعملية التأويل التي تأتي في مرتبة ثانية لتحليل أو معالجة الفهم[7] الحاصل بين المتخاطبين .

لمعالجة هذا الإشكال ، لابد من الإشارة إلى الإمكانات النظرية للتأويل التي تسمح أولا بالإحاطة الشاملة بمفهوم التأويل ، وتسمح ثانيا بإبراز التقاطعات المختلفة لبعض النظريات حول عملية التأويل .

إن تأويل الأقوال هو عملية مرتبطة بواقع وحقيقة الأقوال ، فهو يفترض إجراءات تحليلية وصفية لعمليات كلامية ، موجودة فعلا ، أي متحققة بفضل اللغة ، التي هي نظام مزدوج : نظام من العلامات والرموز اللسانية ، ونظام معرفي سيكلوجي ، ومن هنا تطرح إمكانيتان إجرائيتان لمفهوم التأويل[8] :

— **الإمكانية الأولى** : يكون للتأويل فيها موضوع واحد هو وصف عملية الفهم التي تتحقق عن طريق اللغة وحدها ، وهذا الوصف ليس له أية علاقة بالحقول المعرفية الأخرى (نفسية ، سياقية...)

— **الإمكانية الثانية** : يكون التأويل فيها مندمجا داخل منظومة عامة للعمليات المعرفية التي تحقق الفهم وهي منظومة تسمح بالإحاطة بكل الحقول المعرفية التي تدور في فلك الفهم الشامل للقول .

وهاتان الإمكانيتان متباينتان ، وتفترضان نظريتين معرفتين مختلفتين :

الأولى : نظرية تعتبر أن تأويل الأقوال يكون مستقلا بذاته ، أي يمكن دراسة الأقوال في استقلال عن باقي العمليات المعرفية ، وهذه النظرية غير مقنعة ، لأن جزءا كبيرا من المعلومات غير اللسانية تتدخل في عملية التأويل .

7- (Dictionnaire Encyclopédique de la pragmatique P: 133

8- (Ibid P: 133-140

الثانية : نظرية تعتبر أن جزءا على الأقل ، من تأويل الأقوال ليس مستقلا بذاته ، بل يكون موضوعا للعمليات المعرفية العامة ، وهذه النظرية هي التي تعرف حاليا بالنظرية التداولية المعرفية التي أرسا قواعدها كل من «سبيربرو ولسون» في كتابهما الإصابية Pertinence الذي ينطلق من مجموعة من المبادئ والمفاهيم أبرزها مبدأ الملاءمة .

1-1- مبدأ الملاءمة :

مع ظهور النظريات التداولية التي ارتبطت بدراسات كل من «أوستين وسورل» و«كرايس وديكرو» تقلص دور التحليل المنطقي اللساني ، أي البحث في النظام الشكلي الداخلي للغة ، واتسع مجال التحليل الخارجي للأقوال ، كأفعال مرتبطة بالوقائع الخارجية القابلة للتحقق ، وارتبط الكلام بالاستعمال العادي أي اللغة اليومية ، وقد تمكنت هذه النظريات من إرساء قواعدها وتطوير آلياتها وفق مبادئ عامة تراعي علاقة ما هو داخلي في اللغة بما هو خارجي عنها ، وذلك بتوظيف مفهوم جديد للسياق هو مفهوم يرتبط بالعوامل الخارجية التي تتحكم في عمليات التخاطب ، وقد كان لهذا المفهوم دور مهم في إبراز دلالة ومعنى واتجاهية الأقوال في فهمها وتأويلها وفق المعطيات الخارجية .

ولعل العمل الجبار الذي قام به «كرايس» في تقعيد التخاطب كان له التأثير الكبير في تحديد المبادئ الرئيسية في عمليات المحادثة وأشكال التواصل بين المتخاطبين وهي مبادئ ساهمت إلى حد كبير في إبراز القيمة التداولية للكلام وأعطت مفهوما جديدا للمعنى الضمني والمعنى الحرفي ولمعنى التأويل والفهم ، وعالجت إشكالات المقامات أو السياقات التي كانت تقف في وجه التحليل المنطقي التقليدي ، معالجة فتحت الباب أمام توظيف نتائج العلوم المعرفية .

1-2- العلم المعرفي وأسئلة الفهم الكبرى :

بالرغم من أنه يأخذ اسم «علم» ، إلا أنه لا يعد علما كليا ومنسجما[9] ، بقدر ماهو تآلف لمجموعة من العلوم المستقلة ، بعضها وصفي تجريبي (علم النفس

9- (Dictionnaire critique de la communication 870 /95

المعرفي ، اللسانيات والأنطربولوجيا المعرفية ...) وبعضها نظري (الفلسفة) وبعضها نظري تطبيقي (الذكاء الاصطناعي) ، غير أن ما يجمع هذه العلوم أو ما يجعلها تلتقي هو استهدافها العمليات الآلية لاشتغال الذهن البشري (تفسير وتجميع وإنتاج المعارف وتأويلها...) وفق برنامج للبحث ومحدد بدقة ، وهذا البرنامج هو الذهن المحرك والقوة الإدماجية الآلية في تشكيل وتطوير المعرفة .

إن تعريف أو وصف العلم المعرفي ليس مهمة سهلة ، نظرا لتعدد المقاربات التي تناولته في علوم مختلفة ، و نظرا لكونه محاطا بمجموعة من البراديكَمات التي ينبغي تحليلها للوصول إلى مقاربة شاملة ، و هذه البردكمات مرتبطة بثلاث أسئلة كبرى كانت تعد من أعقد الإشكالات النظرية في تاريخ التفكير الإنساني وهي :

— سؤال المعرفة : كيف يعرف الإنسان ما يعرف ؟
— سؤال الإدراك : كيف يدرك الإنسان ما يعرف ؟
— سؤال الذهن : كيف يتحقق الإدراك داخل الذهن ؟

إشكالية المعرفة :

وهو سؤال مركزي في العلم المعرفي : طرحه بشكل دقيق العالم اللساني النحوي تشومسكي سنة 1975 يقول[10] «كيف يحدث أن الكائنات البشرية ، في ارتباطها المحدود والشخصي بالعالم تكون رغم ذلك قادرة على معرفة ما تعرفه» ، فالإنسان يمتلك معرفة ما عن حقائق موجودة فعلا ، وعن بعد «Distal» ، سواء كانت طبيعية أو اجتماعية أو رياضية أو لسانية ، ويدخل مباشرة معها في تفاعل ، عن طريق الحواس ثم بواسطة الحدس ، وأخيرا عن طريق التفكير المعقلن ، حيث تصبح هذه الحقائق الموجودة عن بعد معارف مكتسبة ومحصلة يوظفها الإنسان ويستدعيها كلما دعت الضرورة إلى ذلك .

-10 Ibid 872 / 95

إشكالية الإدراك :

وهو سؤال يحدد نفسه بشكل أصعب ، أي أن معرفة ما ، هي ممكنة يقودنا إلى التساؤل عن البنيات والعمليات التي تستطيع أن تجعل المعرفة في متناولنا ، عن طريق المعلومات التقريبية ، وبمعنى آخر : كيف تحقق هذه البنيات ما تحققه عن طريق المفاهيم والصور والأشكال المنطقية والتعابير اللسانية والاستنتاج وغيرها ؟ ، فبفضل هذه البنيات الإدراكية وعمليات الإدراك ، يمتلك الإنسان المعرفة وينشدها ويشيدها .

إشكالية الذهن :

وهو سؤال يتداخل مع السؤالين السابقين ويكون نتيجة لهما ، فالسؤال : حول إمكانية المعرفة وآليات الإدراك يطرح سؤالا حول طبيعة النظام الذي يحقق البنيات الادراكية ويدبر هذه العمليات ، ويجعل المعرفة مكتسبة ، إنه سؤال حول الذهن ، كيف يشتغل ؟ كيف يستقبل ويرسل ؟ كيف يرتب ؟ كيف يستنتج . .؟ إن الذهن هو نظام كلي يشتغل وفق آليات فيزيائية ، وذلك من أجل نمذجة البنيات والعمليات الإدراكية ، وتشغيل البرنامج المعرفي ، وتحقيق المعارف[11] .

كيف تتم معالجة هذه الأسئلة والإشكالات ؟

تتم معالجة هذه الإشكالات داخل العلم المعرفي (الذي بدأ يأخذ شكلا واضحا مع نهاية القرن 20) بشكل متسلسل وتراتبي ، حيث يبدأ التحليل من المستوى المعرفي ثم ينتقل إلى المستوى الإدراكي ثم ينتهي إلى المستوى الذهني ، وهي مستويات سنعمل على مقاربتها من خلال النظرية التداولية المعرفية ، ومن خلال الإشكالات التي طرحتها والإجابات التي قدمتها .

1-2-1- الذهن المعرفي والنظرية القالبية لفودور :

مستفيدا من الأعمال الرائدة التي قدمها تشومسكي ومن الدراسات والخلاصات التي وصل إليها أصحاب العلم المعرفي ، قام فودور بمعالجة

-11 Ibid 873- 876 /95

عمليات الذهن من منطلق معرفي ، من خلال نظريته المعروفة بالنظرية القالبية [12] ، فالذهن عنده يتكون من ثلاثة أنماط من القدرات (الملكات) : هي النواقل(Transducteurs) ، والقوالب (Modules) وأخيرا الأنظمة المركزية (Systèmes centraux) ، حيث تتفرع عن هذه الأخيرة مجموعة من الأنظمة : النظام المداري ، والنظام المركزي المتخصص ، والنظام المركزي غير المتخصص ، فالذهن البشري حسب الأطروحة القالبية ، يتكون بالتحديد من نوعين من الأنظمة :[31]

الأولى : هي الأنظمة المدارية المتخصصة في تحليل ومعالجة نوع خاص من العلامات عن طريق نظام معرفي داخل الذهن (هو القالب) ، هذا النظام منه ما هو متخصص في حل الرموز اللسانية ، ومنه ما هو متخصص في التعرف على الأشخاص ، وهناك أنظمة أخرى تعمل على التعرف على باقي العلامات والرموز الموجود في العالم الخارجي .

الثانية : هي الأنظمة المركزية التي تعمل على مركزة المعلومات التي تأتي من مختلف الأنظمة المدارية وتعمل على معالجتها ومراقبة انسجامها ، وذلك بإدماجها في المعلومات التي يختزنها الذهن ، واستثمارها ، باستخلاص النتائج بواسطة الإجراءات والطرق الاستنتاجية .

إن الفرق الأساسي بين الأنظمة المدارية القالبية والأنظمة المركزية يكمن في كون الأنظمة الأولى[41] متماسكة من حيث المعلومات : وهي تقبل فقط بعض الخصائص المحددة من قبل العلامات ، هذه الخصائص لها مهمة المعالجة دون أن تأخذ بعين الاعتبار المعلومات الآتية من أنظمة معرفية أخرى ، أما الأنظمة الثانية فهي على العكس من ذلك ، ذات قدرة شمولية ومتنوعة ، حيث تقوم بتدبير مجموع المعلومات المتوفرة في الذهن و معالجتها .

-12 Modularité de l'ésprit
-13 Dictionnaire Encyclopédique de la pragmatique P: 158
-14 Modularité de l'ésprit P: 133

1-2-2- آليات اشتغال الذهن في التصور المعرفي :[15]

تعمل النواقل العصبية على تحويل طاقة المداخل (لغة ، صوت ، ضوء...) وترجمتها كما هي ، حتى تصبح قابلة للمعالجة فيما بعد ، داخل الأنظمة المدارية بشكل أولي ، ثم تشتغل الأنظمة المركزية فيما بعد ، انطلاقا من هذه المعطيات ، ويكمن الدور الأساسي لهذه النواقل في عملية الربط بين المداخل (باعتبارها أشكالا مسبقة) والأشكال الرمزية التحسيبية داخل القوالب المدارية ، وهذه الأخيرة ينبغي اعتبارها أدوات تحليلية تحسيبية ، تخصص للمداخل (المعطاة مسبقا عن طريق النواقل) بنيات تنظيماتية مسبقة ، وبدورها تمر هذه البنيات عبر الأنظمة والعمليات المركزية (سواء أكانت اعتقادات أومقاصد أو استنتاجات) التي تستعمل لمختلف الغايات المعرفية والسلوكية . ولهذا تكون المعرفية القالبية متسقة مع برنامج البحث المركزي الذي هو الذهن المعرفي .

1-2-3- المظهر الوظيفي للقالب :

يكمن عمل القالب أساسا في تقديم المعلومات التي تكون الأنظمة المركزية في حاجة إليها أو كما يقول فودور «إن دور الأنظمة القالبية هو تمثيل العالم بطريقة يكون فيها قابلا للتلاؤم مع الفكر[16] ، حيث ينظر الى وظيفة القالب من جهة شكل ومضمون المعلومة المنتجة في نفس الوقت . إن تشكل المعلومة ينبغي أن يكون رمزيا وتركيبيا ، وفق الطريقة التي تشتغل بها الأنظمة المركزية والتي تتطلبها ، فتأتي القوالب المتخصصة (قالب اللغة مثلا) لكي تقوم بعملية استنتاج المعلومة الموجودة عن بعد (Distal) انطلاقا من المعطيات التي تقدمها بشكل نهائي الأنظمة المدارية ، وعن طريق العملية القالبية المتخصصة تبدأ عملية الاستنتاج ، لتجعل مهمة القوالب التحسيبية في المعرفة الانسانية مهمة ذات بعد غائي(Teleologique) ، ومن هنا يفترض عموما أن الاستنتاجات القالبية ذات طبيعة استنباطية (Deductive) .

15- الأنظمة المدارية تشتمل على ستة قوالب : الحسي ، الإدراكي ، السمع البصري ، اللمس ، الشم ، اللغة Ibid 67-78

16- Ibid 40-50

1-2-4- الخصائص العامة للأنظمة القالبية (نموذج القالب اللساني) :

يشتمل الذهن البشري على مجموعة من الأنظمة القالبية المتخصصة ، كل واحدة منها متخصصة في ميدان معين ووحيد ، وهي موضوعة أصلا لتحسيب المعلومة المنقولة ، بشكل آلي وبدون رجعة ، أي «أننا لا نستطيع أن نحول دون سماع جملة ، أو قول داخل لغة معروفة [17] » كما يقول فودور . ومن ضمن هذه الأنظمة القالبية نجد النظام اللساني ، الذي يمتاز بدوره بمجموعة من الخصائص ، نذكر منها [18] :

أ-الموقع والفروع :

يتمركز النظام القالبي اللساني بجانب النظام القالبي السمعي والنظام القالبي البصري المرتبط أساسا بالكتابة ، ويتفرع عنه مجموعة من الأنظمة الصغرى ، كالقالب النحوي والقالب التركيبي والقالب الفونولوجي والقالب المعجمي وغيرها ، مما يدخل في نظام اللغة شكلا وكيفا ، وتشتغل هذه الأنظمة الصغرى مجتمعة داخل القالب اللساني ، حين يمرر الناقل اللساني المعلومة الموجودة عن بعد .

ب- علاقة النظام القالبي اللساني بالأنظمة المركزية :

يقوم القالب بعملية تحسيب التمثلات خطوة ، خطوة على عدة مراحل ، وينتج تحليلات وسيطة للمعطيات التقريبية ، والقوالب اللسانية لها مستويات متشابهة للتحليل بالإضافة إلى التمثلات الوسيطة (التركيب ، الصوت ، المعجم ...) ، وليس لها إلا منفذ واحد وواعي للمخارج النهائية ، هذا المنفذ يتم عبر القالب الإدراكي مرورا بالنظام المركزي ، وقد يكون أو لا يكون للمخارج الوسيطة (نحو ، معجم ، صوت) منافذ خاصة ، ذلك لأن معالجة النظام القالبي اللساني تتم في شكله النهائي وعبر مخرج وحيد ، دون الوقوف على المخارج الوسيطة . (نحو معجم صوت) .

17- Ibid 47

18- Dictionnaire critique de la communication 899-900 /98

ج- طبيعة اشتغال النظام القالبي اللساني :

القالب اللساني سريع الاشتغال ، فلا ينبغي قضاء وقت طويل من أجل فهم المعنى الحرفي للقول ، وعلى العكس من ذلك فإن الأمر يتطلب وقتا طويلا على مستوى الأنظمة والعمليات المركزية من أجل فهم ما يقوله شخص ما ، بمعنى آخر ، يتطلب الأمر كثيرا من الوقت وكثيرا من الجهد لمعرفة : لماذا ولأي هدف وفي أي اتجاه ... قيل ذلك القول .

د- محدودية النظام القالبي اللساني :

إن القول ، (بتركيبه ودلالته وصوته) ، يفهم داخل القالب دون اعتبار للسياق بمفهومه الواسع ، فما لا يستطيع أن يقوم به القالب هو : في أي سياق يدخل هذا القول (أمر ، نهي ، تهكم ...) وما هي قوته (البلاغية ، أو الإقناعية ، أو الحجاجية ...) وكيف يتم استعمال هذا القول من طرف المستمع (رد فعله : التأثير أو الرفض ، أو الاتفاق...) ، إن هذه الأسئلة وغيرها تدخل في إطار إشكالية التأويل ، التي تخرج من نطاق النظام القالبي اللساني المتخصص إلى نطاق النظام أو الأنظمة المركزية غير المتخصصة التي تكون لها أدوار متعددة (الفهم غير المباشر ، الاستنتاج ، التأويل ...) وتكون مفتوحة على المعارف المتنوعة (الذاكرة ، المعارف الخلفية المخزونة ، المعارف الجديدة ، الظروف العامة للقول ...) وتكون مؤهلة للقيام بعملية التأويل النهائي سواء كان صائبا أو غير صائب .

فماذا يعني أن يكون القول صائبا ؟ و كيف تتم معالجة مبدإ الإصابية ؟ وما هي العلاقات التي تربطه بالتأويل ؟

1-3- النظرية التداولية المعرفية : مبدإ الإصابة وإشكالات التأويل :

تمتح النظرية التداولية المعرفية من نظريتين مختلفتين : نظرية الفضاءات الذهنية لفوكوني[19] والنظرية القالبية لفودور[20] ، وتشتغل حول الإشكالات التي أثارتها النظريتان و توظف كل ذلك في مجال التواصل اللساني ، بما

19- Espace mentaux

20- Modularité de l'ésprit

يعنيه من العمليات التي تساهم في تحقيق التلاؤم والتفاهم بين الناس والشروط العامة (القبلية والبعدية) التي تتحكم في هاته العمليات .

وانطلاقا من هاتين النظريتين استطاع صاحبا كتاب «الإصابية» تأسيس نظرية تداولية معرفية شاملة ، تعد حاليا من بين الأعمال التأسيسية والمراجع المهمة في مجال التداوليات وعلم التواصل المعاصر ، وتشتغل هذه النظرية على مستويين تحليلين إثنين :

المستوى الذهني : أي كل ما يتعلق بالمعلومات : الاستقبال والتخزين والربط وغيرها ، و كل ما هو مرتبط بالأنظمة القالبية المتخصصة : أي الفهم الحرفي .

المستوى المعرفي : أي كل ما يتعلق بالمعطيات الداخلية (الذاكرة والمراكز الخلفية) والخارجية (السياقات والمقامات والظروف العامة للقول) وكل ما هو مرتبط بالأنظمة المركزية غير المتخصصة أي التأويل .

تحليل القول في المستوى الذهني* :

يعالج القول في المستوى الذهني بداية عن طريق النواقل العصبية ، حيث تعطيه شكلا يجعله قابلا للدخول في العملية العصبية ، وبعد ذلك يعالج عن طريق القالب اللساني المتخصص ، الذي يوافق تقليديا الميادين التي تغطيها الفونولوجيا والتركيب والدلالة ، و التي تقدم الشكل المنطقي للقول (متوالية مبنية من المفاهيم) وهذا الأخير يصلح بعد ذلك للدخول في العملية التداولية المعرفية لتأويل القول ، التي توافق التوظيف غير المتخصص للقول عن طريق النظام المركزي للذهن ، (وهذا ما سنقوم بمعالجته بشكل مفصل في المحور الموالي) ، حيث ينتظم التأويل التداولي المعرفي في إطار مسار . استقرائي ، يأخذ كمقدمات : الشكل المنطقي للقول من جهة ، ومن جهة أخرى السياق ، الذي يتكون من اقتراحات توافق المعلومات المأخوذة من المحيط الفيزيقي للمخاطبين انطلاقا من تأويل الأقوال السابقة ومن المعلومات المأخوذة من المعارف العامة عن العالم ، وبذلك نكون أمام نظام تأويلي مشكل من طابقين :

* - سبقت الإشارة إلى العمليات والآليات الذهنية التي تكون هذا المستوى ستتطرق إلى بعض الإضافات التي قدمها سبيربر وولسين .

الأول : لساني قالبي يغطي ميادين الفونولوجيا والتركيب والدلالة ، وهو يوافق الشكل المنطقي للقول ،أي الفهم الحرفي (قد سبقت الإشارة إلى الميكانيزمات التي تحققه) .

الثاني : مركزي معرفي ، يتكفل بالتأويل التداولي للقول ، وهو يوافق الشكل القضوي والمعرفي للقول ، أي التأويل الكامل .

إذن كيف تتحقق ميكانيزمات الشكل الثاني ؟ وكيف تتدخل آليات التأويل التداولي ؟

1-3-1- التأويل التداولي في نظرية الإصابية* :

مبدإ الإصابية : هو مفهوم ذو خصوصية سيكولوجية[21] ، يعمل على اختيار ما يأخذ باهتمام المتخاطبين وما يؤثر فيهم من أقوال وحجج[22] ، فالكائنات البشرية تمتلك حدس الإصابية بأن تستطيع التمييز بين المعلومات الملائمة وغير الملائمة ، على الأقل بالنسبة لسياق معين[23] ، والفهم هنا هو درجة الملاءمة وليس فقط وجودها أو غيابها ، وتكون المعلومات (أو القول عامة) ملائمة صائبة مادامت متعلقة بنظام من المعتقدات وفقط إذا اندمجت في هذا النظام ، وبالتالي فهي لا تتركه عاريا (بكرا) بل تجر إلى تعديلات معينة من مستويات مختلفة[24] ودور المعلومة الجديدة هو أن يرفع أو يقلل من درجة معتقدات النظام أو أن يؤكد أو ينفي ، كما يمكن في ارتباطها ببعض معتقدات النظام أن تكون لها بعض التضمينات السياقية وبالتالي تجر إلى معتقدات أخرى تكون نتيجة لتفاعل بين المعلومة الجديدة والمعلومة القديمة .

ومبدإ الإصابية ليس قاعدة ، ولكنه يشتغل كمحرك لعمليات التأويل على مستوى النظام المركزي للذهن[25] ، وبذلك يختلف عن مبدإ التعاون

---

* هي مقابل اقترحناه لكلمة Pertinence مستوحاة من الاصابة في المعنى لدى النقاد .

21- Pertinence 200

22- Ibid 227

23- Ibid 183

24- Dictionnaire critique de la communication 894

25- Théorie de l'Argumentation

الكرايسي والمبادئ التي تفرعت عنه . باعتبار هذه المبادئ معايير وقواعد يجب على المخاطبين معرفتها من أجل تحقيق التواصل الفعال ، إلا أنهم يمكنهم خرقها ، أما الإصابية فلا تتطلب معرفة مسبقة من طرف المتخاطبين من أجل تحقيق التواصل الملائم ، وبالتالي لا يستطيعون خرقها حتى ولو أرادوا ذلك ، لأنها موجودة مسبقا عند الإنسان ولا تعرف الإستثناء .

إن الإصابية في الأخير علاقة ترتبط بمجموعة من البراميترات السياقية والقولية (معرفية ومنطقية) تعتبر ذات وظيفة توجيهية للقول ضمن مجموع القيم الخارجية ، تتمظهر وفق الأشكال والطرق التالية [26] :

1- قول ←——— سياق

2- قول ←——— خطاب

3- ذات (فرد) ←——— سياق / خطاب

وهكذا فالإصابية تحدد بالنسبة للسياق حيث تعد مبدءا يكون أصلا في كل تواصل ، وهذا المبدأ مؤسس على التصور الاستدلالي والمعرفي ومدعم في نفس الوقت بأسباب سيكولوجية ومنطقية ، يصعب خرقها ، ومن هنا فهي (الإصابية) قاعدة الفعل التواصلي بامتياز[27] .

1-3-2- التأويل ونظرية الإصابية :

نظرية الإصابية هي نظرية التأويل[28] ، هدفها الرئيسي هو وصف كيف؟ ولماذا يؤول قول بطريقة اختيارية معينة : (أي تلائم هذا الشكل أولا تلائم الآخر) ، وتعد الإصابية (كما سبقت الإشارة) تطويرا للنظرية التداولية ،حيث تندرج في إطار علم النفس المعرفي* وبالتحديد ترتبط بالنظرية القالبية والتمثيلية لفودور .

-26 Ibid 108

-27 Pertinence 135

-28 (Dictionnaire Encyclopédique de la pragmatique P: 30

* هو فرع من علم النفس عرف تطورا ملحوظا لا يهتم مباشرة بدراسة الشعور ولا التجريد الذهني ، بل يهتم بالإشتغال الثقافي للذهن البشري ، و بمعنى آخر فإن الآليات و العمليات الذهنية المعرفية هي التي بواسطتها نكتسب أو نغير معتقداتنا حول العالم .

إن التحليل التداولي للأقوال حسب النظرية الإصابية ، يأتي في آخر المراحل التي تشكل عملية تأويل القول ، فبعد ترجمة القول عن طريق النواقل انطلاقا من التحليل اللساني الذي يقدمه النظام المداري اللساني ، يقوم النظام المركزي غير المتخصص بإتمام وإنهاء عملية التأويل ، وذلك بتقديم التأويل اللساني الكامل للقول ، وهذا لا يعني أن التحليل اللساني هو المعطى الوحيد الذي يشتغل عليه النظام المركزي ، بل هناك معطيات أخرى يقوم بمعالجتها أثناء التأويل التداولي ، وهذه المعطيات هي التي شكلت المواضيع التي عالجها «سبيربروولسون» في كتابهما .

لقد انطلق مؤلفا الإصابية من دراسة النظام المداري اللساني ، واعتبرا أنه يقدم تحليلا لسانيا أوليا للقول ، (وهذا التحليل يوافق الشكل المنطقي) باعتباره متوالية مبنية من المفاهيم ، وكل مفهوم هو عنوان في ذاكرة النظام المركزي ، وتحت هذا العنوان تتراكم مختلف المعلومات :

- **منطقية** : أي المعلومات التي توافق مختلف العلاقات المنطقية (تضمين ، تعارض...) .
- **موسوعية** : أي كل المعلومات التي ليست منطقية ولا معجمية تسمح بتوسيع المفهوم .
- **معجمية** : أي كل المعلومات التي توافق مقابلات المفهوم داخل اللغات الطبيعية .

1-3-3- التأويل والسياق :

إن القول ليس في التحليل التداولي جملا معزولة ، يتم تأويلها في استقلال عن السياق ، بل تظهر داخله على شكل قضوي ، وتتفاعل بعض المعلومات التي توجد في كنف عناوين المفاهيم ، وهذا ما يجعل السياق في هذه النظرية معطى غير ثابت ، إنه يبنى قولا بعد قول . إذ «ليست المعلومات المفهومية هي المعلومات الوحيدة التي تدخل في تشكيل السياق ، بل تتدخل أيضا إلى جانب تأويل الأقوال المباشرة ، المعلومات المرتبطة بالمحيط الفيزيقي

الذي يأخذ فيها التواصل مكانه[29] . وهي معلومات متراكمة في النظام المركزي الذي يضم الذاكرة بأنواعها الثلاث :

الأولى : ذاكرة العمل وهي ذاكرة قصيرة المدى وتوافق السياق الآني .

الثانية : ذاكرة متوسطة المدى ، حيث تتراكم فيها تأويلات الأقوال المباشرة .

الثالثة : ذاكرة بعيدة المدى حيث توجد المعلومات المفهومية .

1-3-4- التأويل والمحيط المعرفي :

إن السياق الذي تحلل في إطاره الأقوال مبدئياهو ما تضمه ذاكرة العمل (القصيرة) أثناء التأويل ، ويتكون السياق عامة ، من ثلاث أنواع من القضايا أو المعلومات المستخرجة من الذاكرة ، توافق ثلاثة مراحل زمنية :

1- المعلومات المستخرجة من الذاكرة البعيدة المدى .

2 - المعلومات المستخرجة من الذاكرة المتوسطة المدى .

3-وأخيرا المعلومات المستمدة من المحيط الفيزيقي أي المعلومات التصورية المستمدة من الوضع التواصلي ، وهذه المعلومات بأنواعها الثلاث ، تشكل المحيط المعرفي .

ثم إن معلومات المحيط المعرفي هي كثيرة جدا ، بحيث لا يستطيع الفرد استغلالها جميعا (وهو أمر مستحيل التحقق) لذلك تطرح مسألة اختيار ما يلائم السياق من هذه المعلومات ، فعلى أي أساس يتم اختيار ما يناسب السياق من معلومات؟ مع العلم أن القول والسياق يشكلان معا المقدمات الأساسية للتأويل .

إن المبدأ الذي يسمح باختيار التأويل المناسب هو مبدإ الإصابية ، وهو مبدأ يجعل المتكلم يختار من بين المعلومات المتعددة مجموعة من الفرضيات التي تقتضي أن يكون فعله التواصلي مصحوبا بضمانة الإصابية (أو الملاءمة) .

29- Dictionnaire Encyclopédique de la pragmatique P: 30

2-3-5- التأويل والأثار السياقية :

إن الأثار السياقية في النظرية التداولية المعرفية هي التي تنتج عملية التأويل انطلاقا من المقدمات (التي هي الأشكال المنطقية للأقوال) وانطلاقا من القضايا التي يتكون منها السياق ، والتي يمكن إجمالها في ثلاثة أنواع :

1- التضمينات السياقية : وهي النتائج الجديدة التي نحصل عليها انطلاقا من الأقوال والسياق مجتمعين .

2- إعادة تقييم المعلومات التي يتوفر عليها الإنسان من قبل ، إذ يمكن تغييرها بتعديل أو تأكيد ما كان يعتقده الإنسان .

3 - إلغاء القضايا الضعيفة في الحالات التي تتناقض فيها القضايا الموجودة في الذاكرة انطلاقا من التضمين السياقي .

ومن هنا تكون فائدة النظام المركزي في عملية الإختيار والتأويل ناجعة ، حيث يسمح باختزال «كلفة معالجة» الأقوال بفعل تقليصه لجزء من عملية التأويل اللساني بحيث لا يؤول النظام المركزي كل كلمة على حدة ولا يجمع تأويلاتها ويركبها ... بل يقدم تأويلا شاملا يكون فيه مبدأ الإصابية حاضرا بقوة ،لاختيار ما يلائم السياق والقول مجتمعين[30] سواء كان هذا السياق مصغرا متعلقا بظرفية لحظية أو سياقا مكبرا يرتبط بسياقات أخرى ماضية ، كونية ، افتراضية ...الخ .

2- نظريتا التواصل والتداوليات المعرفية :

التواصل بين المقاربة الترميزية والمقاربة الاستنتاجية :

المقاربة الترميزية :

لا يمر وقت على الإنسان دون أن يحدث تواصل بينه وبين الآخرين وبينه وبين ما في العالم من كائنات وظواهر ، تارة يتم هذا التواصل عن طريق الإبصار والسماع وتارة عن طريق اللمس والشم والذوق... فترتسم في ذهنه

30 - Ibid 148

صورة هذه الأشياء وترمز على شاشة الذهن البشري ، ثم تخزن في الذاكرة إلى حين الحاجة إليها ، فالأفراد في تفاعلهم بواسطة سلوكاتهم ومواقفهم ورغباتهم ، يبنون علاقات أفقية مع بني جنسهم وعمودية مع كيانات الطبيعة . هذا التفاعل هو ما يطلق عليه التواصل[31] .

غير أن أرقى ضروب التواصل هو التواصل باللسان الذي يتوسل باللغة الطبيعية ، فالإنسان هو الكائن الذي يرمز (SYMBOLISE) كما يستنشق الهواء اكثر من الكائنات الأخرى[32] . حيث يرمز للأشياء بأصوات وعلامات وصور ، وهي آلية تجعله يختزن ما يدركه في الكون جميعا . ومن المعلوم أن الترميز اللساني يأتي على رأس انساق الترميزات الأخرى نظرا لقدرته على استيعاب وتأطير وتفسير ونقل باقي الأنساق الترميزية ، ولذلك كان الكلام أصلا في كل تواصل بشري حتى ان ما سواه من وسائل الاتصال الأخرى تجري على قانونه وتفهم على مقتضاه[33] .

والكلام لا يكون بدون لغة ، وهي كما سبق نسق من الرموز والصور الدالة ، تعرف في نظرية الإتصال بالسنن (CODE) إذ كل سنن تضبطه علاقات دلالية وقواعد تركيبية ، تجعل منه سننا خاصا بلغة من اللغات يستعملها مجتمع من المجتمعات ، كالعربية أو الفرنسية الخ . . كما يجري ذلك أيضا على اللغات الاصطناعية .

فمعرفة كيف يتم التواصل يعتبر اكثر أهمية من معرفة ما يتم إيصاله . فكيف يكون مثير فيزيقي يستعمله فرد ويدركه الآخر قادرا على جعل بعض أفكار المتكلم مشابهة لما عند المستمع ؟ مع العلم أن لا مشابهة بين المثير والأفكار[34] .

2-1-1- مضمون التواصل :

تثير هذه القضية إشكالا يتعلق بمضمون ما يمكن ايصاله ، فقد يكون معنى (sens) وقد يكون قضية أو فكرة أو فرضية أو خبرا أو اقتراحا أو اعتقادا أو موقفا

31- Pertinence

32- Dictionnaire critique de la communication 31/1

33 - اللسان والميزان 213

34- Pertinence 12

أو شعورا ، ذلك أن العلامات اللسانية تتجاوز نقل المضمون أو ما تم الإتفاق عليه إلى نقل إيحاءات وظلال المعاني التي سبق لها أن انطبعت في أذهان مستعملي اللغة عبر تجاربهم ، فارتبطت بعواطفهم وتداخلت مع مشاعرهم وكونت تطلعاتهم ورغباتهم بل وشكلت نظرتهم للعالم والآخرين .

غير أن التواصل بواسطة السنن لا يخرج عن أمرين : إمّا أن يقال المضمون كليا أو لا يقال[35] . خاصة إذا علمنا ان اللغة ليست وسيلة ضرورية لإيصال المعلومات رغم أنها أرقاها ، ذلك لأن التواصل يمكن ان يتم بدون سنن[36] . ولذلك كانت المسافة التي تفصل الدال عن المدلول في الغالب راجعة إلى الأصل السيكولوجي المرتبط بثقل الحياة والتجارب الخاصة والنظام الخاص للإدراك ، بالإضافة إلى المصالح والوضع الذي يوجد عليه الفرد ، ومن هنا يغدو المعنى اللساني محاطا بمعاني أخرى تساعد على هيكلة تجارب الإنسان وفهم العالم ، فالمعنى اللساني ابعد ما يكون عن التماهي IDENTITE بين التمثيلات المرسلة والتمثيلات المستقبلة .

على أن التمثيلات الدلالية للجمل أو الأقوال و هي قضايا ذهنية لا تطفو على سطح الوعي أبدا بل تتكون في الذهن بفعل عملية آلية لا واعية INCONSCIENT لحل الترميز اللساني للقول DECODAGE ، و من ثمة تصلح التمثلات كخطاطات للفرضيات حيث تساعد على إعادة تكوين الشكل القضوي للقول الذي يستدعي آثارا سياقية ، وبعد ذلك تأتي تفسيرات الشكل .

2-1-2 - المقاربة الترميزية والفهم الدلالي :

يبدو أن الجميع كان يعتبر أن نظرية عامة للتواصل ممكنة بل ضرورية انطلاقا من أرسطو الذي كان يرى أن أصوات الكلام هي رموز لمشاعر الروح ومرورا بابن جني الذي أشار إلى الطبيعة الرمزية للغة «إذ هي أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم» ووصولا إلى بيرس وسوسور الذين أدركا إمكانية قيام علم يدرس العلامات سماه الأول سميوطيقا SEMOETIQUE وسماه الثاني SEMIOLOGIE وهما معا يشتركان في الجذر اليوناني SEMEON أي(علامة)

35- Dire et ne pas dire

36- Pertinence 259

التي تقوم بدور التمثيل أي تحل محل شيء آخر[37] بان تستدعي ذهنيا هذا الشيء ، حيث يظهر ذلك في الترسيمة التي وضعها «سوسور» لوصف عملية التواصل بافتراض شخصين على الأقل حتى تكتمل دورة التواصل[38] . وسرعان ما استوحى علماء الاتصال هذا النموذج وعقدوه كنظام لنقل شكل رسالة إلى شكل آخر كنقل (أو تحويل) رسالة كتابية إلى رسالة صوتية ،أو العكس حيث أطلقوا على عملية (TRANSMUTATION) النقل التبادلي مصطلح CODAGE أو EN CODAGE أي عقد الخبر أو الرسالة .[39] وفق تصور تناظري SYMETRIQUE أي أن عملية DECODAGE(الحل) تناظر عملية العقد (CODAGE) .

وإذا كانت من فائدة لهذا النموذج فهي قوته التفسيرية القوية في مقابل اتسامه بضعف كبير في الوصف ، إذ لا يصف أبدا كيف يصل مستمع إلى القصد الإخباري للمتكلم ، على أن كل نظريات الاتصال فيما يبدو تأسست على نموذج واحد هو النموذج الذي يعرف بنموذج السنن CODE حيث ينبني هذا النموذج على نظام من الإشارات (SIGNE) أو العلامات أو الرموز المتواضع عليها ، والتي تستند إلى نظام آخر هو (عقد) و(حل) المعلومة أو الخبر (CODER DECODER) وهو النموذج الذي وصفه مهندسو الاتصال بدقة كما في ترسيمة 1949 (SCHANON) حيث بينوا ان هذا النموذج يفسر كيف تبث هذه الرموز ، وكيف تنقل ، وكيف تفسر . ولعل الهدف من هذا النموذج كان ولا يزال هو السرعة والإيجاز في نقل المعلومة التي تكتسي في هذا النموذج طابع الأوامر أو التعليمات بحيث يجب أن تكون واضحة لا تقبل تعدد التأويلات ، ويكون الشكل المنطقي فيها هو المراد وكأنهم كانوا يستحضرون قول الجاحظ «لا مجاز في المعاملات «إن هذا النموذج الذي يستند إلى نظرية الإعلام كما يصفها طه عبد الرحمان يستعمل مفاهيم متعلقة بتقنيات المواصلات في وصف التواصل الإنساني الذي هو مفيد في المواصلات

37- Problème de linguistique benviniste

38- دروس في الألسنة العامة : 37

39 - اللسان و الميزان

لكنه لا ينفع في وصف عملية التواصل التي تحدث في الخطاب الطبيعي كما في التلغراف أو الموروس .[40]

إلا أن التطور الذي حصل في نظرية الإعلام حاول تلافي هذا النقص ببدائل جديدة تتمثل في الصورة والصوت ، عبر الشاشة والحوار الحي غير أن من نتائج تعميم هذا النموذج على كل أشكال التواصل اصطدم بفشل ثقافي ، مضاعف ، خاصة في الفترات الأخيرة للتطور السميوطيقي حين تبين أن الظواهر الثقافية (الأساطير الطقوس الأعمال الأدبية) لا يمكن أن تصلح على العموم أن تكون موضوع تواصل لرسائل (MESSAGES) محددة ومتوقعة .[41] فهذه الظواهر لا يكفي فيها نظام السنن الذي تتماثل فيه التمثيلات المرسلة والتمثيلات المستقبلة .

وإذا كان صحيحا إن اللغة هي سنن يجمع بين التمثيلات الصوتية والتمثيلات الدلالية فإن التمثيل الدلالي لعملية ما ، بعيد عن أن يصادف الأفكار التي يمكن إيصالها بواسطة تلك الجملة ، فالتمثيل الدلالي لجملة ما يشبه من بعض الوجوه نواة المعنى المشترك بين جميع الأقوال ، ومن هنا فلا يعد النموذج الترميزي سوى بداية التفسير .

فاشتراط المعرفة المشتركة في النموذج الترميزي يقوم قبل كل شيء على ضمان نجاح الاتصال[42] وهكذا فإن المعنى الصريح يعالج في إطار النموذج الترميزي ومنه ينطلق إلى النموذج الاستدلالي .[43]

2-1-2- التوظيف الرياضي للنموذج الترميزي :

لقد اعتبر مصطلح التواصل COMMUNICATION في عمقه حسب هذه النظرية مفهوما رياضيا أي انه معطى موضوعي وكمي محاكاة وقياسا على الطبيعة الحوارية للكلام الذي يجمع بين متكلم وسامع ، واللغة في هذا

40 - اللسان والميزان
41 - Pertinence
42 - Pertiinence 74
43 - Ibid 90

النموذج اعتبرت كذلك شبيهة بالسنن كما اعتبرت شيئا محايدا غير معلم NON MARQUE أو غير مطبوعة بهوية الفرد السيكولوجية والاجتماعية [44] .

وبالرغم من هذا القصور فليس هناك من الدارسين من لا يستعمل النموذج الترميزي التقليدي (مرسل مرسل إليه) غير أنه ينبغي التميز بين النواة الصلبة للنظرية الرياضية للتواصل وتعدد استعمالاتها رياضيا ومجازيا تبعا لذلك ، بل يكاد يجمع الفلاسفة على ان النموذج الترميزي ذا الأصل اللساني السوسوري ليس إلا بداية التفسير ، فلا ينبغي الوقوف على الجانب التبسيطي الآلي للنموذج الرياضي بل ينبغي إغناؤه .

وكيفما كان هذا القصور فلا يمكن إنكار التطور الهام الذي احدث ثورة في نظرية التواصل بناءا على هذا النموذج الآلي ، فانطلاقا من الدراسات حول الإشارات SIGNAUX كان الطريق إلى التلغراف ومن خلال دراسة نقل الصوت كان الطريق إلى إرساء الاتصال الإذاعي ، عبر المحطات الإرسالية ، ومن خلال دراسة إمكانية نقل الصورة ، كان الطريق إلى التلفاز ، ومن خلال النضال ضد التشويش كان ميلاد نظرية المعلوميات (INFORMATIQUE) ومن خلال البحث عن علاقة المعلوميات بالعالم ،كان ابتداع الانترنيت ، والباب لازال مفتوحا أمام تطور المعلوميات ووسائل تخزينها ونقلها والاستفادة منها وتوظيف أدواتها في التعليم والترجمة والطب وسائر العلوم الإنسانية والطبيعية والبحثة ، إنه عصر انفجار العلم الذي نأمل أن يكون إيجابيا بما يروم خدمة البشرية في أبعادها الاجتماعية والثقافية والسياسية الإيجابية .

لكن يبدو من خلال التطور الإعلامي المستديم أن الاتجاه الأساسي هو تحرير الاتصال اجتماعيا و ثقافيا وعلميا ، وذلك بالسماح لكل واحد أن يختار من بين العدد اللامحدود من الرسائل والمعلومات ما يرغب فيه حيث يحصل عليه بأقل كلفة مهما كانت الظروف ، كما يهدف كذلك إلى تحرير الإنسان من محدودية ذكائه بتوفير حاميات PROTHESES توفر الفهم بحيث يصبح ذلك قريبا من رغباته[45] . على أن هذا التطور الإعلامي يتزامن مع بداية عصر

---

44 – Dictionnaire critique de la communication 214/1

45 - Dictionnaire critique de la communication 3/1

الآلات الذكية ولهذا اختارت التقنيات حقلها (في البحث والتطوير) في ميدان المعرفة والتواصل والإتصال المربحين .

2-2- المقاربة الإستنتاجية :

2-2-1- هل هما نموذجان أم نموذج واحد؟

لا تستطيع اللغات الطبيعية ترميز جميع الأفكار التي تدور في خلد الإنسان ، لذلك تلجأ إلى الاستدلال والاستنتاج واستحضار السياق انطلاقا من الأقوال التي تعتبر في اغلبها خطاطات تتطلب في الآن نفسه[46] حل العقد (DECODER) مع الاستدلال لضمان فهمها على الوجه المطلوب . فالذهن البشري يشتغل في الواقع بآليتين الواحدة تكمل الأخرى الأولى تعتمد على حل الترميز ، والثانية تقوم على الاستدلال ، إذ لا أحد يجادل في ان اغلب حالات الاتصال الإنساني (اللساني) تقوم على استعمال السنن أولا ثم بعد ذلك تلجا إلى الاستدلال دون ان يتم العكس[47] . ذلك ان الذهن البشري يملك آليتين يستعمل الأولى لحل الترميز والثانية للإستدلال ولا تختلفان إلا من حيث نظام الإشتغال ، فآلية حل الترميز تتميز مثلا بأن التمثيلات التي تربط بين العلامات ليست بالضرورة تمثيلات مفهومية CONCEPTUELLE كما تتميز آلية الاستنتاج بكون القواعد التي بواسطتها ترتبط هذه العلامات ليست بالضرورة قواعد استدلالية .

وهكذا بلورت النظريات التداولية وخاصة التداوليات المعرفية حسب تطور القالبية (لفوكوني) الآليات التي يشغلها الذهن البشري للوصول إلى تأويل التضمينات والمعاني الخفية الأخرى كالإشارات والحكم .

إن الذهن البشري في هذه النظرية يتكون من نوعين من الأنظمة لمعالجة المعلومات نظام مداري (PERIPHERIQUE) متخصص في تحليل ومعالجة المعلومات يحتوي على عدة قوالب فرعية منها ما يتكفل على الخصوص

---

46 - Ibid 285

47 - Pertinence 46

بحل ترميز العلامات اللسانية وآخر يتكفل بالتعرف على الأشخاص وثالث على اللحن الخ أما النوع الثاني من الأنظمة فهي الأنظمة المركزية التي تتكفل بمركزة المعلومات الآتية من مختلف الأنظمة المدارية حيث تعمل على معالجتها ، ومراقبة انسجامها ، بإدماجها في المعلومات المتوفرة واستثمار كل ذلك لاستخراج النتائج بواسطة الطرق الاستدلالية الاستنتاجية .

2-2-2 – المقاربة الاستنتاجية في التداوليات المعرفية .

يرى ويلسن (WILSON) أن الدلالة هي ما نعبر عنه بالقول بشكل صريح (EXPLICITEMENT) ،و تندرج ضمن نموذج الاتصال العام حيث تعتبر أن جميع أفعال الإتصال (الأقوال بالمعنى الواسع) ، تستعمل لإثارة VEHICULER أو تحريك إرادة القول ، وهذا النوع من الاتصال الصريح الذي تسمح به اللغة ليس حالة نموذجية ولكنه حالة محدودة LIMITE .

فإذا نحن أخذنا نموذج التواصل اللساني العام كنموذج للتواصل الإنساني ، فإن ذلك سيؤدي إلى انحرفات نظرية وسوء فهم وإدراك مشوه للمعطيات ، ومن ثم يفترض التداوليون ان ما يبلغه القول ليس سوى إرادة قول المتكلم ، ففي حالة الإثبات مثلا فإن الأمر يتطلب مجموعة من الفرضيات منها ما عبر عنه بطريقة صريحة ومنها ما يثار بطريقة ضمنية يحركها السياق .

غير أنه لا ينبغي أن نفصل بين الصريح والضمني ولا أن نقيم بينهما علاقة ثنائية كما جرت عادة الدلالين بل نشايع أصحاب التحليل التداولي المعرفي الذين يرون في الضمني والصريح علاقة دينامية متواصلة بينهما ، تنطلق من الآثار الغامضة للقول إلى الآثار الدقيقة فيه* . ولذلك فإن التداولين يميزون بين نقل القضايا(الأفكار المحددة) مثل نقل (تثاؤب هند) بالقول وبين نقل إحساسات هند وهي (تستنشق هواء البحر) أو نقل مشاعرها نحو (زيد) وهي بذلك لا تستطيع بطبيعة الحال أن تنقل نقلا تاما ذلك الإحساس وتلك المشاعر إلى زيد بالأقوال . فحين يتعلق الأمر بالمشاعر والعواطف فإن القصد الإخباري يكون هو اشراك المخاطب في تلك المشاعر والعواطف والانطباعات مثل حالة هند وهي (تستنشق هواء البحر) لكن يبقى السؤال ما هو الانطباع؟

يرى (ولسون وسبيربر) أن الإنطباع هو تغيير ممكن للمحيط المعرفي ، تغيير ينجم عن التعديلات الخفيفة لظهور عدد كبير من الفرضيات يمكنها تبليغ الإنطباعات ، وإن كانت غير مفسرة في الإطار النظري للتواصل ، إلا أن تفسير الجوانب الغامضة ممكن في إطار النظرية المعرفية كما في نموذج الإتصال الإستنتاجي او الاستدلالي[48] فالقدرة على إجراء حوار عادي بلغة طبيعية هو دليل على ذكاء غير عادي ، وليس مجرد استعمال الرمز CODE إنه ذكاء تغذيه عوامل معرفية لا تحكمها فقط القواعد اللسانية بل هناك قواعد أخرى هي ما يعرف بالقواعد التداولية التي أخذت تحتل مكانها في مشهد التواصل الإنساني اللساني وغير اللساني .

2-2-3- التداوليات الاستنتاجية ومفهومي التضمين والسياق :

إن الكلام لا يعني تعويض كل فكرة بكلمة ، كما في النموذج السنني وإنما يعني أن إنشاء الكلام يتم انطلاقا من التجربة التواصلية التي تركز على فعل الإخبار لا الإعلام ، ومعلوم أن المتكلم في العلاقة التخاطبية ليس ذاتا ناقلة فحسب[49] بل هو ذات فوقها ذوات تجمع بين ما هو صريح وما هو ضمني ، ومن ثم يمكن ان ننعت هذا الفعل بإسم التبليغ تميزا له عن النقل الآلي حيث يزدوج فيه الإظهار والإضمار ، والملاحظ كذلك ان التطور الإعلامي حافظ على هذا الثراء في المضامين المنقولة عبر وسائل التواصل ففيها أيضا الإظهار والإضمار ، وكل قول يحتمل إظهارا وإضمارا ، وكل قول يؤول تأويلات مختلفة حسب السياق الذي يرد فيه او بحسب السياق الذي يختاره المؤولون .

إن النقل الآلي في التواصل الإعلامي لا يمنع السامع أو المؤول من تأويل القول بحسب ما تثيره المثيرات اللسانية من دلالات وإيحاءات ، صحيح أن التواصل عبر الآلة ينبني على التطويل نظرا لشساعة المساحة التي تفصل بين الناقل والمنقول إليه ، ومع ذلك يبقى حاملا لسمات التخاطب ، وهو ما يحقق

---

48 - Ibid 90-94

*وهي ما يعرف بقراءة ما بين السطور بالنسبة للمكتوب .

49 - اللسان و الميزان 216

نوعا من التفاعل الافتراضي لا ينقصه سوى الحضور الفيزيقي للمتخاطبين ، الذين تسد الصورة والصوت «في الآلة» مسدهما .

وإذا كان بإمكان كل جملة أن تصلح لإيصال عدد لامحدود من الأفكار المختلفة فكيف يمكن التعرف على قصد المتكلم؟ النموذج الاستنتاجي و فعل الكلام .*

إن الناس لا يتواصلون بعقد الأفكار وحلها(كما في النموذج الترميزي) ولكنهم يتواصلون بأقوال تحمل التباسا دلاليا وتعددية مرجعية يمكن أن تكون مجالا لعدد كبير من التأويلات ، ففعل القول يثير انتظارات يشغلها هذا القول فيما بعد[50] فالقول بخلاف الجملة يملك مجموعة من الخصائص بعضها لساني وبعضها الآخر غير لساني .

ولهذا يفترض التداوليون أن ما يتم إيصاله بواسطة الأقوال هو إرادة القول (VOULOIRE DIRE) أما المضمون فيتم حل عقده ترميزيا ، وأما التضمينات (IMPLICATIONS) فتستنتج ، وهكذا فإن التواصل حسب المقاربةالاستدلالية** يحدث بواسطة مؤشرات INDICES يقدمها القائل حتى يستطيع المستمع الاستدلال بها على مقاصد الأول ، انطلاقا من مجموع المقدمات التي تجعل العملية الاستدلالية تتسع لتشمل كل الإمكانات التي يوفرها القول بدلالة كلماته وطريقة تركيبها وابعادها وايحاءاتها وما تحركه وما تثيره من رغبات ونوازع وتطلعات وتوقعات متفاعلة مع الإمكانات التي تكونها وتشحذها العناصر الحاضرة أو المبنية في المحيط المعرفي للمؤول .

وهكذا يبدوأن عملية الفهم الاستدلالي عملية غير برهانية ، حيث ينطلق المؤول فيها من صياغة فرضية ما ، انطلاقا من المؤشرات المقدمة ، و هي فرضية يمكن تأكيدها دون البرهنة عليها ، فعملية الإستدلال إذن هي شكل من أشكال تثبيت الاعتقادات ، إذ يستطيع الإنسان إجراء عمليات استدلالية

---

* يستعمل كرايس INFÉRENCE بالمعنى الإستدلالي الذي يغلب عليه الطابع المنطقي ، في حين يستعمل سبيربر وولسن INFÉRENCE بالمعنى الإستنتاجي الذي يغلب عليه الطابع المعرفي العام .

50 - Pertinence 56

** تترجم INFÉRENCE مرة بالإستدلال ومرة بالإستنتاج ، ومعلوم أن الإستدلال يتضمن الإستنتاج كما يؤكد دالك طه عبد الرحمان في اللسان والميزان .

معقدة لا يستطيع المنطق تفسيرها فهو قادر مثلا أن يستنتج دون حجة أو دليل (PREUVE) وان يقوم بقياس في غياب المعارف مادام المعيار ليس هو الصحة المنطقية (LA VALIDITÉ) بل إن المعيار هو ما يصل إليه الفرد من نتائج سارة في إطار الضوابط التنظيمية والأخلاقية .[51]

وفي هذا السياق يرى Grice وهو من منظري النموذج الاستدلالي أن المعنى المتواضع عليه يتطور انطلاقا من استدلال طبيعي ، إذ هناك مستوى الخبر الذي يمكن أن يتعلق بشيء ، وهناك مستوى ثان ، مكون عن الخبر[52] يمكن الوصول إليه عن طريق عمليات استدلالية بواسطة طرق منطقية تداولية تسمح باكتشاف المعاني الضمنية التداولية ، وتقوم هذه المقاربة الاستدلالية على ثلاثة أفكار هي :

1 - أن المعنى المراد من القول هو في الغالب ضمنيIMPLICITE .

2- أن الوصول إلى المعنى المراد يتم عن طريق حساب استدلالي تثيره عوامل تداولية مبنية على مبدأ التعاون وقواعد الحوار التي وضعها كرايس وقواعد أخرى مرتبطة بالجانب المعرفي والسياقي .

3- أن المعلومات السياقية ضرورية من أجل حساب ما هو ضمني .

أ - مفهوم التضمين :

لقد لاحظ كرايس أن بعض الأقوال تبلغ اكثر مما تدل عليه الكلمات التي تتشكل منها الجمل ، إن هذا الجزء من دلالة الأقوال التي تنأى عن شروط حقيقة الجملة يطلق عليها تضمينا Implicature ، بعضها يرتبط بالتعبير اللساني وبعضها الآخر تثيره العلاقة بين القول والسياق ، فكل قول يثير جزئيا أقوالا أخرى يضمها أو يخلقها بوعي أو بدونه داخل نظام دائري ، حيث الكل متماسك . إذ يستحيل التواصل بغير ما هو خفي وضمني ، فالتصريح بكل شيء في رسالة بسيطة يتحول إلى دائرة مغلقة ليست لها نهاية ، لذلك لا يمكن أن يقال كل شيء .

51- Pertinence 110

52- Ibid 85

وفي هذا السياق اعتبر SEARLE المعنى الضمني بمثابة فعل غير مباشر كما في التلميح والتهكم والسخرية فمن خلال المثال التالي :

- انه منتصف الليل .

فقد يعني هذا القول الانصراف ، أو الحذر ، أو الهروب ، أو النوم ، (حسب السياق) .

لقد عالج كرايس اشكالية التضمينات انطلاقا من فكرة مركزية هي مبدأ الحوار وهي تنطلق من كون الحوار الحي يجعل المتفاعلين يقبلون ويتبعون بعض القواعد الإستلزامية الضرورية للقيام بوظيفة التواصل ، وتتفرع عن هذا المبدأ أربعة قواعد ذات اصل (كانطي) هي قواعد الكم ، والكيف ، والعلاقة ، والاصابة ، والصيغة ، كما قسم كرايس ما يخفى من القول إلى المقتضى Presupposé الذي هو قريب من المعنى الاسوتيني SOUS-ENTENDUE حيث يستمد من القول نفسه مثل :

1 - اقلع زيد عن التدخين .

وهو قول يقتضي : 2 - 3

2 - كان زيد يدخن .

3 - زيد لا يدخن حاليا .

4 - أنصحك أن تقلع عن التدخين .

إن المعنى الاقتضائي في(2) أشير إليه لسانيا في(1) ، أما المعنى الضمني في (4) فهو الذي لم يشر إليه لسانيا و هو معنى اكثر خفاء لا يؤول إلا بحسب معطيات الخلفيات المشتركة والسياق الذي قيل فيه القول ، ولذلك كان هو الغاية من القول(1) وهو بمثابة الإشارة أو النتيجة أو الحكمة من ذلك القول كله .حيث كان الوصول إليه عن طريق عمليات استدلالية تداولية بفعل تشغيل عدة معلومات مرتبطة بالذات ومصلحتها المتمثلة في الإقلاع عن التدخين .

وإذا كان المنطق يقدم نماذج كثيرة للاستدلال البرهاني فإن العمليات الإستدلالية التي تتدخل في الفهم هي ذات طبيعة غير برهانية وبالتالي غير

منطقية ، إذ للبشر قدرة على إتقان كثير من التقنيات الاستدلالية غير البرهانية[53] البعيدة عن نسق المنطق الاستقرائي .

وهذه التقنيات الاستدلالية غير البرهانية لا تستعمل قواعد استنباطية بقدر ما تستعمل قواعد استدلالية غير استنباطية «DEDUCTION» تقوم أساسا على المشابهة ANALOGIE لا على الأدلة المنطقية وهذه الخاصية هي التي تعطي للبشر فرادته وإبداعه الإنساني الذي يتجاوز حدود القواعد المنطقية وحدود القواعد كيفما كانت .

وهكذا يكون الاستدلال غير البرهاني كما يمارسه الناس بعفوية ليس بالضبط عملية منطقية بقدر ما يشكل تخيلا imagination واقعيا خاضعا لقيود الملاءمة والإصابية التي تجعله ناجحا أو غير ناجح ،وفعالا أو غير فعال ، مثلما هو الأمر في المنطق (صحيح أو غير صحيح) . إن القواعد المنطقية الوحيدة التي يتوفر عليها الذهن البشري هي قواعد الاستنباط كما يؤكد ذلك أصحاب التداولية المعرفية وهي التي تلعب الدور المركزي في الاستنتاج والاستدلال غير البرهاني .[54]

ب - التضمين والاقتضاء التداوليين وأساسهما التجريبي :

لعل (استين وسورل وكرايس وديكرو) وغيرهم من الفلاسفة حين درسوا ما يخفيه القول من معان ، كانوا ينطلقون من التجربة الانسانية التي كرست مجموعة من القواعد التي تحكم التواصل في مختلف مستوياته ، فالتجربة الإنسانية تجعل الأفراد يختزنون مضامين المعلومات خلال تعرضهم في ممارستهم وتفاعلاتهم إلى عدد لا يحصى من التجارب سواء مع الموضوعات الخارجية في المكان أو الموضوعات الداخلية في الذات كالوجدانات والافكار ، فكل تجربة من هذه التجارب تترك بصماتها على شاشة الذاكرة ، و تخوم النفس ، ولهذا يسهل على الأفراد استنتاجها من الأقوال والأفعال أو الظواهر أو

53- Dictionnaire Encyclopédique de la pragmatique P: 247

52- Pertinence 106

الكيانات ، بواسطة عمليات ذهنية استدلالية تشغل كل الإمكانات التي يتوفر عليها الذهن البشري ، من ذاكرة وقواعد منطقية وهواجس نفسية وسياقات اجتماعية ، تشمل كل ما يرتبط بها وتشمل حتى ما يمكن أن يستنتج وذلك مثل قولنا :

— "إنها الثانية عشرة ليلا" .

لاشك أن الدلالة اللسانية للقول هنا لا تقدم كل شيء . إنها تقدم معلومة حول ما تشير إليه الساعة ، وهذا قصدها الإخباري لكن هذا القصد الإخباري يؤخذ بعين الاعتبار كقصد إخباري إذا تعلق الأمر بسائل ومجيب ، أما إذا تعلق الأمر بشيء آخر يحدده السياق ، فان القصد الإخباري يرتبط بسياق آخر يحوله إلى قصد آخر غير القصد الإخباري ، كالتحذير إذا كان السياق يدل على الليل ، أو الخوف أو الانتهاء من العمل وبتعدد السياقات تتعدد المعاني الضمنية التي تستنتج من الدلالة اللسانية وما يشير إليه السياق ، أو قل إن السياق هو مسألة سيكولوجية أو معرفية تتفاعل فيه عدة معارف منطقية ثقافية نفسية ، موضوعية ، علمية . وهذا ما جعل ديكرو[55] يعتبر أن كل خطاب أو نص يعكس بشكل ضمني المعتقدات العميقة للعصر .

إن ما يساعد المتكلم على إبلاغ اكثر من المحتوى الحرفي للقول هو وجود خلفية من المعطيات السياقية المشتركة المتعددة والمعقدة والتي ليست في وعينا دائما ، ولكننا قادرون على استنتاجها بوسائل مختلفة ولو في غياب السنن كما في المثال الذي أورده ولسون [56] :

— زيد يسأل هندا : كيف تشعرين اليوم؟

كيف الحال؟

دون أن تجيب ، تخرج علبة أسبرين .

في هذه العملية ليس هناك ما يدل بشكل اتفاقي على أن إخراج علبة أسبرين معناه عدم الشعور بصحة جيدة ولكن الأمر كما يقول البلاغيون يتعلق «بقرينة» على عدم الشعور بصحة جيدة ، لقد كانت هذه القرينة دليلا على

55- Dire et ne pas dire P:13

56- Pertinence P: 45

عدم الشعور بصحة جيدة بطريقة استدلالية استنتاجية ، وهذا ما فصل فيه الفلاسفة التداوليون القول ، فهو تارة اقتضاء أو تضمن أو خفاء وهو تارة أخرى مرتبط بالتعبير اللساني أو مؤشر حالي أو مقالي أو استنتاج ذهني [57] أو ما تثيره علامة أو شيء ، مثل إخراج علبة الأسبرين كل ذلك يدخل تحت ما يعرف في المقاربة الاستدلالية بالاستنتاج التداولي .

2-3- التداوليات المعرفية ونماذج الإتصال :

- ينطلق مؤلفا LA PERTINENCE من مبدأ الإصابية كأساس لإعادة تكوين الشكل القضوي للقول وهو ما يمكننا من التعرف على الموقف القضوي للمتكلم بناء على السياق ، إذ يرجع أمر إعادة تكوين التضمينات إلى التعرف على الغايات التي يهدف إليها صاحب القول والتي يعتبرها ملائمة أو صائبة بالنسبة للسامع ، غير أن بعض المعلومات قد تكون في نظر المتكلم صائبة دون أن تكون له أية فكرة عن الآثار التي يمكن أن تجعلها صائبة كما أن بعض الأقوال في ظروف معينة لا تثير أية تضمينات بالنسبة للسامع كما لو سأل سائل أحدا عن ساعة وصول القطار فيكون الجواب (الساعة الخامسة مساءا) فهذا الجواب لا يثير أية تضمينات .

وقد يكون الأمر مختلفا إذا كان المتكلم يريد أن يفكر ليس فقط أن يكون قوله صائبا (PERTINENT) ولكن غايته شيء آخر كما لو سأل المتكلم شخصا يعرفه .

هل تسوق فانطوم (ميرسديس؟) فيكون الجواب .
لا أسوق سيارة فخمة أبدا .

— سيارة الفانطوم سيارة فخمة .

ان الشكل القضوي لا يتجاوب مباشرة مع السؤال ، ولكنه يسمح للمجيب أن يدخل مباشرة معارفه الموسوعية حول (الفانطوم) وما توحي به من صفة (الفخامة) ، ومن تم يفترض ان الفانطوم سيارة (فخمة) انه جواب

-57 La pragmatique 104

مستنتج من السؤال ، فالاستنتاج إذن هو فرضية وجزء من السياق ، وهذا يعني ان المقدمات التضمينية[58] التي يقدمها السامع تكون موجودة في ذاكرته الخاصة (والمتعارف عليها اجتماعيا) ، وقد يعيد السامع تكوينها تكوينا خاصا من خلال الفرضيات الموجودة في الذاكرة ، وهذا يعني أن النتائج الضمنية تستنتج من تفسيرات القول والسياق معا باعتبار القول تمثلا ذهنيا يصاحب عملية الاستنتاج .

2-3-1- التمثلات الدلالية للقول بين المحيط المعرفي والسياق :

تتكون التمثلات الدلالية وهي قضايا ذهنية في الذهن بفعل عملية آلية لا واعية (INCONSCIENT) لحل الترميز اللساني للقول وهي تشبه الأشكال المنطقية غير التامة ، بمعنى أنها تمثيلات تجزئية للفكرة [58] أي كل معنى ممكن للجملة ، ومن هنا فهي أشكال منطقية غير تامة ، في حاجة إلى سياق حتى تكتمل وتفهم . إننا لا ننتقل من التمثيل الدلالي إلى الفكرة المعبر عنها بواسطة الزيادة في الترميز SURCROIT DE CODAGE ولكن عن طريق الاستدلالات ، ولاشك أن اللجوء إلى السياق بالمعنى التقليدي أو المحيط المعرفي بالمفهوم المعرفي هو مهمة من مهام المقاربة الاستدلالية التي لا تقدم التداولية شيئا عن الطريقة التي تتحقق بها هذه المهمة ، وتكتفي فقط بما تلعبه المبادئ الكرايسية والمعرفة المشتركة . غير ان ما يقترحه مؤلفا كتاب PERTINENCE عندما يعرضان لتفسير الطريقة التي نصل بها إلى المعنى الضمني من خلال ما تقوله هند لزيد ، يبدد كثيرا من الغموض المنهجي ، في مثل :

1- سيبرد الأكل .

لما كان توجيه القول إلى المخاطب يعد فعلا تواصليا يثير مجموعة من الفرضيات مثل :

أ - هند تقول أن الأكل سيبرد .

أي أن هندا تريد أن تجعل من هذا القول شيئا ظاهرا بالكلام أو بالكتابة ، وان مهمة المخاطب أن يجد في تلك الفرضية ما يريد أن يجعله المتكلم من ذلك

58 - Pertinence P: 288

القول شيئًا ظاهرا ، إلا أن هذا الظهور أي الكلام المعبر عنه بالصوت ليس وحده المقصود ، بل هناك مقاصد أخرى يتوخاها المتكلم ، وهي فرضيات فرعية يعززها المحيط المعرفي ليرجح ما إذا كان قصد المتكلم هو الإخبار أو الإثبات أو التهكم أو أي شيء آخر ، وللوصول إلى القصد المشترك يسلك السامع طرائق استدلالية تستحضر فيها كل المعلومات التي يثيرها محيطه المعرفي ليصل مثلا إلى الفرضيات التالية :

1-ب- هند تعتقد أن الأكل سيبرد .

1-ج- هند تقول بأن الأكل سيبرد بسرعة .

1-د - هند تريد أن يحضر زيد بسرعة .

كيف استطاع المخاطب إعادة تكوين الفرضية النتيجة؟ في (د)

هناك فرق واضح بين الطريقة التي سلكها المخاطب من اجل إعادة تكوين الفرضيات (أ .ب .ج .) والطريقة التي سلكها لإعادة تكوين الفرضية (د) ، فالفرضيات (أ .ب .ج) تضم صور الأشكال المنطقية التي عقدها القول ، فقد أعيد بناؤها استدلاليا بإغناء وإكمال الشكل المنطقي بواسطة المعلومات السياقية ، قصد الحصول على الأشكال القضوية التي تعبر بصفة عامة عن الموقف اتجاه الشكل القضوي . أما الفرضية (د) فالأمر فيها يختلف عن الفرضيات الأخرى ، ذلك لأنها ليست تكوينا لشكل منطقي معقود(CODE) لقول هند ، ولكنه شكل أعيد بناؤه انطلاقا من خطاطات الفرضيات المستخلصة من الذاكرة الموسوعية للمخاطب ، انطلاقا من المعلومات السياقية ، بالإضافة إلى الفرق الجوهري الموجود بين تواصل صريح وتواصل ضمني ، فالمثيرات التي تعقد الشكل المنطقي لا تبلغ التضمينات او بعبارة أخرى فإن المضمون الصريح لقول ما ، ما هو إلا مجموع الفرضيات المعقودة ، أما المضمون الضمني فهو مجموع الفرضيات المستنتجة ، ورغم ذلك فإن الجانب الصريح في التواصل يبدو اكثر غنى واكثر إثارة للاستدلال والاستنتاج خلافا لما تعتقده التداولية حسب الاتجاه الكرايسي .[59]

---

59 - Pertinence P : 270

2-3-2- إشكالية القصد في الاستنتاج :

يتضح ان نظرية التضمين «الكرايسية» انطلقت من اعتبار التواصل الإنساني في عمومه يكون قصديا ، لأنه أولا يقدم المؤشرات المباشرة للقصد الاخباري وثانيا يهدف إلى تعديل المحيط المعرفي المشترك بين أطراف عملية التواصل . فما القصد؟

إن القصد هو حالة نفسية [60] ترتبط بمشروع الفعل كما نجدها عند (PEIRCE) وترتبط بمضمون القصد الذي هو تمثيل ذهني ، وانطلاقا من هذا القصد الذي تنبني عليه مقاربة (كرايس) الاستدلالية والذي لا ينحصر في القصد الاخباري الذي حدده هو نفسه وإنما يتعداه إلى أنواع أخرى من المقاصد فعندما تقول (هند لزيد) مثلا أنها أصيبت بوعكة يوم العيد فهي أولا تقصد الإخبار بهذا القصد وثانيا تقصد شيئا آخر خاصا هو أن تخلق لدى زيد الاعتقاد بأنها مريضة ، وإذا فرضنا أن زيدا يعرف هذا القصد ولكنه لا يثق في كلام هند ، فإن قصدها الخاص هنا لم يتحقق ، وما تحقق ، هو القصد الإخباري ، ولهذا لم تستطع هند إقناع زيد بقصدها الخاص رغم أنها أبلغته بما تريد .[61]

إن الاكتفاء بالقصد الإخباري انطلاقا من المؤشرات اللسانية غير كاف ، إنه بداية الطريق إلى قصد آخر أعمق هو القصد إلى تغيير المحيط المعرفي للسامع وهو السبب الآخر الذي يجعلنا نتواصل بالإضافة إلى أن الاكتفاء بالقصد الإخباري يطرح عدة مشاكل حيث لا يكفي القصد المباشر المفهوم من صيغة القول مثل (اذهب ، ذق) بل قد تكون لهذا القصد الإخباري قيمة أخرى أو قصد آخر كالتهكم أو النصيحة أو التحدي الخ . وذلك حسب السياق الذي يرد فيه القول* .

ومن هنا اعتبرت أفعال الكلام كتمظهر للقصد التواصلي ، ذلك أن فهم القصد التواصلي للمتكلم لا يعتمد فقط على الدلالة اللسانية للقول ، بل ينطلق منها ويتجاوزها بتشغيل كل أنواع المقدمات والمؤشرات والقرائن السياقية ، ويجند لذلك قدراته الإستدلالية والإستنتاجية التي تدخل في اعتبارها وفي

---

60 - Ibid 93

61 - Ibid 50

* هو ما يعبر عنه البلاغيون بخروج الخبر أو الفعل عن معناه الأصلي الى معنى آخر

حسابها أية معلومة كيفما كانت سواء كانت ذات علاقة بالعلامة اللسانية أو بالسياق التداولي .

وفي هذا السياق تأتي أهمية التضمين في الأفعال غير المباشرة حسب تحليل (SEARLE) إذ يعتبر أن الآليات الأساسية للإنتقال من الأفعال المباشرة إلى الأفعال غير المباشرة اعتمادا على مبادئ الحوار والتعاون التي حددها كرايس كالإنتقال من الإستفهام إلى الطلب كما في المثال الذي ساقه (هل تستطيع أن تناولني الملح؟)

حيث تم هذا الإنتقال من الفعل المباشر (الإستفهام) إلى الفعل غير المباشر (الطلب) اعتمادا على معلومات مشتركة لسانية وغير لسانية .

2-3-3- إشكالية المعرفة المشتركة :

- لقد ساهمت الأبحاث المتعلقة بالتواصل في دراسة مفهوم الخلفيات المشتركة أو المعرفة المشتركة على أسس علمية جديدة بالرغم من إن التواصل لايمكن أن يتم إلا على أساس من المعارف المشتركة بين المتكلم والسامع .

مفهوم المعرفة المشتركة في التداوليات المعرفية :

لقد ارتبط مفهوم المعرفة المشتركة ارتباطا أساسيا بالنموذج الترميزي (CODE) فبدون هذه المعرفة المشتركة لا يشتغل هذا النموذج فكيف يؤسس السياق وجودها؟ وكيف يميز المتكلم بين ما هو مشترك وما هو غير مشترك؟ .

تلك أسئلة طرحها التداوليون (في إطار الاتجاه المعرفي) وقدموا في شأنها إجابات محددة تناولت طبيعة المعرفة لمشتركة التي لا تعدو أن تكون بناء فلسفيا لا معادل له في الواقع ، وليس معنى هذا إنكار أن الناس يتقاسمون معلومات متعددة ، ذلك ان عملية الإتصال ذاتها تعطي الحق في ميلاد المعلومات المشتركة ، إذ كلما كان تقاسم المعلومات كان ذلك شرطا لحدوث التواصل ، لكن ، رغم أن كل الناس يعيشون في نفس العالم الفيزيقي طوال حياتهم فانهم يجهدون أنفسهم من اجل انتزاع المعلومات من هذا المحيط المشترك لبناء تمثل ذهني جيد حسب الإمكان ، ومع ذلك فإنهم لا يكونون ولايبنون جميعا

نفس التمثل ، من جهة ، لان هناك اختلافات في قدراتهم المعرفية ، واختلافات في فعالية القدرات الإدراكية التي تتفاوت من شخص لآخر ، من جهة أخرى ، ومن جهة ثالثة لان القدرات الاستدلالية تتفاوت ليس فقط بفعاليتها من شخص لآخر ولكن أيضا لأن التمثلات التي يمكن أن يكونها كل واحد تختلف هي كذلك ، فالناس يتعلمون نفس اللغة ويجيدون مفاهيمهما ولكنهم يختلفون في التمثلات التي يمكن أن يكونوها والاستدلالات التي يمكن أن يقوموا بها .

- مفهوم المحيط المعرفي :

يتكون المحيط المعرفي للفرد من كل الظواهر والوقائع والأحداث والأقوال والفرضيات التي يمكن إدراكها أو استنتاجها ، كحالة الرؤية بإعتبارها قدرة معرفية إنسانية ، تجعل ما يمكن ابصاره من طرف الفرد مدركا في محيطه البصري ، بحسب قدراته ،فما كان مبصرا بالنسبة للرؤية يصبح شبيها بالوقائع والأحداث والأقوال ،أ وكذلك كل ما يمكن أن يكتسبه الفرد من معرفة ، وما يمكن أن يستنتجه ؛ ذلك أن القدرات التصورية الادراكية تختلف فعالتها من شخص إلى آخر كما تختلف فعالية القدرات الاستدلالية ، لذلك نجد نفس الأشخاص يتعلمون لغات مختلفة لكن التمثلات التي يمكن أن يبنوها أو الاستدلالات التي يمكن أن يقوموا بها تختلف من شخص لآخر . نظرا لما يتوفرون عليه من ذكريات ونظريات مختلفة ، يقومون بتطبيقها على تجاربهم بطريقة مختلفة . وهكذا فحتى ولو تقاسم الناس كلهم نفس المحيط الفيزيقي وهو ما يسميه (ويلسن) المحيط المعرفي ENVIRONNEMENT COGNITIF فإن هذا المحيط المعرفي يختلف من شخص لآخر باختلاف المتعاملين معه أخذا وعطاءا وتأثرا وتأثيرا ، لكونهم يخضعون لتجارب مختلفة وذكريات مختلفة لابد أن يكون لها تأثير على استدلالاتهم وتطلعاتهم وتمثلاتهم وعلى النتائج التي يمكن أن يخرج كل واحد بها من خلال المعطيات التي يقدمها ذلك المحيط الفيزيقي المحلي .[62] .

62- Pertinence P: 64

من هنا يمكن لشخصين مثلا أن يفكرا في نفس الشيء دون أن يكوّنا عنه تصورات متماثلة ، وعلى هذا الأساس يكون التأويل والاستنتاج مرهونا بالمرجعية التي يعطيها كل شخص للشيء ، كل واحد يحددها بطريقته ، فكما أن شخصين يمكن أن ينظرا إلى نفس الشيء فإنهما يعرفانه بطريقة مختلفة كما يمكن أن يفهما بشكل مختلف نفس الخبر الذي تلقياه معا .

إن اعتبار المعارف المشتركة في بداية النظرية التداولية (اوستين وسورل وكرايس) كان شرطا ضروريا لتشكيل السياق ، لكنه ظل مرتبطا بأفعال الكلام و علاقة التضمن دون أن يشمل باقي الجوانب الأخرى ، مما حدا بصاحبي كتاب (PERTINENCE) إلى استعمال مفهوم أكثر مرونة لتفسير الاختلاف الكامن في تشكيل السياقات الضرورية . ويتجلى مفهوم الفرضيات المشتركة الذي يقوم على فكرة مركزية تعرف بالمحيط المعرفي المشترك ، والتي تتميز بأنها ليست تماما متماثلة IDENTIQUE بين شخصين أو أكثر .

- المحيط المعرفي (الفرضيات والوقائع)

انطلق ويلسن لتوضيح اختلاف المحيط المعرفي بين شخصين أو أكثر من حالة الرؤية التي تعتبر قدرة معرفية إنسانية تستطيع إبصار ما يوجد في المحيط البصري (أي مجموع الظواهر الخارجية الفيزيقية التي يمكن إبصارها) ومن خلال هذه المقارنة استنتج ويلسون أن ما كان من الظواهر مبصرا يصبح شبيها بما يكون من الوقائع والأقوال بالنسبة للمعرفة التصورية ويغدو المحيط المعرفي الشامل للفرد شاملا لكل الوقائع والفرضيات التي يمكن إدراكها واستنتاجها أو كل ما أخذه الفرد من معرفة أو كل ما يمكن معرفته من تلك المعارف ، فالمعرفة العامة التي يكونها الفرد والتي راكمها عبر تجاربه تساعده على معرفة وقائع وفرضيات أخرى في المستقبل .

- الإصابية : المحيط المعرفي والسياق :

يطرح في هذا التصور المعرفي إشكالية أخرى هي التمييز بين درجات الظهورية ، ذلك أن الفرضيات الخاطئة يمكن أن تكون غامضة مبهمة مثل

الوهم ILLUSION بالنسبة للرؤية ، فكما يكون الشبح مرئيا كذلك الفرضيات الخاطئة ، ولهذا قد يكون ما نعرفه جميعا في بعض الأحيان أشبه ما يكون بحالة فرضيات خاطئة ، فإذا كان كل ما يمكن أن يرى ، يرى فان بعض الأشياء اكثر رؤية من الأخرى (حسب اهتمام الرائي) إذ يرى ما يهمه دون الالتفات إلى ما لا يهمه . وهذا ما يجري في التواصل ، فهناك ما يلفت سماعنا اكثر من غيره (صوت انفجار اكثر اهتماما من صوت شيء بسيط كدقات ساعة الحائط مثلا) وكذلك الأمر بالنسبة للمعلومات والفرضيات ، فبعضها يكون اكثر ظهورا من بعضها الآخر كأن نقول ان معلومة أو خبرا أو فرضية قد أخذت باهتمام فرد ، فيكون من الواضح ان نعطي لهذا الخبر خصوصية اكثر من أن يكون له تمثل في ذهنه بشكل خاص أو أن يثير في ذهنه شيئا خاصا أو يجعله يستنتج شيئا خاصا .

فالقول بان شخصين يتقاسمان محيطا معرفيا لا يعني أنهما يقومان بنفس الفرضيات ، بل يعني انهما قادران على أن يقوما بنفس الفرضيات[63] ولهذا يكفي معرفة المحيط المعرفي للآخر لكي يمكن استنتاج ما هي الفرضيات التي تكون اكثر قدرة على تحقيق التفاعل وإحداث التغيير ، إن المعرفة البشرية تقودها اعتبارات الملاءمة ، فاللجوء إلى السياق بالمفهوم التقليدي أو المحيط المعرفي ، هو في الواقع من المهام الاستدلالية التي تكتفي الأعمال التداولية بما تقدمه مبادئ (كرايس) والمعرفة المشتركة ، دون أن تحلل الطريقة التي تتحقق بها مهمة الاستنتاج ، أو الاستدلال ، فكيف يجد السامع لكل قول جديد سياقا يرشده إلى التأويل ؟ إنه إشكال مطروح على التداولية ،[64] لقد قدمت التداولية المعرفية فرضية مؤداها أن ليس من طبيعة السياق ما يمنع ان يكون مبنيا ومفتوحا على الاختيار وعلى المراجعة على طول عملية الفهم .[65] و هكذا يسمى التداوليون (الاتجاه المعرفي) سياقا كل ماله علاقة بالمحيط المعرفي في عملية التواصل .

---

63 - Ibid 69

64 - Ibid 64

65 - Ibid 65

هل يستنتج السياق ؟

لا يلجأ إلى السياق فقط ، من اجل إغناء المعلومة التي تحركها الجملة ، ولكن أيضا من اجل اختيار المعنى الملائم بالضبط . فحين نقول (اشترى زيد الاتحاد الاشتراكي) نعلم انه اشترى جريدة (الاتحاد الاشتراكي) ونبعد الفرضيات الأخرى الممكنة اعتبارا للسياق الذي وردت فيه ، وهكذا يقتضي السياق الذي تعالج فيه فرضية جديدة بالدرجة الأولى فرضيات أخرى جزئية قديمة ، حيث تأتلف مع الجديدة لخلق آثار سياقية مختلفة ، وهذا لا يمنع من أن يكون السياق مبنيا ومفتوحا على الاختيار والمراجعة ، على طول عملية الفهم ،[66] نظرا لأن السياق لا يضم فقط معلومات حول المحيط الفيزيقي المباشر أو حول الأقوال السابقة ، بل يضم أيضا التوقعات والترقبات والفرضيات والعقائد والذكريات والمسبقات الثقافية وافتراضات حول الحالة الذهنية للمتكلم ، كما يمكن توسيع السياق بالرجوع إلى الخلف بإضافة بعض الفرضيات المستعملة أو المشتقة من عمليات الاستقراء السابقة ، فكل سياق يضم سياقا عاما وسياقات صغيرة جدا أو يضم سياقات اكبر .

فمن المؤكد أن كل الأعضاء المنتمين لجماعة ثقافية تتقاسم عددا من التجارب وألوانا من التربية والتعليم والسلوك ، ولكنهم خارج هذا الإطار المشترك يميل كل فرد إلى تنمية معرفة خاصة به وحتى في التجارب المشتركة فكل تجربة جديدة تعمل على توسيع تسلسل السياقات الممكنة ، وهكذا فالفهم الجيد للرسائل اللسانية وغير اللسانية لا يقتصر على اللغة كشرط يكون ضروريا ، لكنه من المؤكد انه غير كاف ، ومن ثم يكون دور السياق شرطا أساسيا في الفهم (وعنصرا مركزيا) بالإضافة إلى ضرورة المعرفة الواسعة للعالم .

3 - التواصل والتحليل التداولي للخطاب :

– يشمل التواصل كل ما يمكن أن يصدر عن الإنسان من كلام وأقوال اتخذت مع تطوره أشكالا وأجناسا متعددة تبعا لغايات وأهداف معينة فتعددت

---

66 - Ibid 31

هذه الأشكال وانفرد كل واحد منها عن الآخر بمميزات (ترتبط بالهدف منها) تختلف من جنس لآخر حسب طبيعته وحسب القضايا التي يطرحها والأدوات التي يتوسل بها . فللشعر وسائله وقضاياه وأدواته ، وللقصة معاييرها وقضاياها وللخطبة تقنياتها وتفاعلاتها مع الآخرين في مقام يستحضر عناصرها الخاصة ونفس الشيء بالنسبة للمقالة الصحفية أو الخطاب الاشهاري أو الخطاب السياسي الذي ينبني على الحجاج باعتباره جنسا من أجناس التواصل يتميز بطبيعة المبادئ التي تحكمه والبنيات التي تحدد القضايا التداولية التي تعطيه هويته كقيمة تواصلية اجتماعية . ومن بين أنواع الخطاب الحجاجي نجد الخطاب العفوي (الشفوي) والخطاب المكتوب ذا اللغة المراقبة والذي تقوم هذه الدراسة بتجلية آليته وتقنياته وآثاره وغايته وقيمته ويمكن اعتبار الخطاب السياسي أغنى أنواع هذا الحجاج .

لقد شغل الخطاب بكل أنواعه المختلفة وخاصة الأدبي والاجتماعي اهتمام الدارسين اللسانين وغير اللسانيين متجاوزين بذلك حدود اللسانيات السوسورية عن طريق ما يعرف بتحليل الخطاب ANALYSE DU DISCOURS حيث توزعت في تحليل ودراسة اشكالاته مدارس متعددة انتهت إلى إعادة النظر في المعالجة المتعلقة بالموضوع وبالأدوات الكلامية ، وبينت أن الخطاب اللساني يشتمل على كثافة يصعب نقلها مباشرة (OPACITE) ، لتنتقل بعد ذلك إلى التنظير والمساءلة في إطار التيار البنيوي حيث اكشفت ما يخفيه هذا الخطاب من جوانب ايديولوجية بين المتكلم والسامع .

وقد كانت الإرادة الموجهة لتحليل الخطاب غير منفصلة عن دراسة عملية التشويه الايديولوجي التي قد تلحق بالخطاب ، ومن ثم العمل على تنوير مؤول الخطاب تمهيدا للتغيير الاجتماعي والثقافي والسياسي[67] وقد عالج تحليل الخطاب كل هذه الاشكالات انطلاقا من وجهة نظر صورية ومن مقاربة معجمية ، ومن وجهة نظر دلالية ، اعتمادا على تأويل سوسيوسياسي[68] وهي مقاربات تعود بشكل كبير إلى سوسيولوجية اللغة اكثر منها إلى اللسانيات بالمعنى الدقيق .

---

67 - L'analyse du discours P: 13-15

68 - Ibid 15

لقد كانت نتائج الدراسات التي تناولت تحليل الخطاب لبنة أساسية لبداية التحليل التداولي للخطاب .

3-1- أهمية التحليل التداولي اللساني :

كانت اللسانيات المنحدرة من أعمال الفلسفة التحليلية للأفعال اللغوية (SEARLE 1972-AUSTIN 1970) وقواعد الحوارية (GRICE 1979) ، هي اللسانيات التي اهتمت أساسا بدراسة مختلف نماذج الأفعال اللغوية التي عرفت بالأفعال التكلمية ILLOCUTOIRES (ACTE) وشروط استعمالها . كما اهتمت بدراسة مختلف الوسائل اللسانية التي يتوفر عليها المتكلم من اجل ايصال الفعل اللغوي ، وفي نفس الوقت اهتمت باشكالات مثل .

هل يتحقق الفعل بوضوح (EXPLICITEMENT) أو بشكل ضمني IMPLICITEMENT لدى السامع ؟ هل يرتبط بحضور علامات لسانية ؟ أو على العكس من ذلك يحدده سياق القول ؟

لقد كانت هناك دراسة أساسية تهتم بتسلسل (ENCHAINEMENT) الأفعال اللغوية داخل الخطاب (VAN DIJK 77.81) أي الشروط التي لا تحدد فقط الملاءمة (APPROPRIE) السياقية للأفعال اللغوية ولكن أيضا الملاءمة التساوقية (COTEXTUELLE) أي فعالياتها ومناسبتها .[69]

وقد تأثرت هذه الدراسات بما كانت تعج به الساحة الثقافية على مختلف الأصعدة العلمية وخاصة الفلسفية منها والاجتماعية ثم الأدبية . وهكذا اعتبر اللجوء إلى الاستعمال والمقام (وهي مفاهيم تداولية) كهدف يجعل العلاقات الدلالية تكشف عن نفسها في الأقوال بدل تركها قابعة في أعماق الفرد[70] فما يثيره القول وما يعبر عنه المعنى هو معناه التداولي مقابل معناه التمثيلي أو الدلالي [71] ومن الكلام انطلقت التداولية لوصف اللغة (على عكس لسانيات

---

69 - Argumentation et conversationP: 17-20
70 - La pragmatique histoire et critique P : 32
71 - Enoncés performatifs P : 8

سوسير[72] التي درست الجمل كما هي متماهية مع مضامنيها التمثيلية) ، ومن الكلام كان اهتمام اللسانيات التداولية باستعمال اللغة من قبل المتكلمين ، حيث اصبح المعنى لا يمثل بعض حالات الشيء فقط ، ولكنه يعبر أيضا عن أفكار ومشاعر معينة تحدد الغايات التي يقصدها المتكلم ، ذلك أن المعنى لا يتحدد كحالة للأشياء أو صورة ذهنية أو مضمون معرفي ، وإنما يتحدد بما يتيحه من إمكانات كما في :

— الكتاب غالي الثمن .

— إمكانية 1 - لا تشتره
— إمكانية 2 - اشتره
— إمكانية 3 - احذر

} حسب السياق

إن وصف قول ما ، هو وصف لنوع الفعل الذي يتوخى القول تحقيقه (أمر ، نهي ، وعد ، تمني تدليل) أي كل فعل اعتقادي من شأنه أن يؤدي إلى فعل عملي مناسب وليس غريبا أن يقول (كرناب) إن النحو الوصفي والدلالة تأسسا في الواقع على معارف تداولية .[73] وقد لخص (أو ستين) رأيه في دراسة اللغة باعتبارها حقيقة تخص الأشخاص المتكلمين لا دراسة اللغة في ذاتها .

تم يضيف «لقد درست اللغة في ذاتها بكثير من العمق ، وهي اليوم ينبغي أن تدرس من اجل حقيقة أخرى هي حقيقتنا نحن كأشخاص نتكلم»[74] فليست اللغة سوى النظام المحصل عليه بواسطة التجريد ، انطلاقا من مجموع أفعال الخطاب ، التي تكوِّن نظرية التواصل ، ومن كل مظاهر السلوك البشري ، النظري ، والعملي ، أي أن مجموع أفعال الخطاب هي التي تكون بالدرجة الأولى نظرية التواصل ، التي تكون بدورها مجالا تحتيا لنظرية الفعل التي لا تخرج في غالب الأحيان عن ثلاثة مرامي :

---

72 - Ibid 8

73 - المقاربة التداولية ص 34-35

74 - Quand dire c'est faire

1- يعد فعل التواصل تحويلا وتعديلا في الان نفسه لعلاقة المتكلم بالسامع .

2- لا توجد وسيلة للكلام عن المعنى دون الكلام في نفس الوقت عن الهدف .

3- كل فعل تواصلي ينتج آثارا مختلفة بمجرد وجود تعبير كتابي أو شفوي .[75]

وهذه المرامي تطرح مسألة الشروط التي يجب استيفاؤها حتى يقوم الفعل بأدوراه المرجوة ، كما تطرح مسألة نشاط المؤولين والفاعلين في عملية التواصل ، ان تفسير كل ذلك النشاط الذي يقوم به الفاعلون في عملية التواصل هو من مهام التداولية[76] التي تقوم بدور التفسير في عملية الإبداع والتغيير ، من خلال عملية الإنتاج والتأويل[77] في إطار أخلاقي ، نظرا لارتباط الأقوال بالأفعال .

وهكذا هزت التداولية كثيرا من الوثوقيات والمسلمات التي سادت في التحليل اللساني الدلالي ، على اعتبار أن ممارسة اللغة إنجازا وإبداعا وأخلاقا هي قاعدة كل أنواع الإبداعات الكائنة والممكنة ، إنها تعبر عن عمق النفس البشرية ، ولذلك اتجهت الأبحاث التداولية اليوم إلى دراسة النفس البشرية من خلال الذهن البشري حتى أصبحت تعرف اليوم ب : معرفَة التداولية[78] COGNITIVATION DE LA PRAGMATIQUE وهو ما يؤكده كثير من علماء التواصل وعلماء التداوليات .

وفي هذا السياق يذهب ECO إلى اعتبار التداولية بمثابة المعرفة العميقة أو هي خاصيتها الأساسية ، أي المعرفة العميقة بالنفس البشرية ، والمعرفة العميقة بدلالة الكلمات والمفاهيم ، ومعرفة عميقة بالماضي والحاضر ، ومعرفة عميقة بالعلاقات القائمة بين الأشياء والظواهر والأفكار والأحداث والوقائع ، ومعرفة

75- المقاربة التداولية ص 75

76- La pragmatique histoire et critique P : 90

77- Dictionnaire Encyclopédique de la pragmatique P: 30

78- Pertinence P: 63

عميقة بالقضايا علمية كانت ، أو فنية أو سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو ...الخ ، ومعرفة عميقة بعلاقة الإنسان بالإنسان وعلاقة الإنسان بالعالم[79] .

لذلك أخذت التداولية خلال تطورها مسارا آخر ، يدرس اللغة في شموليتها وفي علاقتها بالعالم وبالإنسان ، باعتبار هذه العلاقة شكلا من السلوك البشري ، ومن ثم أصبحت تشتغل على ظواهر مرتبطة بالأسئلة الثقافية مثل الحقيقة والفعل والعلاقات الإنسانية ، وعملية تحريك الأفراد والجماعات نحو فعل أو فكرة أو سلوك ، ثم التركيز على النسبية الثقافية[80] ، إننا نجد اليوم حضور التداولية بكل تلك الأبعاد التي ألمحنا إليها في مشهد الدراسات التي تتناول القضايا المرتبطة بالتواصل اللساني وغير اللساني وهي لا تعطيه فقط الإطار النظري لمعالجة قضايا مثل أفعال الكلام أو الحجاج أو قواعد الحوار ، ولكنها تقدم صيغة لمقاربة جريئة للمشاكل التي كانت تعتبر تقليديا في صلب الدلالة مثل المرجع والسياق والاقتضاءات[81] إلى حد ذهاب بعض الدراسين مثل «GAZDAR1979» إلى اعتبار اللغات الطبيعية ليست سوى التركيب والتداولية ، وليس هناك دلالة على الإطلاق ، ومن هنا تدخل التداولية في اهتمامها دراسة القدرة الانجازية والقدرة التأويلية وقدرة الفهم كما تدرس كيف يصل المخاطب إلى المعنى المراد؟[82] دون إغفال الجانب الثقافي ودون الخروج عن نظام العرف والاتفاق الذي كان يؤخذ على التداولية ،[83] الكلاسيكية ، لأن الإنسان يفكر دائما في إطار تداولي وهو معروف بأنه إطار متغير .

3-2- الأبعاد التداولية في تحليل الخطاب : الفعل والإنجاز

تشكل الأقوال عالما فزيائيا متحركا في سلسلة لا متناهية من التداعيات والارتباطات والعلاقات ، تنظيرا وممارسة وتأويلا ، لذلك فقد حاولت نظرية (أفعال الكلام) لاوستين 1970 معالجة هذه الأبعاد ، فاعتبرت اللجوء إلى اللغة

79- Les limites de l'interprétation P : 302
80 - Théorie de l'Argumentation P : 24
81 - Enoncés performatifs P : 8
82 - (Dictionnaire Encyclopédique de la pragmatique P : 499
83 - المقاربة التداولية ص 80

يدخل في الإطار العام للفعل الإنساني ، حيث يتضمن كل قول أبعادا متعددة : بعد يكمن في القول ، وبعد يكمن فيما يتحقق في استعماله الخاص ، وبعد يكمن فيما يتحقق بفعل هذا القول ، أي أن قول شيء ما يثير غالبا بعض الآثار التي تتعلق بالمشاعر والأفكار والمعتقدات والأفعال . وهكذا انطلق (أوستين) من أن إنشاء جملة لسانية هو في حد ذاته فعل لغوي ، ينتمي إلى نظرية اللغة التى تعد جزءا لا يتجزأ من نظرية الفعل ، حيث يحقق فعل القول في إطارها أفعالا اعتقادية من قبيل التأكيد أو الأمر أو النهي أو الاستفهام أو التعجب كما يمهد لأفعال علاجية أو غير علاجية .

لقد اجمل اوستين آراءه في كتابه QUAND DIRE C'EST FAIRE من فكرة استوحاها من المثل الذي يردده الإنجليز (كيف نصنع الأشياء بالكلمات) والتي هي صدى ثقافي لمقولة شعبية (كيف نبني مسكننا بأنفسنا) فبواسطة القول ننجز فعل الكلام ACTE ILLOCUTIONNAIRE وهو مصطلح مختصر لـ « التلفظ » يكون له «معنى ومرجع» كما يعرف في الدلالة[84] وننجز أيضا قوى أفعال الكلام كالإخبار والأمر والتحذير (الخ) أي ضروب العبارات التي لها صفة فعل القول ، اعتبارا لمواضعتها وقوتها وقيمتها ، وننجز كذلك لازم فعل الكلام ACTE Perlocutoire وما يحدثه فعل القول بشكل نافذ ، من تأثير ، كالحمل على اعتقاد شيء ، أو الوصول إلى إقناع بفعله أو تركه ، كما يمكن إدخال المباغتة والتضليل في ذلك ، فغاية لازم فعل الكلام ، هي الدفع إلى العمل والاشتغال بطريقة استدلالية أو استنتاجية من خارج لفظ العبارة ، لأن العبارة إذا كانت تدل على قصد العمل صارت إنشاء[85] ، وقد لاحظ «اوستين» أن جملا لا يقصد بها لا في كلها ولا في جزئها ، أن تخبر عن أمر ، وان تبلغ معرفة عن حدث واقع على وجه الخصوص مثل :

— أسمى هذه البنت ليلى .

---

84 - أفعال الكلام ص 134

85 - أفعال الكلام ص 132

فالنطق بهذه العبارة هو إنجاز لفعل وإنشاء لجزء منه ، ومن ثم فهي لا تدل على صدق أو كذب . ويوسع «اوستين» مفهوم الإنجاز كما أورده في الأمثلة ليشمل كل ما يقال جهارا قولا كان أو كتابة : «إننا نقابل فقط بين من يفكر في الشيء ويتأمله ومن يقوله جهارا بأعلى صوته ، وبهذا فان القول يصبح فعل شيء ما وعمله»[86] كما ميز أوستين بين الأفعال الإنجازية والأفعال غير الإنجازية ، فالأولى يتحقق إنجازها بمجرد النطق بها والثانية لا يتحقق إنجازها مثل المشي ، إذ لا يكفي أن أقول : أمشي ليتحقق الفعل المناسب . ومع ذلك فاللجوء إلى اللغة يسجل في الإطار العام للفعل الإنساني ، لأن الناس يقومون بأفعال متعددة بفعل المشاكل التي تطرح عليهم والتي تفرض عليهم أن يواجهوها ماداموا موجودين ، ومن هنا كان الفعل التواصلي فعلا يهدف إلى إثارة فعل ما[87] .

وقد شكل الجانب الإنجازي في الفعل دعامة أساسية للتقدم المتردد للتداولية[88] إذ لا يمكن وضع نظرية تداولية دون مواجهة مجموع الأفعال الممكنة للأفراد أو كما يقول MARTIN «ما يجب تعريفه في التداولية ليس إلا ما يشكل مرجعية لمجموع الأفعال ، كما هو الشأن بالنسبة لمجموع الأقوال في النص أو الخطاب»[89] ، إذ ليس هناك فعل معزول عن غيره ، أي ، بدون قطيعة وبدون جدة وبدون قفزة في المجهول وبدون تعبير عن القلق»[90] .

86 - أفعال الكلام ص 111
87 - دينامية النص 31
88 - LAPLEAD 1967
89 - نفسه ص : 1997
-

الفصل الثاني

نظرية الحجاج

الآليات والمفاهيم : حدود تقاطعات

تمهيد :

كان ميدان الحجاج يعتمد أساسا ، قبل «ديكرو» ، على البلاغة الكلاسيكية والحديثة ، كما نجد ذلك عند «تيتكا» و«برلمان» أو يعتمد على المنطق الطبيعي ، كما نجد ذلك عند «كرايز» أكثر من اعتماده على اللسانيات والتداوليات ، وبعبارة اخرى فإن دراسة الحجاج اخذت تهتم باستراتيجية الخطاب الهادف الى الأسر والاستمالة إستنادا إلى أنماط الاستدلالات غير الصورية ، وذلك بغاية إحداث تأثير في المخاطب بالوسائل اللسانية والمقومات السياقية التي تجتمع لدى المتكلم أثناء القول ، من أجل توجيه خطابه والوصول الى بعض الأهداف الحجاجية ، وهي القضايا والأبحاث التي اهتم بها كل من ديكرو وأسكونبر ، وأصحاب التداوليات المعرفية وأصحاب النظريات الحجاجية المعاصرة ، والمشتغلون بتحليل الخطاب ، وهي دراسات استندت في ذلك إلى مجموع الآليات والأدوات والبنيات اللغوية والمنطقية والتداولية والمعرفية ، فما هي هذه الآليات والبنيات وما هي حدودها ووظائفها وفعالياتها داخل الخطاب التواصلي والخطاب الحجاجي ؟

1- الآليات اللسانية في بناء الخطاب الحجاجي

بلغ اهتمام العرب نحاة وبلاغين حدودا قصوى في إعطاء التركيب قيمة مميزة ، في دراسة اللغة من حيث ألفاظها وتراكيبها وأوزانها وتصاريفها ، وقد

وصل التركيب في نظرهم (كما أسماه الجرجاني (النظم) إلى مرتبة «الإعجاز» ، وإعتبر لجام الألفاظ وزمام المعاني ، تقوم له صورة في النفس ليتشكل به البيان[1] ، وفي وقت مبكر قدم كل من ابن وهب والجاحظ صورة دالة للخصائص التي يتميز بها التركيب اللساني العربي ألفاظا ومعاني ، ووقفوا على الاختلافات والوظائف التي تجعل من القول المركب قولا ذا غايات دلالية وتداولية ، كما وقفوا على آثارالقول في نفس السامع ، وبهذا كان التركيب اللساني عماد القول المنظوم والمنثور وسر فصاحته ، كما يؤكد ذلك الجرجاني في دلائل الإعجاز :» فالفصاحة خصوصية في نظم الكلم وضم بعضه إلى بعض عن طريق مخصوصة أو على وجوه تظهر فيها الفائدة»[2] .

وقد كانت طريقة النظم في اللسان العربي بمثابة صنعة من الصنائع تتمثل في المهارة والحسن والإجادة ، حتى ولو كانت مادة هذه الصناعة غير ذات قيمة ، لذلك استعار النقاد اللغويون العرب مصطلحات النسيج والوشي والصياغة... لمفهوم النظم اللساني ، فقد تؤدي المجازات في بعض المقامات نفس الصور البلاغية ، غير أن فعاليتها وتأثيرها في النفس وتأديتها للمعاني ، لا يتأتى إلا عن طريق الصياغة الجيدة والترتيب الرفيع للألفاظ والجمل ، عن طريق آليات الربط والوصل ، والفصل ، والتقديم ، والتأخير ، والتعريف ، والتنكير ، والاستفهام ... مما حذا بالجرجاني الى إدخال المقومات التداولية في مجالات معينة ، حتى وان كان نفس المعنى او الغرض هو المراد في المقامات المختلفة (وللمزيد يراجع كتاب تاريخ البلاغة العربية وامتداداتها للدكتور العمري محمد) .

ولاشك أن ما أنجزته الدراسات اللسانية المعاصرة من أبحاث ونظريات أدت إلى خلق فروع جديدة في موضوع اللغة ، كان له الأثر الإيجابي في تطور العلوم الإنسانية عامة وعلم التواصل اللساني خاصة ، كما أدت إلى قيام طفرة نوعية في تحليل اللغة من جوانبها المتعددة : تركيب دلالة ، فنولوجيا... وظهرت في هذه الفترة العلمية حقول جديدة واتجاهات فرعية استقلت بذاتها ، كان

1- البرهان في علوم القرآن
2- دلائل الإعجاز 421

سوسور يعتقد أن مجالها الخاص هو اللغة في ذاتها ، ونخص بالذكر هنا اللسانيات البنيوية الوظيفية والتوزيعية والتحويلية ، والتوليدية ،التي اعتمدت التحليل العلمي الخالص ، مبعدة كل مظاهر وتمظهرات اللسان وكل ظروف التواصل ، مما جعل من تلك الدراسات حقلا للتجارب الفيزيائية والبيولوجية ، دفع بمجموعة من الدارسين إلى الكشف عن ثغرات النظرية البنيوية اللسانية بصفة عامة ، مما أدى إلى ظهور دراسات أعادت للغة ديناميتها الخارجية بشكل جديد ، أي بعيد عن التحليل الفيلولوجي أوالبنيوي الخالص أو المنطقي الشكلي ، مستندة في ذلك إلى الإنجازات التي قدمها المنطق المعاصر مع بداية القرن العشرين (المنطق الطبيعي ، منطق العلاقات مع فريج وراسل وفتجنشتاين) . إن المحاولات الأولى للتداوليات الدلالية ، ونستحضرهنا العمل الضخم الذي قام به كل من» كارنب وستراوسن»[3] حيث حاولا جمع كل الجوانب الأساسية التي تدخل في صميم تحليل القول الطبيعي ، بدءا من شكله الصوري المنطقي وما يتعلق به من قيم الصدق والكذب ، مرورا بإحالاته المرجعية ، وانتهاء بدلالته التداولية ، -وكانت- وخاصة أعمال «كارنب»- منطلقا لنشأة التداوليات المعاصرة المرتبطة أساسا بأفعال الكلام أو الأفعال الانجازية ، حيث أولت الجانب الانجازي مكانة خاصة في تحليل الكلام (القول) وفق متغيرات الوضع المقامي والخلفيات النفسية والمعرفية للمتكلم ، وعلاقاته بالمستمع ومقتضيات المقام الخاصة والعامة .

ولا يمكن بأية حال إقصاء أو إلغاء أحد الاتجاهين السابقين : «الاتجاه السوسوري في اللسانيات البنيوية والاتجاه اللساني التداولي» ، أو تجاهل قيمة أحدهما العلمية والمعرفية على حساب الآخر ، لأن المسألة لا ترتبط فقط بملء الفراغات ، بل يتعلق الأمر بشروط وخلفيات الدراسة وموضوعها ومنهجيتها وأهدافها ، سنسعى إلى تتبع خطواتها المنهجية واستخلاص المواقف الضرورية التي تؤكد حضورها النظري والإجرائي ، ولذلك لم تكن عودة «جاك موشلير» إلى موضوع المقارنة بين الاتجاهين من باب الصدفة أو التأريخ ، ففي كتابه الصادر عام 1996 «النظرية التداولية والتداولية

3- Le Syntaxe du langage Etude de logique et de linguistique

التخاطبية» تطرق إلى مؤسس النظرية التي قام عليها الاتجاهان السالفا الذكر ، انطلاقا من المكونات والخصائص المميزة التالية[4] : (الدلالة والمعجم والعلاقات التركيبية) . وفي هذا الإطار تناول « سوسور» بإعتباره مؤسس اللسانيات البنيوية مفاهيم الدلالة والقيمة الدلالية للوحدة اللسانية ، باعتبارها لعبة مركبة من العلاقات والتعارضات داخل نسق اللغة ، وهي خصوصية تقوم على مطابقة المبادئ التقليدية للتحليل البنيوي(التقطيع التبادل ، التوارد) ، حيث تهدف إلى وصف الوحدات المعجمية عن طريق الخصائص الدلالية للكلمات في مرحلة أولى ، ودلالة الجملة باعتبارها نتيجة تركيبية لمجموع الخصائص الدلالية للعناصر في مرحلة ثانية ، اعتمادا على المحورين التبادلي (التوزيعي) والتركيبي ، وعلى مفهوم التوارد ، وبهذا اتجهت النظرية الدلالية البنيوية أساسا نحو إقامة نظام معجمي للغة يكون الدور الأساسي فيه للمفاهيم الدلالية منحصرا في العلاقات التركيبية والحقول الدلالية المتمثلة في التعارض والتضمن والترادف...

وفي المقابل ، تناول مؤسس الدلاليات التداولية(أستين بالخصوص) الدلالة خارج النظام الداخلي للغة ، أي في علاقاتها المرجعية المرتبطة بشروط الاستعمال ، حيث تصبح للقيمة الدلالية وظيفة سياقية (أي داخل السياق الذي استعمل فيه القول) ، ويتضح من ذلك أن رهان النظرية الأوستينية هو الوحدة الكاملة للقول ، من منظور قضوي ، مرتبط بفعل تكلمي أو قول إنجازي ، وهو رهان يهتم أساسا بالقضايا المتعلقة بالنظرية التداولية ، كوصف صنف الأفعال التي تسمح بتحقق الفعل التكلمي .

ويبدو جليا من خلال هذه المقارنة السريعة والدالة أن الفهمين السوسوري والاوستيني للدلالة والقيمة الدلالية من خلال التركيب متعارضان كما يرى موشلير ، ذلك لأن منطلق سوسورهو النظام الداخلي المتجانس للسان ، وهو يتعارض مع منطلق أوستين المتمثل في السياق الخارجي غير المتجانس للخطاب أو القول .

4- La théorie pragmatique et pragmatique conversationnelle (10-15)

وفي نفس إتجاه الدلاليات التداولية يركز «سورل» على مفهوم القصد ، باعتبار فعل الكلام مظهرا من مظاهر القصدية ، ذلك لان معرفة الرسالة أو القول لا تنحصر في فهم نظام اللغة وحده ، بل يتطلب الأمر معرفة مسبقة بالسياقات التي تتجاوز حدود الدلالة اللسانية التقليدية ، إلى خلق دلالات جديدة ، تنسجم وتتلاءم وفعل الكلام ، باعتباره مظهرا للقصدية ، وليست القصدية هنا مجرد علاقة بين الوعي والعالم أو بين شخص وقضية (PROPOSITION) يمكن تحليلها منطقيا ، ولكنها كما يقول سورل : «ما يشكل ذاتية المتكلم نفسه» ، فالحالات القصدية هي مضامين تمثيلية تأتي على شكل موجهات (MODES) سيوكولوجية ، هي بمثابة خصوصية جوهرية للذهن البشري تعمل على الربط بين الحالة القصدية والأشياء التي تمثلها ، و يضيف هنا أن «كل حالة قصدية لاتحدد بشروطها الناجحة إلا بإقحامها داخل شبكة من حالات قصدية أخرى تكون الخلفية العملية (للمتكلم) قبل القصدية (اللحظية)»[5] ولا يمكن المرور من القصد القبلي إلى الفعل إلا عن طريق نظام سببي هام يؤدي إلى ذلك كما يستدرك سورل .

ومن هذا المنظور الجديد للدراسات التداولية للغة ، لم يعد الاهتمام منصبا على تحليل اللغة في ذاتها ولذاتها ، بما في ذلك الأدوات والآليات والمكونات الداخلية لنظام اللغة التي تحدد الطبيعة القضوية للقول (إنشاء وخبر) ، بل تم تجاوز هذه التقسيمات التي قيدت دراسات المناطقة التقليدين لفترة طويلة بمفهومي الصدق والكذب داخل الجمل الخبرية ، وهو ما دفع أوستين في كتابه[6] «نظرية أفعال الكلام العامة» للبحث عن هذه الاشكالات التي كانت تدور في فلك مغلق (الصدق والكذب) والخروج بنظرية جديدة تهتم بالانجاز ، حيث الاهتمام اصبح منصبا في الكلام على علاقاته بالوقائع الخارجية من جهة ، وبطبيعة الأدوات والمكونات الداخلية التي تشكل القول(إنجازي أو خبري) من جهة أخرى .

5- Dictionnatre critique de la communication 984 /87

6- نظرية أفعال الكلام العامة

وحين نتحدث عن الأدوات والمكونات لا تعنينا الأشكال التركيبية الجامدة (أو المنطقية الشكلية) ، ولكننا نريد إثارة إشكالية أساسية تتعلق بالتحول الخارجي والتأثير الذي يحدثه فعل القول على المتكلم أو المستمع ، انطلاقا من استعمال الأدوات والمكونات اللغوية باعتبارها تدخلا ذاتيا في القول المرتبط بالوقائع الخارجية للعالم .

1-1- الآليات اللسانية : وظائفها الحجاجية قديما وحديثا

انطلاقا مما راكمته الدراسات اللسانية القديمة والمعاصرة عربية وغربية والتي أكدت على دور اللغة (أدوات وألفاظا ، وروابط ونظم واستعمال) في عمليات التواصل والتداول الكلامي والعمليات الحجاجية ، يبدو ضروريا الوقوف على أهم ما جاءت به تلك الدراسات لتحليل الخطاب الحجاجي ، ومن هنا لا نرى أي تعارض على المستوى المنهجي بين المجهودات النظرية العربية القديمة بالخصوص ، والمناهيج النظرية المعاصرة ، لسببين إثنين :

أولا : لأن الأمر هنا يتعلق بالنسبة لنا بتحليل الخطاب الحجاجي ، وما تقتضيه خصوصيته التركيبية والدلالية والمعجمية من فهم عميق ، واستيعاب دقيق لمكوناته ، ذلك أن استعمال ووظيفة وغاية هذه المكونات ترتبط أساسا بخصوصية اللغة المدروسة (العربية) التي تحكمها شروط نظمية تداولية خاصة .

ثانيا : لأننا نوظف النظرية التداولية المعاصرة في تحليل القول الحجاجي باعتبارها الإطار المنهجي الذي اخترناه في دراستنا للخطاب الحجاجي .

فالقول باعتباره تركيبا لسانيا - يشبه الشكل المنطقي إلى حد ما[7] ، لا يمكن أن يتحقق فقط ، عن طريق العلاقة الداخلية بين مكونات اللغة ، بل يتم اللجوء إلى هذه المكونات من اجل إعطاء القول قوته الدلالية وملاءمته التداولية ، وإبراز خصوصيته الحجاجية ، ومن خلال هذه الجوانب التي تكون متفاعلة مع التركيب (أو النظم) يعبر المتكلم عن التمثلات الدلالية باعتبارها تمثلات منطقية تأخذ قيمتها من التمثلات المفهومية للحدث ومقتضيات السياق .[8]

7- Pertinence 340

8 - الإستعارات التي نحيا بها

1-1-1- النظم في اللسان العربي وآليات تشكله .

بلغ اهتمام الدارسين قديما وحديثا بقضية النظم درجة قصوى ، وأولوها مكانة خاصة في صناعة القول ، وجعلوا لها علما خاصا في الدراسات اللغوية والبلاغية أسموه «علم المعاني» وهو العلم الذي «ليس شيئا إلا توخى معاني النحو ووجوهه وفروقه بين معاني الكلم[9] ومن خلال ذلك يتبين أنه «إذا رفع معاني النحو وأحكامه مما بين الكلم حتى لا تراد فيها في جملة ولا تفصيل ، خرجت الكلم المنطوق ببعضها في إثر بعض» ، «عن أن يكون لكونها في مواضعها التي وضعت فيها موجب ومقتض»[10] ويبدو جليا مدى تقدم المقاربة العربية للتركيب اللساني أو «النظم» الذي يعد مكونا جوهريا في تحليل القول ، يتشكل من خلال أربعة أبعاد أساسية تؤدي وظائف مختلفة لكنها متناغمة نظما وهي :

أ- **الإتساق التركيبي** : هو الإحكام الداخلي للغة عن طريق قواعد النحو التي تقوم بإيضاح الفروق بين معاني الكلم .

ب- **التناسق الدلالي** : المتمثل في صلابة المعنى الكلي ، انطلاقا من معاني الكلمات المتجاورة معجميا (منتمية إلى نفس الحقل المعجمي) .

ج- **التلاؤم التداولي** : بأن يقتضيها موجب ومقتضى «أي أن المقتضيات المقامية تكون حاضرة في النظم ، حيث تلعب دور الملاءمة بين السياق الداخلي اللغوي والمقام الخارجي .

ذ- **الأثر الحجاجي** : يقوم النظم بتحريك انفعال المخاطب أو استمالته أو الدفع به نحو قبول فكرة معينة (الإقناع) .

إن هذه العناصر التي اعتمدها القدماء في تحليل القول انطلاقا من علم التركيب (أو النظم) . كانت تسير وفق تصورات حكمتها خلفيات منهجية ودواعي قولية يصعب تناولها وتوظيفها ككل لا يتجزأ ، إذ لا يمكن إعادة إنتاج القول بنفس الطريقة ، لتغير الظروف وتحول المفاهيم اللسانية التي

9- دلائل الإعجاز 525

10- نفسه 525-526

تعد دعامة في كل قول عربي وتطور الرؤى والانتظارات ، لذلك سنكتفي بعرض بعض المكونات والآليات اللسانية التي تفيد في تحليل الخطاب وتبرز أهدافه التداولية والحجاجية انطلاقا من بعض النماذج التحليلية العربية .

1-1-2- البعد التداولي للآليات اللسانية لدى الجرجاني

بلغ اهتمام الجرجاني في دلائل الإعجاز بعلم المعاني حدا لم تبلغه الدراسات اللسانية والبلاغية قبله ولا بعده ، وكانت نظرية النظم أساسا جوهريا في تحليل القول ، حيث ارتكزت على البعدين السياقي والتداولي ، انطلاقا من دراسة تركيبية محكومة بقواعد النحو الداخلي للغة ، ومتفتحة على الفصاحة والمجاز ، وهذه الازدواجية في النظم هي التي جعلت الدراسات النحوية تخرج من نطاق المقولات والنماذج وقواعد الإعراب داخل الجملة ، إلى المعاني السياقية التي تنتجها الأشكال التركيبية ، اعتمادا على الآليات والمكونات اللسانية(كالفصل والوصل والتقديم والتأخير والتعريف والتنكير والتأكيد . .) من جهة ، والمقتضيات التداولية من جهة أخرى ف«زيد المنطلق» لا تعادل «المنطلق زيد» ، فالتقديم والتأخير يلعب هنا وظيفة تداولية[11] معينة وليس فقط كما يقول النحاة «لأنه قدم للعناية ولان ذكره أهم»[12] .

وقد سلك الجرجاني في تحليله للقول مسلكا ابداعيا حيث أعطى للمقولات النحوية أبعادا تداولية ومعاني جديدة ووظائف تأثيرية (أو مؤثرة) غير تلك التي كررها وأطنب فيها النحاة القدامي والجدد على حد سواء ، سنقوم بمعالجة بعض النماذج القولية التي أوردها الجرجاني في الدلائل ، والتي تكشف عن ضعف التحليل بالمقولات النحوية وتبرز دور المكونات والآليات اللسانية ووظائفها السياقية والتداولية في القول ، وهي خطوة أولى لفهم قوة الكلام وتأثيره في الآخر ومدخل أساسي للحجاج .

---

11 - ننفسه 106-141

12 - ننفسه 108

أ- التقديم والتأخير :[13]

يأتي التقديم على وجهين ، الأول على نية التأخير كخبر المبتدأ إذا اخر عن المبتدأ «منطلق زيد» ، والثاني تقديم لا على نية التأخير ، ولكن على أن ينتقل الشيء من حكم إلى حكم ، كتقديم المفعول على الفعل فيصبح فاعلا : «زيد ضربته» ، ويكون الغرض الأساسي من التقديم لدى النحاة هو العناية «إنه قدم للعناية ولان ذكره أهم» التي تفقده بذلك قيمته التداولية ، ذلك لأن التقديم لا يأتي لإبراز الفائدة في الكلام أو عدم الفائدة فقط ، وانما يأتي لتمييز المعاني المختلفة التي تدور في ذهن السامع ، والتي يريد إيصالها إلى المستمع ، ومن أمثلة ذلك .

- الاستفهام بالهمزة في التقديم والتأخير في الفعل الماضي والفعل المضارع .

فالقولان» أفعلت» و»أأنت فعلت» يختلفان من حيث المعنى ومن حيث الوظيفة التداولية ففي : « أفعلت «كان الاستفهام على الفعل ، وهو يؤدي معنى الشك في الفعل نفسه وليس في الفاعل .

أما في «أفعلت» فالشك في الفاعل من هو ، دون أن يعرف هل تحقق الفعل أم لا ، بمعنى أنه ليس قولا إنجازيا ، اما في «أأنت فعلت» فهناك تقرير بالفعل من غير توهم بأن الحدث غير موجود(كما في القول الأول) بدلالة أن الفعل واقع ، وهو بذلك قول انجازي ، يؤدي معاني جديدة غير الاستفهام ، يقول الجرجاني[14] «وأعلم أن الهمزة فيما ذكرناه» أأنت فعلت» تقرير بفعل قد كان وانكار لما كان وتوبيخ لفاعله عليه» .

ويأخذ الاستفهام بالهمزة في التقديم معاني أخرى ذات بعد تداولي منها[15] .

13- ننفسه 106-110

14- ننفسه 114

15- ننفسه 115-118

- الإنكار : أأنت قلت الشعر؟ تنكر على المخاطب قول الشعر .
- النفي : أهو قال ذلك على الحقيقة أم أنت تغلط ؟ نفي القول عن الفعل .
- التسليم بالخبر ومطالبة المستمع بالدليل على خبره : متى كان هذا في ليل أم نهار؟

وإذا كان هذا شأن الاستفهام مع الفعل الماضي ، فان له شأنا آخر مع الفعل المضارع يلخصه الجرجاني من خلال تحليله للقولين : «أتفعل» و«أأنت تفعل» في قوله :[16] «واعلم أنا وإن كنا نفسر الاستفهام في مثل هذا (أأنت تفعل) بالإنكار فإن الذي هو محض المعنى : أنه ليتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعي بالجواب ، إما لأنه ادعى القدرة على فعل لا يقدر عليه ، فإذا ثبت على دعواه قيل له : «فافعل» فيفضحه ذلك ، وإما لأنه هم بأن يفعل ما لا يستوجب فعله ، فإذا روجع فيه تنبه وعرف الخطأ ، وإما لأنه جوز وجود أمر لا يوجد مثله ، فإذا ثبت على تجويزه قبح على نفسه وقيل له : فأرناه في موضع وفي حال ، وأقم شاهدا على انه كان في وقت»

وتبدو وجاهة هذا التحليل في إبراز المعنى الجديد والمقصود من خلال إثارته للآثار التداولية المتحصلة من هذه المقولة النحوية (الاستفهام في الفعل المضارع المؤخر) منها :

- **المعنى المقصود** : بتنبيه السامع حتى يرجع إلى نفسه وتقوية اعتقاده .
- **الآثار التداولية** : بادعاء المستمع على فعل لا يقدر عليه «أأنت تقول الشعر»
- رغبة المستمع في فعل شيء لا يستصوب فعله«انت تفتري على الناس»
- تجويز المستمع أمرا لا يوجد مثله «أأنت تصعد إلى السماء»

وكل هذه الأثار التداولية تأتي لإنكار فعل الفاعل ورده عليه .

* التقديم والتأخير في النفي[17]

يورد الجرجاني نفس التحليل في الأقوال التي تكون منفية ويكون فيها تقديم مثل : «وما فعلت «و»ما انا فعلت» مع الفعل والفاعل .

16- نفسه 119
17- نفسه 124-128

ففي القول الأول «ما فعلت» يكون المعنى هو نفي حصول الفعل ، أما في القول الثاني «ما أنا فعلت» فيكون المعنى هو نفي الفعل (الذي تم إقراره) عن الفاعل .

ونفس الشيء مع الفعل والفاعل والمفعول حين يقدم المفعول مثل : «وما ضربت زيدا» والمعنى نفي الضرب عن الفاعل» .

أما في : «ما زيدا ضربت» فيختلف المعنى هنا عن المعنى في القول السابق بأن الضرب قد وقع من طرف الفاعل ، لكن على إنسان آخر غير زيد .

* **الحذف :**

يقول الجرجاني[18] : ...«فما من اسم أو فعل تجده قد جذف ثم أصيب به موضعه ، وحذف في الحال الذي ينبغي أن يحذف فيها ، إلا أنت تجد حذفه هناك احسن من ذكره وترى اضماره في النفس أولى وآنس من النطق به» فالحذف كما يشير إلى ذلك الجرجاني لا يتم فقط كمقولة نحوية ، بل يأتي لدواعي قولية معينة ، ويتم كذلك الحذف في الموضع والحال الذي ينبغي فيه كي يؤدي المعاني التي تقتضيها الشروط التداولية ، حتى يصل تأثير القول الذي فيه حذف إلى تحريك نفس السامع . وسنقدم بعض النماذج القولية التي يتم فيها حذف إحدى مكونات الجملة .

-حذف المفعول مثل[19] :

- «ضرب زيد» والغرض من حذف المفعول ، هو إثبات الضرب للفاعل وليس وجوب الضرب في الفعل على الإطلاق .

- «ضرب زيد عمرا» : الغرض من ذكر المفعول هو رفع الالتباس في الضرب الواقع من الأول للثاني ، ووقوعه عليه واجتماعهما يدل على تخصيص المضروب (المفعول) .

ويكون حذف المفعول في القول لتأدية بعض المعاني التداولية نذكر منها :[20]

18- نفسه 152-153
19- نفسه 154
20- نفسه 154-155

أولا : إثبات معنى الفعل لا غير : «فلان يحل ويعقد ، ويامر وينهي «فالمعنى في القول إثبات الفعل في نفسه على الإطلاق وعلى الجملة ، من غير أن يتعرض للمفعول لاعتبارات سياقية تداولية أي أنه يحل كل شيء مهما كان صعبا .

ثانيا : حذف المفعول قصدا لدلالة الحال عليه وهو إما :

- جلي : أصغيت إليه (أي أذني) أو (أغضيت عليه أي الجفن)

- خفي : كذكر الفعل وحذف المفعول الذي يكون مكانه معلوما بدليل الحال مثل :

أ- «أن يفعل فاعل» وهو يؤدي معنى فعل سابق أو لاحق ، أي أن يفعل فاعل ما قاله أو ما يتبادر له من أفعال ، وذلك لأغراض تداولية معينة كالإهمال أو التحدي أو التجاهل إلخ . .

ب- «كان منك ما يؤلم» ومعناه أن المفعول ليس مرتبطا بالفاعل فقط ، وانما على الإطلاق أي ما يؤلم كل الناس وليس السامع فقط وذلك لأغراض يحددها السياق مثل : التذمر والاستياء .

ب- التعريف و التنكير في المبتدأ أو الخبر في الإثبات[21]

1- «زيد منطلق»

2- «زيد المنطق»

فالقول الأول موجه لمن لا يعلم أن انطلاق زيد قد حصل ، أولا يعرف من هو المنطق والقول الثاني موجه لمن يعرف أن انطلاقا قد حصل ، ولا يعرف من هو المنطلق (زيد او عمر) فيكون الإعلام بأن زيدا هو المنطلق دون غيره .

وفرق آخر بين القولين (1 و 2) وهو انه يمكن عطف اسم آخر في القول الأول فنقول «زيد منطلق وعمر» ولا يمكن إضافة إسم آخر إلى القول 2 ، لانه لا يصح إثبات الانطلاق لزيد وعمرو معا ، فلا نقول زيد المنطلق وعمر ، والجمع بين اسمين يكون في القول التالي :

21- ننفسه 177

3- «زيد وعمرو هما المنطلقان»

ويأتي ضمير الفصل في القول لتأكيد وجوب الانطلاق لزيد دون غيره كما في .

4- زيد هو المنطق » أو لتأدية معنى الجنس ، وله عدة وجوه[22]

الاول : قصر جنس المعنى على المخبر عنه لقصد المبالغة مثل :

5- «زيد هو الجواد»

أي كامل الجود ، إذ يوهم القول بان الجود لا يوجد إلا في زيد .

الثاني : قصر جنس المعنى على المخبر عنه على «دعوى» انه لا يوجد إلا منه ويكون مقيدا بمعنى يخصصه كالحال والوقت مثل :

6 - «هو الوفي وقت الشدة»

الثالث : إقرار المخبر عنه في جنس غير جنسه دون أن ينكره أحد ولا يشك فيه شاك مثل :

7- «رأيت بكاءك الحسن الجميلا»

عن طريق التعريف اصبح البكاء جميلا وحسنا وهو لا يكون من جنس الجمال والحسن ، لكن القول لا يعترض عليه ولا يشك فيه ، فقد أدى معنى تداوليا .

الرابع : تحصيل معنى جديد للمخبر عنه لم يسبق للسامع علمه مثل :

8 - «هو الرجل المشروك في جل ماله»

بمعنى كيف ينبغي أن يكون هذا الرجل حتى يستحق ان يقال عنه ، مشروك في جل ماله ، مما يدفع إلى التأمل في المخبر عنه .

وهناك اضرب أخرى للتعريف و التنكير تؤدي معاني تداولية (يراجع الجرجاني)[23] .

22- ننفسه 179

23 - ننفسه 182-201

ج - الوصل والفصل :

يقول الجرجاني[24] : «والفصل يكون إما للاتصال إلى الغاية أو الانفصال إلى الغاية والعطف لما هو واسطة بين الأمرين ، وكان له حال بين حالين» و يتم الوصل عن طريق أدوات وحروف لسانية كالواو وثم وحيث وحتى... وهي أدوات لا تقوم بالربط فقط ، بل تؤدي وظائف أخرى داخل القول ، فالفاء تقوم بالربط والترتيب في نفس الوقت و»حتى» لها وظائف متعددة هي الأخرى .

ويكون العطف في المفرد والجملة ،[25] ففي المفرد يتم إشراك الثاني في اعراب وحكم الأول ، أما في الجملة فيأتي على ضربين :

الأول : أن يكون للمعطوف على الجملة موضع من الاعراب ، ويكون حكمها حكم المفرد مثل :

- «مررت برجل خلقه حسن وخلقه قبيح»

الثاني : أن تعطف على الجملة العارية الموضع من الإعراب جملة أخرى مثل :

- اللّه زيد قائم وعمرو قاعد اللّه

فالواو هي هنا رابطة ، غير أنها لا تشرك الثانية في إعراب وحكم الأولى بوجه من الوجوه ، ويكون المغزى من هذا الربط في الغالب الزيادة في الاشتراك والاقتران مثل :

- «العجب من أني أحسنت وأسأت» بإفادة التعارض والتعجب .

أما الفصل فهو طريقة أو وجه آخر للوصل بدون حرف أو أداة ، وقد اجمله الجرجاني في ثلاثة اضرب بخصوص الجمل وهي :[26]

أولا : جملة لها مع التي قبلها ، حال الصفقة مع الموصوف والتأكيد مع المؤكد مثل :

24- ننفسه 243
25- ننفسه 243
26- ننفسه 243-244

- «جاءني زيد الظريف» .

ثانيا : جملة حالها مع التي قبلها حال الاسم يكون غير الذي قبله ، إلا أنه يشاركه في الحكم ويدخل معه في المعنى .

ثالثا : جملة ليست في جملة في الحالين ، بل سبيلها مع التي قبلها سبيبل الاسم لا يكون منه في شيء فلا يكون إياه ولا مشاركا له في معنى .

إن الوصل والفصل وباقي المقولات التي نذكرها هنا (الحصر والشرط والاستفهام...) والتي درسها النحاة والبلاغون العرب ، جعلتهم يقفون من خلالها على جوانب معينة ، ويغفلون جوانب أخرى ، فالجانب الذي فصلوا فيه القول هو ما يتعلق بالمعنى الجديد الذي تؤديه هذه الآليات والمقولات حين تخرج عن مقتضى ظاهرها ، وما يرتبط بالمعنى من سياق خارجي ، أو داخلي ، في علاقته بالسامع ، لكن دراستهم للسياق والسامع ظلت دراسة هامشية أو جانبية جعلت دراستهم تقتصر على حدود الجملة ومقولاتها النحوية والتركيبية وارتبط الأمر لديهم بإبراز المعنى في بعده الدلالي في المقام الأول .

غير أن الإشارات التي قدمتها الدراسات القديمة حول السامع والسياق كانت تسير في اتجاه تقوية المعنى المراد من (القران الكريم) ، وفي نفس الوقت اظهار ، اعجازه النظمي ، لكون هذه الدراسات كانت تنطلق من المعاني «الحقائق» بدل الانطلاق من المعاني الفرضيات ، حيث طوقت هذه الحقائق مناهج بحثهم بمفاهيم التفسير والتأويل التي تخدم المعطيات الموجودة قبليا ، بدل البحث عن الفرضيات الممكنة وتطويرها إلى فرضيات أخرى ، وهذا ما حاولته الدراسات المعاصرة ، في مقاربتها ، ومناهجها ، فأغنت بذلك حقل اللسانيات القديمة والمعاصرة بمجموعة من الآليات والأدوات التحليلية المتخصصة ، ونعني بذلك النظرية التداولية التي درست مكونات اللغة وآلياتها بطرق جديدة ، تجاوزت بها البحث عن المعنى وتقويته ، إلى افتراض معاني أخرى مرتبطة بسياق مفترض ومرتقب ، وبسامع ليس المطلوب منه قبول المعنى او رفضه ولكن بسامع مؤول ومتسائل في نفس الوقت .

ومن هذا المنطلق (أي النظرية التداولية) سنعمل على دراسة وظائف بعض الآليات اللسانية من منظور معاصر ، وسنركز على آليات الربط في التداوليات والحجاج .

1-1-3- الروابط اللسانية في التداوليات المعاصرة

فجرت الأعمال التداولية وتحليل الخطاب وتحليل الحوار في العقدين الأخيرين من القرن الماضي ميدان اللسانيات ، حيث اهتمت هذه الدراسات بكل المجالات المتعلقة باستعمال اللغة في التواصل والتداول والحجاج ، خصوصا اللغة التي يتواصل بها الناس أساسا فيما بينهم ، لتحقيق أغراضهم النظرية والعملية ، وكان من نتيجة ذلك أن توجهت الدراسات اللسانية نحو بنية الخطاب واستعمالاته الخاصة ، وأصبح ينظر إلى هندسة اللغة كموضوع للخلاف داخليا (تركيبا ومجازا) وخارجيا (إمكانية تحقق الفعل أو عدم إمكانية) [27] وفي هذا الإطار كان التركيز على بعض الآليات التي يتشكل بها القول(آليات الربط) والتي تؤدي عدة وظائف قولية بحيث تكون حاسمة في توجيه معنى القول وإمكانية تحققه أو إنجازه ، سنقوم بدراسة بعضها .

- الروابط الحجاجية

أعتبرت الروابط علامات تعطي الانطلاقة للتضمينات المتواضع عليها ، وهي علامات تتدخل على مستوى الوصف الدلالي للغة الطبيعية ، وهي لا تتعلق باستعمال نظام اللغة في الخطاب والتواصل فقط ، ولكنها تتعلق باستعمالات أخرى ، ذلك لأن مضمون الخطاب لا يحدد باعتباره مضمونا ثابتا ، ولكن باعتباره متغيرا ، فهذه الروابط تفرض قيودا دلالية على التأويل التداولي ، و يعتبر قيداً ذا طبيعة استدلالية ، ومن هنا يحقق الوصف اللساني بينة دلالية عامة ، في حين يقترح الوصف التداولي تأويلات تقترن

---

27 - Modélisation du dialogue P : 25

بطبيعة هذه الروابط (القيود الاستدلالية)[28] ، وهذا التعريف الذي حدد به التداوليون الروابط ، يتجاوز التحديد المنطقي الذي يحصر دور الرابط في اللغة الصورية وفي تحديد قيم وشروط صدق القضية ، وهو ما أثار رد فعل فلاسفة اللغة والمناطقة التداوليين حول التعاريف التقليدية ، ذلك لان الرابط في اللغة الطبيعية لا تكون وظيفته واضحة وشفافة في الاستعمال ، كالوصل والفصل في المنطق والأمثلة التالية تبين غنى الروابط في اللغة الطبيعية :

1- زيد ذكي ومشاغب .

2- زيد مشاغب وذكي .

3- زيد ذكي لكنه مشاغب .

4- زيد مشاغب لكنه ذكي .

ففي التحليل المنطقي نجد رابط الوصل (^*) لا يميز الاختلافات الدلالية الموجودة بين الأقوال الأربعة لأن الوصل في المنطق تبادلي«زيد ذكي ومشاغب» .

أي زيد ذكي ^ مشاغب = مشاغب ^ ذكي (وهناك حالات أخرى للتبادل) .

غير أن التحليل التداولي للرابط يبرز الفروق الموجودة بين الأقوال وخصوصا مع الرابط (لكن) في القولين الأخيرين ف«زيد ذكي لكنه مشاغب» يختلف أو قل يتمايز منطقيا عن «زيد مشاغب لكنه ذكي» .

حيث يفيد الرابط في القولين الأخيرين الاستدراك والتعارض التداولي ، والقولان 3 و4 يقدم كل واحد منهما معطيات مختلفة عن الآخر ، تستوجب وصفا لا ينتمي إلى مجال الصدق والكذب بل يتعلق بوصف تداولي مقيد بقيدين :

أ- قيد يتعلق بالحجج المقدمة .

ب- قيد مرتبط بالسياق المتعلق بالأقوال .

وانطلاقا من ذلك نحلل القولين 3-4 :

---

28 - Ibid P: 7-8 (*8) تعني الوصل في المنطق

3 - زيد ذكي ، لكنه مشاغب .

زيد مشاغب لكنه ذكي .

في القول (3) يبدو أن هناك إقرار بأن» زيد ذكي «مما يعني أن لا أحد ينفي صفة الذكاء عنه (وهو القيد أ) و»لكنه مشاغب») وهو القيد ب (يجعل الإقرار الأول (أي زيد ذكي) غير ذي أهمية ، أو قل يجعله منفيا تداوليا ، لذلك فالموقع الحجاجي) لذكاء زيد (يعتبر ضعيفا ، أما الموقع الحجاجي «مشاغب» فيعتبر قويا ، وبذلك يقود السياق القولي في القول 3 إلى اتجاهين :[29]

الإتجاه الأول : إذا كان السياق يتطلب الشغب فإن ذكاء زيد يكون مؤكدا ومدعما كحجة في السياق المطلوب .

الإتجاه الثاني : إذا كان السياق يتطلب الذكاء فسيكون الشغب ضعيفا كحجة في القول ، ومخالفا للسياق المطلوب .

أما في القول 4 : فتتبادل مواقع الحجج والقيود بالنسبة للقول 3 وتختلف معانيه عن معاني القول 4 .

- التحليل الحجاجي للرابط .

يتم تحليل مجموعة من الظواهر الدلالية والتداولية في اللغة انطلاقا من خصائصها الكمية ،[30] ويعني ذلك ان القول يقتضي وجود علاقات ضمنية بين مكوناته ، مما يتطلب وصف هذه العلاقات التي تمثلها بعض العناصر الرابطة (مكممات ، روابط ، تراتب) ، لذلك ارتبطت فكرة الحجاج لدى ديكرو (80-83) أساسا بمفهوم السلم الحجاجي الذي تشكل الروابط المنطقية (أو العلامات اللسانية) درجاته ، وهذه العلامات هي عبارة عن مداخل معجمية ، لها خصائص جوهرية في القول تربط بين سلم حجاجي موجه نحو كم معين ، وبين سلم موجه نحو أنواع النتائج المطلوبة فالسلم الأول يوافق ما هو كمي ، والثاني يوافق ما هو حجاجي .[31]

---

29 - Ibid P: 7-8 (*8) تعني الوصل في المنطق

30 - Ibid P: 11-12

31 - Dictionnaire Encyclopédique de la pragmatique 277

إن السلم الحجاجي لدى ديكرو هو فئة حجاجية موجهة ، فهي أولا تمثل السلم الحجاجي المحدد بنتيجة (ن) والحجج(م وك) وهي ثانيا تعمل على تناسب القوة الحجاجية للقول ، انطلاقا من العلامة اللسانية (أو الرابط الحجاجي) الذي يجمع بين فعلين كلامين (حجاجين) وهي على الشكل التالي .[32]

ن ← نتيجة

ك ← حجة 2 أي فعل كلامي 2

م ← حجة 1 أي فعل كلامي 1

نماذج من الروابط الحجاجية : (أيضا ولكن)

1- الرابط أيضا :

يشير الرابط في القول الحجاجي إلى القوة الحجاجية وذلك بالجمع بين متواليتين داخل القول(ب) و(ج) تنتميان إلى نفس السلم الحجاجي ، وتكون (ج) ذات قوة حجاجية

اكثر من (ب) يتضح على الشكل التالي :

(ن) ←

(ج) ←

أيضا ←

(ب) ←

ومثال ذلك :

1-زيد حاصل على دبلوم الدراسات العليا وأيضا الدكتوراه .

2*- زيد حاصل على الدكتوراه وأيضا دبلوم الدراسات .

فالرابط (أيضا) في القول الأول يجمع بين متواليتين الأولى ضعيفة والثانية قوية ويؤكد قوة النتيجة الحجاجية (ن) ، أما الرابط في القول الثاني ، فلا يؤدي وظيفة حجاجية لان الدكتوراه هي أعلى مستوى من الدبلوم .

---

32 - Ibid . 281

* هذه العلامة تعني عدم المقبولية الحجاجية .

أما القول 3 :

3- زيد حاصل على الدكتوراه وأيضا يحب زوجته

فالرابط هنا قد لا يصح في قول حجاجي أو حتى قول تداولي .

2 - الرابط لكن :

يمثل هذا الرابط في القول الحجاجي من جهة علاقة القوة الحجاجية ، ومن جهة أخرى ، تعارضا حجاجيا (وهو مخالف للرابط أيضا) وعلاقة القوة الحجاجية تفترض انه إذا كانت هناك حجة (ب) تنتمي إلى فئة حجاجية محددة بنتيجة (ن) فان هناك حجة (ج) تنتمي إلى فئة حجاجية محددة بنتيجة (لا ن) .

وحين يكون قولان (ب)و(ج) منتميان إلى نفس الفئة الحجاجية ، نقول بانهما موجهان في نفس الاتجاه الحجاجي ، وحين يكون لهما اتجاه حجاجي معاكس نقول

انهما ينتميان إلى فئتين حجاجيتين متعارضتين : نمثل لهما بالشكل التالي وبالأمثلة التي تليهفي النفي والإثبات .

(ن) ↑ (ب)　　(لا ن) ↑ (ج)

1 -أنا في مكانك لن اسند هذا العمل لزيد : إنه كفء لكنه مشاغب .

2- أنا في مكانك لن أسند هذا العمل لزيد : إنه مشاغب لكنه كفء (غير صحيحة)

3- أنا في مكانك أسند هذا العمل لزيد : إنه كفء لكنه مشاغب (غير صحيحة) .

4- أنا في مكانك اسند هذا العمل لزيد : انه مشاغب لكنه كفء .

القول 1 في النفي : إن النتيجة فيه هي عدم إسناد العمل لزيد ، والحجة «مشاغب» تتجه نحو النتيجة وهي في نفس الفئة الحجاجية)عدم إسناد العمل

لزيد) ، في حين أنه «كفء» حجة لا تتجه نحو النتيجة (عدم إسناد العمل لزيد) وبالتالي فهي ليست من نفس الفئة الحجاجية .

القول 4 في الإثبات : أن النتيجة فيه هي إسناد العمل لزيد بالرغم من شغبه وهي حجة خارج الفئة الحجاجية للنتيجة ، لأن زيد كفء وكفاءته تقوي العلاقة الحجاجية وتنتمي إلى نفس الفئة الحجاجية إسناد العمل .

أما القولان 2 في النفي و3 في الإثبات فهما غير مقبولين حجاجيا أي حسب السلم الحجاجي .

- الرابط «لكن» في علاقته ببعض الأسوار اللسانية (المكممات)

تطرح إشكالية أخرى حين يتم اللجوء إلى الرابط «لكن» في القول مع إدخال الأسوار على المتواليات القولية مثل :

1- لدي بعض المال لكنني لست جائعا .

2- لدي قليل من المال لكنني جائع

فالمتوالية الأولى «لدي بعض المال» موجهة نحو فئة النتائج من نوع : «أستطيع أن أؤدي الثمن» ، والمتوالية الثانية موجهة نحو فئة مضادة من النتائج من نوع : «لا أرغب في الأكل» فالقول ككل لا يمثل قوة حجاجية موجهة نحو نتيجة معينة ، نظرا للتعارض الذي يحدثه الرابط «لكن» بالإضافة إلى النفي مع السور البعضي «بعض» ويمكن إبراز ذلك على الشكل التالي :

[بعض] لكن + ليس [⟵]

فئة+ فئة-

فيكون القول الثاني مخالفا للقول الأول :

فالمتوالية الأولى في القول 2 «لدي قليل من المال» موجهة نحو نمط من النتائج من نوع : «لا أستطيع أداء الثمن» ، والمتوالية الثانية «لكنني جائع» موجهة نحو «ارغب في الأكل» وهذا التحليل الحجاجي للقولين 2-1 يؤدي إلى إمكانية قبولهما بالرغم من أن توجيههما متعارضان ، لأن هذه الروابط وهذه الأسوار في القول الطبيعي تقوم بوظيفة توجيه الحجاج نحو نتائج متداولة من غير إحداث تعارض .

2- الأليات المنطقية الحجاجية : البنيات الإستدلالية الداخلية وبنيات الواقائع الخارجية

1-2- البنيات الإستدلالية الداخلية :

يشترك الجنس البشري فطريا في استعمال عدة آليات منطقية وغير منطقية في انشاء الكلام وتأويله ، انطلاقا من تجارب الافراد وتفاعلالهم مع محيطهم الخارجي ، ولولا امتلاك الجنس البشري لهذه الآليات ما كان ليحصل بينهم تفاعل وما كان ليتم بينهم تواصل لساني ، وكلما افلح الفرد في اختيار ما يناسب من هذه الآليات كان لخطابه وقع على مخاطبيه : استمالة او اقناعا او امتاعا... . اذ تعمل جميعها (إذا أحسن استعمالها) على تسريع عملية تعديل موقف ، أو تغيير سلوك ، أو الدفع الى عمل ، أو تغييرنظرة تجاه موضوع ، أو حدث ، أوشخص ، أو فكرة .

ومن خلال التجارب اليومية وقف الانسان على مجموعة من العلاقات (بفضل الآليات التي يستخدمها) التي تمس حقولا معرفية متنوعة ، نفسية وثقافية واجتماعية وسياسية وعلمية... كانت وراء استخلاص قواعد تهم كل المجلات التي تدخل في نشاط الإنسان ، انطلاقا من اللغة التي يستعملها والتي تعينه على بلورة تلك القواعد ، حتى يتسنى له استعمالها في مجلات أخرى ، إلى درجة أن بعض الدارسين اعتبروا القواعد الصورية والطبيعية مستمدة من اللغة ذاتها[33] ، بحيث تجسد اللغة هذا التفاعل الحاصل بين قدرات الانسان وعناصر الطبيعة وكياناتها .

وإذا صح ان اللغة هي مادة الحجاج صح معها أن الفكر هو الآلة التي تقوم بتحديد المبادئ والقواعد داخل انساق تصورية ، تعبر عن العلاقات التي تنتظم تلك المبادئ والقواعد ، كما نجدها في تحليل الخطاب العادي للمتكلمين .

وهكذا فأيا كانت الآراء التي تصاغ باللغة فإنها جميعا تخضع لنفس قوانين الفكر ولنفس مبادئ المنطق ، وكما تستخدم اللغة للتعبير عن الآراء

33 - Logique et connaissance scientifique P : 381

المختلفة فإن الآراء المختلفة تستخدم هي أيضا نفس قوانين الفكر والمنطق «ومن هنا فإن الآراء الجديدة لا تولد منطقا جديدا كما أنها لا تولد لغة جديدة . »[33]

- البنية التصورية للمفاهيم الحجاجية :

كل بنية لغوية (دلالية تركبية حجاجية) موضوعة بالطريقة التي ينظم بها الذهن التجربة عن طريق الجمع بين مستويين أولين : مستوى الواقع النفسي ، ومستوى علاقته بإنساق معرفية ادراكية اخرى ، وبين مستوى البنية التصورية[34] التي تنسجم فيها المعلومات اللغوية والحسية والحركية ، حيث يستخلص منها الذهن قوانين عامة ، منطقية رياضية علمية اجتماعية إلخ... وهكذا فالبنية التصورية لا تقف عند حد اللفظ ، بل تتعداه إلى ما يمكن أن يربطها بغيرها من الألفاظ والتصورات ، بواسطة العلاقات الممكنة تلك التي ينسجها الفكر مع واقعه الإدراكي ومحيطه التجريبي والثقافي . وحسب هذا التصور فإن النظرية الدلالية للغات الطبيعية ليست سوى جزء من نظرية عامة للبنية التصورية .[35]

2 - 2 - القياس آلية لتوليد الخطاب الطبيعي .

2-2-1- مفهوم القياس :

أرجع أرسطو العمليتين الأساسيتين في العلوم : الاستقراء والاستنباط ، الى الخطوات القياسية التي انتجت البرهان وانتجت بطريقة معكوسة الإستقراء[36] ، ومن هنا كان المشتغلون اليونان في الحقل العلمي يتحدثون عن البرهان لاعن القياس ، لأن البرهان هو قياس الضرورة والإستقراء عكس ذلك ، وما لبث أن تم الاعتراف بالقياس لكن خارج الميدان العلمي ، أي في الاستدلال الجدلي والاستكشافي ، حيث استعيرت صورة القياس من البرهان لكي تكون أداة استدلال بواسطة عناصر اللغة الطبيعية ، نظرا لكون القواسم المشتركة بينها واضحة ، يمكن ان يفهمها الجميع ، وهو مايعرف بقياس الشمول او الضرورة ،

33- مدخل إلى المادية الجدلية
34- اللسانيات واللغة العربية
35- نفسه 2 / 182
36 - Raisonnement 137

بحيث يفيد شيئا لايتصور غيره ، ذلك لان طبيعة البرهنة القياسية تقوم على الكلي ، والكلي هو نقطة البدء الذي ننتقل منه (في عملية الاستدلال القياسي) إلى الجزئي ، وهو ما يعطي للبرهنة القياسية السهولة واليسر والقوة[37] . وبهذا حصر المنطق اليوناني الاستدلال في القياس الحملي ، مما جعل العلاقة المنطقية تقوم فيه على مبدأ التداخل ، الذي يقضي باندراج اجزائه بعضها في بعض ، ويجعل العناصر التي تدخل فيها لا تتجاوز ثلاثة الشيء الذي يجعل النتيجة في القياس ترجع إلى ما وضع في المقدمتين ، بناء على تصور نظري ، ينطلق من أن الترتيب بين المقدمة والنتيجة في البراهين ، هو صورة للترتيب بين الأشياء وآثارها ، أي أن العلاقات التي تنتظم التصورات والقضايا هي ذاتها العلاقات التي تنتظم الموضوعات والوقائع[38] .

وقد تنبه ارسطو في هذا الإطار الى أن هناك ضرورة منطقية تربط المبادئ (أو المقدمات) بالنتائج ، فترغم السامع اذا ما اعترف بمقدمات معينة على قبول النتيجة ، إلى درجة لايكون في حاجة الى طلبها[39] ، كما سجل في سياق البرهان الجدلي أن مقدماته غير يقينية ولاتتقيد بالشروط التي يتقيد بها القياس البرهاني ، مما مهد لظهور القياس الاضماري ، كما أكد ذلك روبريو ، وهو القياس الذي عرف بأنه قياس مؤسس على مقدمات ظنية ، تتعرض غالبا للحذف ، إما لجلائها ووضوحها او تحاشيا لذكرها لاعتبارات مقامية[40] ومع ذلك ظل القياس الارسطي يتقيد بالانطلاق من الجوهر ليستدل على العرض ، وفق صورة قياسية قوية ، إذ بمجرد ما نضع فيها اقوالا ينتج عنها بالضرورة قول آخر او نتيجة تتخذ من الحدس نقطة البدء[41] مثل :

-زيد فان .

37- المنطق الطبيعي 349

38- تجديد المنهج في تقويم التراث . 325

39- المنطق الطبيعي . 349

40 - Les éléments de rhetorique et d'argumentation P : 34

41 - المنطق الصوري . 380

إذ يرجع حمل «فان» على زيد إلى كونه ينتمي إلى النوع الإنساني ، دون أن تضيف النتيجة شيئا جديدا ، وكما يقول ديكارت القياس الأرسطي «يشرح للآخرين الأشياء التي يعلمونها ، إنه فن يؤكد ما هو معروف ويرسم ما هو مرسم»[42] فهو عملية تستند الى حقيقة مباشرة لكي تصل الى حقيقة غير مباشرة تكون ثابتة وصادقة بل ازلية كما في البرهان العلمي .

غير أن ارسطو خرج في كتاب الخطابة ، من البحث المنطقي المحض أو بالأحرى من القياس الصوري ، الى البحث في علاقة القول بالأخلاق والسياسة والجدل والقياس الإضماري الذي يحكم الخطاب الطبيعي ، وهو ما يخالف المبدأ القائم على الضرورة في الصورة القياسية ، والإضطراد في النتيجة ،[43] ذلك لأن المسألة الجدلية لدى أرسطو هي مسألة يكون منتهاها هو اختيار سلوك أو الانصراف عنه أو اكتساب حقيقة أو معرفة .

2-2-2 - القياس آلية لتوليد الخطاب الطبيعي :

لما كان القياس في صورته البسيطة مرتبطا بنقل الصفات او اثباتها او نفيها سواء تعلق الامر بالقول المجازي أو القول الحقيقي ، استحق ان يكون بالفعل آلية تشتق بها الاقوال بعضها من بعض ، وتتألف بعضها ببعض لتكون تراكيب مقبولة ومتسقة ومرتبطة فيما بينها ، إنها آلية تشتغل إلى جانب آليات اخرى في تثبيث وإلحاق الصفات ، كما تتحكم في بناء الخطاب اعتمادا على دواعي فكرية أو لسانية أو حجاجية أو تداولية .

بناء على ذلك يمكن القول بان القياس آلية أساسية من آليات الذهن البشري ، تقوم بالربط بين شيئين على أساس جملة من الخصائص المشتركة بينهما ، للوصول إلى استنتاج ما ، بألفاظ فيها شيء من الالتباس والاشتراك[44] ، بناء على أن القياس يقوم على التجربة التي ينطلق منها المتكلم لتشكيل صورة استدلالية ، كما يقول الغزالي : «المدركات الاولى للانسان في

---

42 - نفسه 522

43 - أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم . 112

44 - في أصول الحوار ص 97

مدار فطرته ، حواسه ، فكانت مستولية عليه... من جملتها الإبصار الذي يدرك الألوان بالقصد الأول ، والأشكال على سبيل الاستتباع ، ثم الخيال ينصرف في المحسوسات ، وأكثر تصرفه في المبصرات ، فيركب من المرئيات أشكالا مختلفة ، فإنك تقدر أن تتخيل فرسا له رأس إنسان ، وطائرا له رأس فرس ، فلا تزال تركب من آحاد ما شاهدت . . لأن الخيال يتبع الإبصار»[45] ، يبين الغزالي هنا أن الآلية البصرية تقوم بدور مركزي في تشغيل الآليات الأخرى كالخيال والإستقراء والتشبيه ، وذلك بتقديم المعلومات الضرورية الحسية والحركية المتفاعلة مع المعلومات الأخرى ، والتي يكون مصدرها السماع أو الخيال أو شيء آخر ، ومجموع هذه العمليات هي التي تستحضر في آليات القياس والآليات الفكرية الأخرى ، ذلك لأن القوانين العلمية والمنطقية كما يؤكد غونزيت[46] مرجعها الى أصول التجربة الطبيعية للإنسان ، فمبدأ الهوية ومبدأ عدم التناقض ، ومبدأ الثالث المرفوع وكل الاستدلالات العقلية الأخرى يمكن ردها إلى القوانين التي تنتظم العلاقات بين الموضوعات ، أيا كانت ، حتى أن أصول المنطق تبدو وكأنها بمنزلة نظرية تمهيدية للعقل الإنساني[46] .

2-2-3- القياس الطبيعي :

يمكن القول بأن القياس الطبيعي هو أغنى وأكثر إجرائية في اللغة من القياس الصوري البرهاني وأنه لاوجود في الخطاب الطبيعي للإستنباط المنطقي والإستقراء التجريبي بالمعنى الذي تحدده المعرفة العلمية[47] ولذلك فإن القياس الطبيعي يصبح اكثر ملاءمة للاستدلال اللغوي اذ به يتماسك الخطاب وتتركب القضايا فيما بينها لتنشئ قطعا خطابية موحدة[47] .

- وظيفة القياس في اللغة الطبيعية

من الواضح ان بنية الاستدلال التي يستعملها متكلم اللغة ليست تماما هي بنية القياس الصوري ، ذلك أن مستعملي اللغة لايستدلون بالمعنى الشكلي ،

45 – معيار العلم ص : 61
46 – تجديد المنهج في تقويم التراث
47 – اللسان و الميزان 290

بل يستدلون بمقدمات يختارون إظهارها حسب ما تقتضيه مقامات القول ، أو عدم إظهارها ، اعتمادا على ذكاء القارئ او لاعتبارات تداولية اخرى ، فقد يسخرون من بعض المقدمات أو النتائج ولا يأهبون بها . إنهم يستدلون بصفة سليمة في كثير من الأحيان دون أن يستعملوا لهذه الغاية قواعد المنطق الشكلي ، لانطلاقهم مثلا من مقدمات احتمالية مقبولة كما هي : إما لأنها واضحة وهو قليل ، أو لأنها قبل ان تكون مقبولة كانت موضوع حجاج[48] .

على أن متكلمي اللغة لايتبعون خطوات القياس الصورية في الخطاب اليومي ، فقد يتركون ذلك لبعض الحالات الخاصة التي تدعو الى استعمال شكل القياس الكامل أو الجزئي ، وكيفما كان الخطاب ، فليس من الضروري معرفة القياس ، من أجل التفكير ، كما أنه ليس من الضروري معرفة اللسانيات من أجل الكلام ، ولامعرفة القوانين الموسيقية لممارسة الغناء[49] فالمتكلم حين يقول مثلا : «الإنسان فان» لايستحضر مقدمتين وقياسا لأن ذلك مما هو معلوم كنتيجة للتجربة . فالخطاب عادة لا يهدف إلى الوقوف فقط على هذه النتيجة إنه يعرضها ويقدمها من اجل هدف تداولي حسب مقام القول الذي قد يكون وعظا او إرشادا أو تنبيها... إن ما تخفيه اللغة هو ما يظهره أرسطو في قياسه الكامل وما وضعه من قواعد صورية ، أصبحت أدوات إجرائية برهانية في إطار نظرية الإثبات والماهية ، المرتبطة بالعلوم والصناعات التي لاتستطيع ان تنتج حقيقة من الحقائق اذا لم تتوافر مادة هذه الحقيقة كما يقول ديكارت[50] .

لقد اراد ارسطو من وراء هذه القواعد الصورية ان يحصر القياس داخل الفكر ، ليصل الى قواعد تسلم بها كل العقول[51] ، بغض النظر عما تشير اليه هذه القضايا من واقع خارجي خاضع لتجربة الإنسان أو فطرته .

ومن هنا يتأكد اعتقادنا بأن آلية القياس تمتلك تقريبا نفس الوظائف التي أسندتها النظرية المعرفية لآلية الاستنباط ، ويتأكد لنا أيضا ان الآلية الاستنباطية

48 – Essais sur l'argumentation 172

49 – Introduction à la logique et l'argumentation P : 1-12

50 – المنطق الصوري . 500

51 – اللسان و الميزان . 278

وحدها دون آلية القياس لا يمكن أن تقوم بوظيفتها في تحليل الخطاب وتأويله ، وفق مقتضياته وأبعاده المختلفة على أحسن وجه ، إلا باعتبارها ميكانزما آليا تعمل وفقه آلات الذكاء الميكانيكية ، أما الذهن البشري فهو أعقد وأغنى من الآلة بكثير ، إذ يمكنه المزاوجة بين القياس والاستنباط دون أدنى صعوبة أو تعارض .

2-3- البنيات والوقائع الخارجية في الحجاج : النموذج والشاهد والمثل والتمثيل :

هي بنيات مستمدة من الواقع الماضي ، بما يختزنه من تجارب إنسانية وأحداث تاريخية أو شخصية تترجمها الحِكَم والأمثال والحكايات والكنايات وغيرها ... تكون معروفة من قبل ، و ذات قيم مجتمعية ، تحظى باحترام واهتمام الأفراد والجماعات ، تستخدم داخل القول الحجاجي للإقناع ، بما تقدمه من تصور وتجريد للأشياء والأحداث وما تتضمنه من مشابهة يستدعيها سياق القول الحجاجي ، نظرا لما تحدثه هذه البنيات من تماثلات عامة بينها وبين الأهداف من إدراجها وسوقها ، وهي بذلك تدخل في إطار التمثيل الحجاجي المستخدم في القياس الإضماري ، شريطة أن يكون توظيفها في الحجاج توظيفا محكما حتى لا تفقد طاقتها و قوتها الإقناعية ، كما تختلف توظيفاتها في الحجاج حسب الخصائص المميزة لها ووفق الضرورة السياقية أو المقامية .

المثل : EXEMPLE

هو وسيلة ناجعة للتعبير عن القيم والحقائق التي تختزل التجارب الانسانية ، وهو نوع من الاستدلال يقوم بنقلة نوعية من خلال الجمع بين الاستقراء والمشابهة عن طريق الحدس ، حيث يستعمل كقيمة رمزية أو بمثابة مسلمات قيمية تستجيب للقضايا المطروحة ، عن طريق المرور من العام الى الخاص أو العكس ، بهدف التدليل على قضية ما أو المساهمة في تأسيس قاعدة خاصة تكون بمثابة حالة مجردة تجعل المستمع يستند خلالها الى أطروحة معينة .[52] كما يتضح في المثل التالي :

52 – Traité de l'argumentation

يداك أوكتا وفوك نفخ : وهو يعني أنك المسؤول عن قضيتك (وهي حكاية تاريخية تمثل تجربة معينة لشخص مسؤول عن فعله) . ويتبين أن الهدف من المثل هو تقوية درجة التصديق بقاعدة او فكرة او اطروحة معلومة ، تقدم ما يوضح القول العام ويقوي حضوره في الذهن .

وكان أرسطو قد اجري المثال على وحدات قولية تشترك في قيامها ، على علاقة المشابهة بقصد الاخبار عن الأحداث التي وقعت لتأكيد موضوع القول . وقد وجد هذا التوظيف امتدادا واسعا داخل الخطابة العربية ، حيث يرجع الخفاجي اساس المثل إلى كونه : «ماثل في خاطر الانسان ابدا وشاخص ، وأعون شيء على البيان»[53] ، وفي نفس السياق يؤكد الزمخشري «أن الامثال هي زيادة في الكشف وتتميما للبيان ، تضرب العرب الأمثال لإبراز جليات المعاني ، ورفع الأستار عن الحقائق ، حتى تريك المتخيل في صورة المحقق ، والمتوهم في صورة المتيقن ، والغائب كأنه مشاهد ، وفيه تبكيت للخصم ، وقمع لسورة الجامح الأبي .»[54] ويكون الغرض منه كما يقول السيوطي «تصور المعاني بصورة الاشخاص لانها اثبت في الاذهان ، لاستعانة الذهن فيها بالحواس ، ومن ثم كان الغرض بالمثل تشبيه الخفي بالجلي والغائب بالمشاهد .»[55]

النموذج (Modele) والنموذج المضاد (Antimodele) :

هو وسيلة تعبيرية مؤسسة على حجة السلوك باعتبار السلوك قدوة تستوحى من الاشخاص أو الجماعات أو الأفكار أو المذاهب... تؤكدها قيمة الأفعال ، وذلك لميل طبيعي في الناس نحو الإقتداء بنماذج معينة . حيث تعتبر في القول الحجاجي مقدمات تستخلص منها نتائج معينة تؤدي إلى امتداح سلوك خاص ، يمتلك بعض مظاهر التميز (إذ لايمكن الاقتداء بأي كان) .

إن النموذج لايصلح فقط لتأسيس او بلورة قاعدة معينة كما في المثال والشاهد ، بل يدفع إلى فعل شيء مستوحى من النموذج ، لوجود سلوكات

53- البرهان في علوم القرآن 1/ 417
54- الكشاف 1/ 204
55- الإتقان في علوم القرآن 2/ 67

عفوية للاقتداء في الإنسان ،[56] لذلك غالبا ما تكون النماذج الجيدة وراء تشكيل سلوك وثقافة الافراد ، والجماعات ، والأوساط ، والحقب ،انطلاقا من الطريقة التي تتصور بها هذه النماذج والكيفية التي تتحقق بها ضمانا لقيمتها .

كما يمكن اعتبار النموذج المضاد (أو مخالفة النموذج) نموذجا كذلك يستعمل ايضا كتقنية في الخطاب الحجاجي ، ويكون أكثر فعالية ، حيث يفقد النموذج الأصلي قيمته وفعاليته ، ويحوله في مجالات مقامية معينة الى الهزأ أوالهزل أوالسخرية... كما في المثال الذي اورده برلمان :[57]

حين قال الأب لابنه الكسول : في مثل سنك كان نابليون على رأس الفصل الذي يدرس فيه .

فرد الإبن : وفي مثل سنك كان نابوليون إمبراطورا .

وقد ينتقل النموذج في بعض الأحيان من الاقصى الى الأقصى أي من نموذج اليمين المتطرف إلى نموذج اليسار المتطرف ، كنماذج بعض الرؤساء الذين انتقلوا من اقصى اليمين الى اقصى اليسار او العكس ، حيث اعطاهم التاريخ الامتياز في ذلك ، مؤقتا كـ «استالين «و»غورباتشوف» ، و»عمر بن الخطاب» .

الشاهد : Illusration

هو طريقة تدور حول تقوية وتأكيد الأطروحة موضوع القول ، وذلك بإعطائها مظهرا حيا وملموسا ، إذ لايتعلق الأمر بالتدليل ، بقدر مايعمل الشاهد على تحريك المخيلة ، وهذه الطريقة لاترتبط بالضرورة بحقيقة الشاهد ،[58] وإنما يتجاوز شكلها الحجاجي الإطار اللغوي ، ليرتبط بالمقتضيات التداولية . وإذا كان استعمال الشاهد يقوم على تجسيد الفكرة باستحضارها في صورة شاخصة ، فإن الغاية منه لاتكمن فقط في تعويض المجرد بالملموس ، وتبديل أو نقل الاطروحات من مجال الى مجال آخر ، -كما هو الشأن في المثل أوالتمثيل- وإنما تكمن أساسا في تقوية الفكرة وتأكيد

- 57 Traité de l'argumentation 488
-58 Ibid 425
-58 Eléments de rhétorique et d'argumentation P : 48
- 59 Traité de l'argumentation 481

حضورها في الذهن ،[59] ولهذا فإن اختيارالشاهد يخضع لمعايير تقتضيها الشروط المقامية التي تجد لها صدى شعوريا وعاطفيا لدى المخاطب ، فتقوم بدور المحرك لخياله وتفرض عليه الانتباه وتسهل عليه عملية الفهم[60] مثل :

«إن الدول الغربية متقدمة ككل الدول التي تحترم حقوق الإنسان وقواعد الديمقراطية» ، وهكذا يظهر أن القاعدة العامة التي تحكم الشاهد هي قاعدة الإضمار) أي أن إحدى مقدمات القول مضمرة (فالدول التي لا تحترم حقوق الإنسان و قواعد الديمقراطية لن تحقق تقدمها ... على أن يفترض في المتكلم والمستمع «أن يكون له معرفة سابقة بالشاهد المقصود وقدرة على تصوره بيسر ودراية بوجود أثره في مجال التداول» .[61]

والشاهد حسب الجاحظ يستمد طاقته من العيان والمشاهدة «وهو استشهاد على شيء ما بقرآن أو حديث أو شعر أو مثل أو خبر مروي بهدف إثباته أو انكاره أو الاحتجاج له أو بطلانه أو نحو ذلك» [البيان والتبيين 86/ 1] .

التمثيل : ANALOGIE

هو طريقة حجاجية تعلوقيمتها على مفهوم المشابهة المستهلك ، حيث لايرتبط التمثيل بعلاقة المشابهة دائما ، وإنما يرتبط بتشابه العلاقة بين أشياء ماكان لها ان تكون مترابطة[62] أبدا ، ومن ثمة اعتبر عاملا أساسيا في عملية الإبداع يستعمل في الحجاج (فهو قريب من الحجاج المقارني) دون ان تكون له علاقة بالمنطق الصوري ، حيث لايطرح معادلة صورية خالصة ، ولكنه ينطلق من التجربة بهدف افهام فكرة ، أو العمل على ان تكون الفكرة مقبولة ، وذلك بنقلها من مجال الى مجال مغاير ، جريا على مبدأ الاستعارة[63] . وكما يقول أستاذنا د . عبد الله الطيب «وقلما كان العرب حين يسوقون خبرا أو قصة أو مثلا يكنون به عن معنى أو عبرة أو حكمة أو موعظة حسنة قلما يضعون النقط على الحروف ينزل بة الى الهامس «[المصطلح النقدي والبلاغي] مجلة كلية الآداب فاس عدد خاص 4 .1988 ص 242 .

-60 Ibid P: 484

-61 في أصول الحوار و تجديد علم الكلام ص 111

-62 Traité de l'argumentation P: 50

-63 Eléments de rhétorique P: 150

ويحدد «روبريو» مجموعة من الخصائص العامة للتمثيل يمكن اجمالها فيما يلي[64] :

1- يرتكز التمثيل على استدعاء صور تحكي أحداثا من أجل نقل أفكار مرجعية ذات قيمة رمزية .

2- تقوم العلاقة فيه على مماثلة تتحقق بين عناصر أو بنيات تنتمي الى مجالات مختلفة .

3- يتجه نحو مخيلة الإبداع ويتجاوز اللغة وحدود الواقع ويفهم عن طريق تحريك الذهن ، مما يتطلب معالجة دينامية وإبداعية .

4 -إن الأساس في التمثيل يكمن في العلاقة بين الموضوع والحامل (وجه الشبه- PHORE) وتوتر العلاقة بينهما . مثل «مغرب اليوم ليس هو مغرب الأمس» إن التمثيل بصفة عامة يعتبر منبعا للإبداع والافكار الجديدة ، واصلا لكل الصور التخيلية ، غير انه قد يكون خاطئا ، أو مرفوضا ، أو غيرمفهوم في الواقع ، إذا خرج عن إطاره التداولي ، إذ لايمكن إقامة علاقة المشابهة انطلاقا من الخصائص العامة الملازمة ، وإنما يتم ذلك عن طريق تفكيك الأجزاء الدقيقة لمكوني التمثيل (الموضوع والحامل PHORE) واستعمال الخيال للربط بينهما ، مثل المشابهة بين الطفل والبراءة أو المشابهة بين سيولة التيار الكهربائي وسيولة الغازات . يمكن هنا استحضار الخلاصة التي خرج بها الجاحظ في هذا الباب والتوجيه الذي أشار به على مربي النشأ «بأن لا يشغلوا قلب الصبي بالنحو إلا بقدر ما يؤديه إلى السلامة من فاحش اللحن ، وما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به ومذهل عما هو أرد عليه منه من رواية المثل والشاهد والخبر الصادق والتعبير البارع» . [الرسائل 38/ 3]

3 - المفاهيم التداولية و أبعادها الحجاجية

لقد تم التركيز في دراسة التحليل التداولي للخطاب على إشكالية أفعال الكلام وعلى التضمينات اللسانية وعلى إشكالية الحجاج في اللغة ، وعلى تحليل الخطاب التراتبي والوظيفي ، سنقتصر على تحليل التداوليات اللسانية (أفعال الكلام) .

---

64 - Ibid P: 106

فقد اهتمت التداوليات اللسانية المنبثقة من الأعمال التحليلية لأفعال اللغة (أوستين 70 وسورل 72) ومن أعمال (كرايس : القواعد الحوارية 79) اساسا بالبحث في ثلاثة ميادين :

1 - دراسة مختلف انواع افعال اللغة التي تتيح لنا فهم نوع الفعل المحقق وشروط استعماله مثل : الوعد والامر واالاستفهام... بحيث ان خصائص هذه الافعال تخضع في اساسها لشروط الاستعمال وهي شروط تبين الى أي حد يكون فعل لغوي ملائما للسياق الذي يظهر فيه .

2 - دراسة مختلف الوسائل اللسانية التي يملكها المتكلم من اجل ابلاغ فعل الكلام الذي يتحقق بصورة مباشرة (واضحة) ، أو بصورة غير مباشرة (ضمنية) ، انطلاقا من تأويل فعل التكلم ، أي التعرف المناسب من قبل المؤول على قصد المتكلم ، المرتبط بحضور العلامات اللسانية ، أو عن طريق سياق القول .

3 - إن دراسة تسلسل أفعال الكلام في الخطاب بصفة عامة ، ليس مدارها فقط على الشروط والملاءمة السياقية لافعال الكلام ، وانما مدارها على الملاءمة التساوقية ، أي في علاقتها بأفعال لغوية أخرى في سياقها العام .[65]

وحول هذه الميادين الثلاثة تمحورت الدراسات التداولية الغربية ، فقدمت فهما جديدا لمفهوم القياس يلائم طبيعة التحليل التداولي لأفعال الكلام .

3-1 - القياس التداولي :

هو ممارسة استدلالية استكشافية للمعرفة ، تجعلنا ننتقل من حكم الى آخر ، كقياس مفرد على مفرد أو حدث على حدث أو بنية على بنية... ممارسين حريتنا في اختيار ما نحتاجه من ألفاظ وتراكيب ومقارنات وصور ، متجاوزين منطق الحدود ومنفتحين على منطق العلاقات ، الذي يأخذ بعين الاعتبار متغيرات الوضع اللساني ، ومتغيرات المحيط المعرفي للأشخاص المشاركين في

65 - Théorie pragmatique 96

عملية التواصل ، إلى حد أن بعض الباحثين ذهبوا إلى اعتبار النماذج والصور والاستعارات ، قياسات ينتقل فيها الذهن من المعروف الى اللامعروف ،[66] وهي قياسات تعمل على تحقيق اللاممكن كما فعل أفلاطون حين نقل استعمال القياس من المجال الرياضي الى التأليف بين مظاهر الكون الطبيعية والسياسية والأخلاقية... كالتأليف بين الحكومة والرأس في «الحكومة رأس المدينة » أو التأليف بين الفكر والحكومة في «الفكر حكومة الإنسان» ، أو نقل صفة من شيء إلى آخر بعيد عنه ، مثل نقل رأس الحيوان إلى المال في : «رأس المال»... الخ .

والملاحظ أن هذا التأليف والنقل يتجاوزان علاقة التضمن التي تحكم الجمع في القياس ، حيث تكون الصلة ضرورية بين الموضوع والمحمول ، إلى علاقات أخرى لا حصرلها كشف عنها المنطق الحديث ، فيما يعرف بمنطق العلاقات والمنطق المتعدد القيم...

إن القياس التداولي بالنظر إلى هذه العلاقات لايعتمد فقط على الآليات الصورية في الاستدلال وإنما يستعين بغيرها ، رغم يقينة بعضها وإجرائية بعضهاالأخر ، كإستعانته بمسالك الاستدلال القائمة على قياس الشاهد على الغائب حيث ، يستحضر فيه المتكلم سياقا تداوليا سابقا ويتخير نموذجا واقعيا ، ثم يقيس ماهو بسبيله من إثبات صحة ،أو تحقيق فرضية[67] .

وإذ اكان القياس التداولي يربط بين موضوعين (مقيس ومقيس عليه) او ظاهرتين او فكرتين ينتميان إلى مجالين ، هما في التداول متباعدين ، فان ذلك الربط يتم عن طريق علاقة القياس التي تتصف بالمغايرة لا بالمجانسة ، مما يجعلها تحافظ على وجوه الاختلاف بين الطرفين ، في العملية ذاتها ، وفي نفس الوقت تثبيث وجود مظاهر التشابه بينهما ،[68] الشيء الذي يفتح الباب أمام كل الاحتمالات والقراءات والتأويلات الممكنة ،فلا يلجأ المتكلم الى هذا النوع من القياس ، إلا إذا تعذر عليه إيجاد المطابقة في القضايا التي يروم التعبير

66 - تجديد المنهج ص 185
67 - نفسه 189
68 - في أصول الحوار 107

عنها ، لا لأنه يجهل طبيعة الغائب وإنما يريد طرح إشكالية من خلال مقارنته بالشاهد .

ويمكن القول أن الهدف من القياس التداولي بكل أنواعه لا يكمن في حمل الخبر ونقله لمن لا يعلمه نقلا مستقلا ، وإنما مرجع فائدته أن المتكلم يريد حمل المخاطب على الاستفادة من القياس استفادة سلوكية معينة[69] ، لأنه يشتمل على عنصر القيمة الفكرية التي ترتبط بتغيير المحيط التداولي للفرد عن طريق الإقناع ، بمضمون القول عملا به أو كفا عنه .

3 - 2- الأبعاد التداولية في الحجاج :

3-2-1- البعد السياقي :

لايتم التفكير في الفعل الكلامي بمنظور قصدي إلا في إطار سياق يحدد قيمته ، فالفعل الكلامي لايعبر عنه بواسطة الجملة فقط ، ولكن يعبر عنه في سياق معين وفق المعادلة التالية :

قول + سياق = رسالة

ولمعرفة الرسالة لايجب فقط معرفة اللغة بل يجب كذلك معرفة السياق ، وهكذا فالقول :

- اذهب .

قد لا تتضح قيمته أو رسالته أو الفعل المتوخى منه :أهو أمر ، أو ترخيص ، أو نصيحة ، أو تحد... حتى وإن ذكر معه الفعل الذي يصلح لتحقيق ذلك القصد مثل :

أنصحك او آمرك أو أسمح لك ، يبقى مع ذلك السؤال مطروحا : هل المتكلم جاد فعلا أو هو متهكم؟ .

وفي هذا الاطار يشير سورل[70] إلى أن تحديد شروط مطابقة مقتضى الحال يعد جزءا من السياق ، فالقول :

69 - نفسه 112
70 - نظرية أفعال الكلام العامة ص 34

-أعدك بشيء

لايفهم دون أن يوجد من يقبل الوعد أو من يستفيد منه .

ويمكن توسيع هذا المبدأ السياقي بربطه بالمخاطب والقول الموجه إليه ، سواء كان إنجازيا أو غير إنجازي ، إذ في غياب هذين الشرطين تطرح شكوك حول الوعد على حقيقة القول ، فقد يكون مجرد تضليل كما يرى ذلك سورل[70] ، وهو بذلك يحرص على إثارة قضايا في عمق التداولية تتعلق بمطابقة مقتضيات الأحوال والدواعي اليها .

3- 2- 2- البعد الشمولي والتفاعلي :

أصبحت التداولية تنظر إلى اللغة في شموليتها وعلاقتها بالعالم والإنسان ، كشكل من أشكال السلوك البشري ، فلكي نفهم ونفسر ونعلل ينبغي أن ننظر إلى جميع الاوضاع التي تحيط بالعبارة ، أي مجموع أفعال الكلام... منظورا اليها من جميع أحوال الخطاب وأوضاع الكلام[71] في بعدها النفسي ، والاجتماعي ، واللساني والثقافي ، وهكذا تنتقل التداولية من الضيق إلى الواسع ومن الواسع إلى الضيق[72] . «فسورل» لا يتحدث عن الأشياء باعتبارها معلومات دلالية (خالصة) يضمها القول ، بل يتحدث عن الآثار التداولية لهذا القول ، فالقول :«صباح الخير» هو بالنسبة«لسورل» قول استعمل ليبين كيف أن المتكلم حين قال «صباح الخير» لشخص ما ، لم يقصد بهذا التعبير معناه الدلالي ، وإنما كان قصده إلى التحية والدخول في علاقة مع المخاطب ، إنه يطرح إشكالية أساسية هي العلاقة بين القول والعالم اوبين القول والانسان ، أي العلاقة بين الداخل والخارج ، بين الجزء والكل[73]... فحين يقول المتكلم للمخاطب قولا فإنه يفكر في هذا القول ، وهذا ما يبين طبيعة العلاقة المشتركة بينهما ، ويبين كيف يقوم التواصل اللساني بالوظيفة الاخبارية وفي نفس الوقت بالوظيفة المعرفية .[74]

71- نفسه 65

72- pragmatique histoire et critique P : 24

73- La pragmatique P : 103

74- Ibid P :65

3-2-3 - البعد التعاملي والأخلاقي :

تحدد الأخلاق البعد التعاملي للتواصل اللساني ، حيث تعطيه القيمة العملية وتنفي عنه ما يتعارض مع المصالح المشتركة والنبيلة بين المتخاطبين ، ولذلك «لزم أن تنضبط الأقوال بقواعد تحدد وجوه فائدتها الإخبارية... كما لزم أن تنضبط الأفعال إلى قواعد تحدد وجوه استقامتها الأخلاقية أو التعاملية»[75] وإذا كانت التداولية قد ركزت على مبدأ التعاون (كرايس) وجعلت منه أحد المبادئ الأساسية في عملية التخاطب ، فإن الغرض منها كان يتعلق بتعاون المتكلم والمخاطب على تحقيق الهدف المرسوم ، وإذا وقعت مخالفة هذا المبدأ التعاوني ينتقل القول من ظاهره ، إلى ما يتضمنه ، وهذا ما يبين قصور النظرية الكراسية في مبدأ التعاون ، لأنها تدور على الجانب التبليغي البسيط من القول الذي ينضبط بسهولة إلى الترجمة الآلية ، ويهدف إلى نقل الخبر على أوضح وجه ، مغيبا بذلك الجانب الأخلاقي والسيكولوجي .

وفي مقابل ذلك نجد طه عبد الرحمان يقترح نموذجا مستوحى من التراث العربي الإسلامي ، حاول به ملء الفراغ الذي تركته القواعد الغربية بدءا من «كرايس» وانتهاءا «بليتش» ، ويقوم هذا النموذج على مبدأ «التصديق» الذي ينطلق من مطابقة القول للفعل ، وتصديق العمل للكلام ، وقد صاغ هذا المبدأ على الشكل التالي :[76]

- الصدق في الخبر .
- الصدق في العمل .
- مطابقة القول للفعل .

ويترتب عن هذه الاصناف أفضليات ثلاث :

- أن يفعل المتكلم ما لم يقل أفضل من أن يقول ما لم يفعل .
- أن يسبق فعل المتكلم قوله أفضل من أن يسبق قوله فعله .
- أن يكون المتكلم أعمل بما يقول أفضل من أن يكون غيره أعمل به .

75- اللسان و الميزان ص 237
76- نفسه ص 242

3-2-4- البعد التوسعي في أفعال اللغة :

لقد تمكن التوسع الذي عرفته الافعال الكلامية من إدراج الحجاج في الأفعال الكلامية ، بعد أن كانت نظرية أفعال الكلام لدى (سورل واستين وكرايس) تشتغل على الافعال اللغوية البسيطة ثم المركبة ، أي برد وظائف الجملة إلى الفعل الكلامي الذي يعتبر عندهم ، مختصا بالجملة ،«أما الحجة فهي فعل لا يتعلق بالجملة الواحدة أو حتى بمجموعة من الجمل المنتظمة فيما بينها ، وإنما تتعلق بحقيقة خطابية هي النص ، ولهذا لاتنفع الأفعال اللغوية البسيطة الخاصة في وصف البنية التنظيمية الحجاجية ، لأن الفعل الحجي يقتضي بموجب خاصيته التنظيمية الحجاجية أن توضع له مقولات متميزة تكون مستقلة عن مقولات وقواعد هذه الافعال اللغوية البسيطة الداخلة في تركيبه ، وتكون حاكمة على هذه الافعال اللغوية لا محكومة بها» .[77]

3-2-5 – البعد التنظيمي والإستراتيجي في الحجاج :

لقد اعتمدت افعال اللغة (سورل وأوستين وكرايس) على الافعال اللغوية البسيطة ، المرتبطة أساسا بالجملة القائمة على تنظيم مجموع القواعد الخاصة بها ، دون استحضار الجوانب التنظيمية الأخرى ، التي تدخل في تنظيم الأقوال ، الشيء الذي تقوم به الحجة في الخطاب ، فهي فعل لايتعلق بالجملة الواحدة أو حتى بمجموعة من الجمل المنتظمة فيما بينها ، وإنما تتعلق بحقيقة خطابية ، ومن هنا يتضح قصور نظرية الأفعال اللغوية في وصف البنية التنظمية الحجاجية مما يتطلب إغناء النظرية ، عن طريق إعطاء الفعل الحجاجي خاصية تنظيمية مستقلة عن قواعد الأفعال اللغوية ، ووضع مقولات وقواعد أخرى تكون حاكمة على هذه الأفعال لا محكومة بها ، لتجاوز النظرة البسيطة لأفعال الكلام ، إلى وضع استراتيجية تحكم الخطاب ككل ، يكون فعل الحجاج فيها أعم ، أي يكون أساس توالد وترابط الاقوال ، وانسجام أفعال اللغة نفسها ، تبعا للمقتضيات التداولية العامة .

---

77 - نفسه ص 260

4- الآليات المعرفية : الإستدلال والفرضيات

خلافا للنظرية الأرسطية الإستدلالية التي تنطلق من مقدمات مبنية على منطق الحدود والماهيات واللزوم والضرورات والثبات والعليات ، وفي سياق التطور الذي عرفه المنطق بمختلف فروعه ، بالنظر إلى العلوم التي ساهمت في هذا التطور من رياضات وفزياء وبيولوجيا وعلم النفس ، تفترض النظرية الإستدلالية مقاربات جديدة في محاولات لكسر هيمنة النماذج التقليدية في رؤية العالم وتحليل مظاهره والوقوف على آلياته وتجاوز إكراهاته وتطويع إمكاناته .

وفي هذا السياق سنتطرق للاتجاه المعرفي الذي يوظف مختلف نتائج العلوم الإنسانية (علم النفس المعرفي والبيولوجيا والذكاء الصناعي...) متجاوزا بذلك أطروحات المنطق التقليدي ، الذي يغلب على مقدماته الطابع الانطولوجي ، وماتناسل عنه من نتائج . هذا الإتجاه المعرفي الذي ينطلق من الفرضيات ، قياسا على الفرضيات في العلوم ، وهي مفاهيم مبنية تخضع في تسلسلها لقواعد الاستنباط ، إلا أنها غير محكومة بها[78] وقد حدد هذا الاتجاه أربعة مصادر للفرضيات هي[79] :

-الادراك .

-فك الترميز .

- خطاطة الفرضيات (او الفرضيات المحفوظة في الذاكرة) .

-الاستنباط

وانطلاقا من خطاطة الفرضيات- باعتبارها أشكالا منطقية يمكن إكمالها للحصول على الاشكال القضوية- ، التي تمثل ذاكرة مفهومية لأكبر عدد من الفرضيات ، كما تمثل المدخل المعجمي للتعبير اللساني عن المفهوم وهكذا ، فالمدخل المعجمي لمفهوم سياسة مثلا : يضم (حزب ، سلطة ، دستور حكم ،جمهور انتخابات ، تدبير ، ديمقراطية) أي يضم مجموعة من

-78 Pertinence 135

-79 Ibid P :129

الفرضيات لاحصرلها ، تدور في فلك هذا المدخل المعجمي[80] ، ومفهوم «ناقش» كفعل ، يضم عدة فرضيات حول هذا النشاط ، ونفس الأمر ينطبق على فرضية مكونة من مداخل معجمية مثل : «اعترف المسؤول بخطئه «فعندما يسمع المخاطب هذه الفرضية يواجه مجموعة من المراجع الممكنة تتعلق ب «مسؤول» أي مجموعة من العناوين المفهومية التي تدخل تحت هذا الاسم ، الشيء الذي يجعله ينشط المداخل الموسوعية المرتبطة به :) مسؤول في حكومة أو في قطاع أو في حزب... (قد يستدعي هذا المفهوم اسم الشخص المعنى أو صورته أو حزبه .

أما الفرضية الثانية فتتعلق ب»اعترف والمسؤول» أي بماذا اعترف المسؤول؟ (أي أن المسؤول اعترف بشيء ما) أما الفرضية الثالثة هي «خطأ المسؤل» . ويصبح هذا التأويل العام هو نفسه مثار سؤال أكبر : لماذا اعترف المسؤول بخطئه؟ ، وهي الفرضية الرابعة[81] . وعموما فكل فرضية حسب الاتجاه المعرفي تثير مجموعة من الفرضيات التي يمكن أن يستدعيها السياق .

ففي المثال التالي :

- سيرتفع معدل النمو

نجد من جهة مجموعة من الفرضيات مثل :

- ستتخذ تدابير جديدة
- سيرتفع الاستثمار
- إصلاح إداري ومراقبة صارمة
- ارتفاع في دخل الأفراد
- تدبير جديد...

ومن جهة أخرى تعمل هذه الفرضيات على إثارة انتظارات المخاطبين ، فكل واحد منهم يتوفر على مئات الآلاف من الفرضيات في ذاكرته ، لكن اختيارها يبقى مسألة خيال إبداعي وضرورة سياقية من جانب المتكلم والمخاطب ، ومعالجة هذه الفرضيات لاتتم إلا في سياق فرضيات أخرى ،

---

80 - Ibid P :137

81 - Ibid P :312

وكلما كانت الفرضيات جديدة كلما أثارت تضمينات سياقية جديدة ، تساهم في تطوير تمثل الفرد للعالم . وعموما فإن وضع الفرضيات في هذا الإتجاه تعد مسألة خيال إبداعي كما يعتبر تأكيدها ظاهرة معرفته[82] .

4-1- مفهوم الفرضيات كمقدمات :

تعد الفرضيات التي هي مسألة خيال إبداعي بمثابة المقدمات في القياس ، يقدمها المتكلم انطلاقا من ذاكرته وانطلاقا مما يتم بناؤه واستنتاجه ،[83] وذلك بتطوير خطاطة الفرضيات الموجودة في ذاكرته . وهكذا فكل قول أو فرضية هو بمثابة إثارة تقدم مؤشرات حول القصد الإخباري للمتكلم وتثير انتظارات ، وتحدد مواقف اتجاه تلك التمثلات ، التي تعبر عنها الرغبة والاعتقاد القائمة في هندسة العقل البشري ، حيث يقوم تفاعل بين المعلومات القديمة والجديدة في قول ما ، كمقدمات ، بحيث لا ينحصر دور الفرضيات فيما يتصوره الناس عن الأشياء والأحداث التي يواجهونها بإضطراد ، بل حتى تلك التي يتوقعونها عن سلوك الافراد أوالأحداث أو الأشياء .

تأكيد الفرضيات :

إن تأكيد الفرضيات هو ظاهرة معرفية وليس قواعد منطقية[84] ، ففي تفاعل المعلومات القديمة والجديدة ، يمكن للمعلومات الجديدة أن تؤكد الفرضيات القديمة وتدعمها أو تضعفها أو تستبعدها[85] ، ويبقى مع ذلك أن كل تأكيد لفرضية ما ليس سوى فرضية أخرى ، يمكن للواقع أن يعززها أو يضعفها ، كما في المثال التالي :

- يساهم المواطن المغربي في التغيير والديمقراطية .

تتقوى هذه الفرضية حين نرى أن المواطن يقبل على التصويت بنزاهة والمشاركة الايجابية في الحياة السياسية ، وتضعف هذه الفرضية حين نراه يعزف

---

82 - Ibid P :108-109
83 - Ibid P : 66
84 - Ibid P :109
85 - Ibid P :168

عن المشاركة في التغيير أو يسلك طريقا انتهازيا (بيع الصوت في الإنتخابات) وانطلاقا من كتاب PERTINENCE يمكن استخلاص مجموعة من الافكار التي انتهى اليها «ولسون وسبيربر» حول الفرضيات وتأكيدها نذكرأبرزها :

1 - أن أحكامنا هي فرضيات على فرضيات

2 - أن أحكامنا ذات طبيعة مقارنية

3 - إن قوة الفرضية لايمكن حسابها كميا بل تكتسب قوتها من مقارنتها بغيرها .

4- إن قوة الفرضية ترجع الى مفهوم سيوكولوجي أساسي لدى الانسان .

5- لايكفي التمسك بالتعميم الذي يطبع تفكيرنا التجريبي بالاستدلالات التي نعيها والتي لا نعيها ، بل لا بد من معيار حاسم يقدم للسامع المعطيات التي تؤكد الفرضية أو تنفيها .

6- إن الفرضيات التي يتصورها الناس عن الاشياء والاحداث ، التي يواجهونها كتلك التي يتوقعونها عن سلوك تلك الوقائع والاحداث ، من غير أن يتقاسموا نفس الفرضيات حولها .

7- ان العملية التي تحدد التضمينات هي استراتيجية عقلانية لحل المشاكل وليست نظاما منطقيا استنباطيا صوريا .

8 - ليست الفرضيات بالضرورة حقيقية (مسلمات برهانية) إذ لايمكن البرهنة عليها ، لكن يمكن تأكيدها او رفضها أو دعمها او التقليل من شأنها .

9 - يسمح نظام الإستنباط المعرفي ببناء الفرضيات دون أن يكلفنا حفظ كل التضمينات التي تضمها في الذاكرة .

10 - تعتبر الحجج في هذه النظرية مجرد فرضيات ذات درجات معينة بحسب السياق .

4 - 2- آليـة الاستنبـاط .

تنطلق آلية الاستنباط في نظر الإتجاه المعرفي ، من تصور مزدوج لقدرات الانسان وآلياته الاستنباطية ، حيث تقوم ، من جهة ، بحساب مباشر وآلي

لمجموع الفرضيات التي تقدم للجهاز الذهني ، بحسب قدرته وذاكرته وانتباهه ، انطلاقا من المجموع الكامل للتضمينات غير المبتذلة بواسطة قواعد استنباطية ، ومن جهة أخرى تقوم بمعالجة تلك الفرضيات في سياق فرضيات أخرى . وبهذا يصبح الجهاز الاستنباطي أكبر منبع للفرضيات ، وعنصرا أساسيا في الاستدلال غير البرهاني ، ومن ثم فهو حقيقة سيكولوجية له أهمية كبرى بالنسبة للنظرية المعرفية والتداولية خاصة[86] .

4-2-1 - وظيفة الاستنباط :

إن عملية الاستنباط في وظيفتها وآليتها تشبه عملية فك الترميز اللساني ، وهي عملية لا تبحث فقط عن تقوية التمثل المفهومي ، ولكنها تضمن صحة كل نتيجة من خلال المقدمات[87] من ناحية أولى ، ووسيلة لحساب الفرضيات الجديدة من ناحية ثانية ، وهي أيضا نظام يسمح بالكشف عن الأخطاء وعدم الانسجام المحتمل من ناحية ثالثة .

ويستخلص «ويلسن وسبيربر» من هذه الوظائف أن القواعد الوحيدة التي يتوفر عليها الذهن البشري هي قواعد الاستنباط وهي التي تلعب دورا مركزيا في الاستدلال العفوي لتأويل الخطاب ، غير أن حصر هذه القواعد الاستدلالية في العمليات الاستنباطية وحدها فيه تقليص للقدرات العقلية والفكرية للإنسان ، وفيه تغييب للآليات الأخرى التي يشغلها الذهن البشري ، كآلية القياس وآلية الاستقراء ، وآلية المشابهة ، باعتبارها آليات تداولية ، وقد يكون لهذا الحصر أسباب حسابية ترجع إلى كون هذه العملية الاستنباطية محكومة بقواعد الضبط والدقة الحسابية ، في مقابل القياس والاستقراء والمشابهة التي تكون محكومة بالأبعاد التداولية . ولذلك تكون لهذه الآليات فعالية استدلالية أنجح في عمليات التخاطب داخل سياق معين ، وعن طريقها يتم توظيف الاستنباط ، وهو ما يؤكده صاحبا LA PERTINENCE في قولهما «يتوفر الإنسان على عمليات استدلالية معقدة لا يستطيع المنطق التقليدي

86- Ibid P:113

87- Ibid P:133

توضيحها فهي قادرة على الاستنتاج دون حجة أو دليل ، وقادرة على خلق مشابهات ذاتية ، بل قادرة حتى على الاستدلال دون معارف»[88] فالعبرة ليست بمعيار الصحة المنطقية ولكن العبرة بما تقدمه من نتائج مُرضية ومقبولة في الحياة اليومية .

4-2-2- الاستنباط والتضمين

أولت النظرية المعرفية وظيفة مركزية للجهاز الاستنباطي ، باعتباره الحساب العفوي والآلي للتضمينات التحليلية والسياقية ، فكل معلومة جديدة تعالج داخل سياق معلومة قديمة .[89]

- مثل التذكرة في المحفظة .

يمكن معالجة تضميناتها التحليلية بشكل آلي ولاواعي على الشكل التالي :

-التذكرة موجودة في مكان ما .

-شيء ما في المحفظة .

-المحفظة في مكان ما .

وإذا لم تفهم هذه التضمينات التحليلية بشكل أولي لا يستطيع الجهاز الآلي أو البشري استثمارها استثمارا كاملا ، فالمغفول عنه كما يقول ابن تيمية ليس بمعلوم حالة الغفلة ، فإذا تذكر صار معلوما بالفعل[90] .

4 - 3- آلية الإستنتاج : INFERENCE وعملية الفهم :

يتفق المناطقة المعاصرون على أن عمليات الاستدلال التي تدخل في عملية الفهم هي عمليات غير منطقية ، ذلك لأن العنصر البشري قادر على استعمال عدة آليات وتقنيات للاستدلال غير البرهاني ، وهي تبدو أكثر أهمية من وجهة نظر سيوكولوجية ، من التقنيات الاستدلالية التي يسلكها العلماء كثيرا في عمليات التنظير والتطبيق ، لذلك فالناس يستعملون نظاما استدلاليا

88 - Ibid P :110

89 - Ibid P :167

90 - مناهج البحث ص 187

يختلف عن النظام الاستدلالي الدقيق ، الذي يتوخاه العلم ، بما في ذلك العلماء أنفسهم ، فحين يقوم العلماء باستدلالات عفوية ولحظية أثناء سياقة سياراتهم مثلا فهم لا يستعملون التقنيات الاستدلالية العلمية .

لذلك يتبين أن عملية الاستدلال غير البرهاني ، تتطلب تطبيق قواعد الاستدلال غير الاستنباطية[91] تلك القواعد التي تقوم على المشابهة أكثر منهاعلى الدليل ، كما تقوم على تخيل واقعي يخضع لقيود الملاءمة ، بهدف تحقيق النجاح والفعالية . وهكذا يبدو أن عملية الفهم التي لا تفارق عملية الاستدلال لاتنفصل عن عملية تأكيد الفرضيات[92] ، حيث تلعب دورا أساسيا في تأويل الخطاب كيفما كان نوعه ، بينما التفكير العلمي المستند الى الاستدلال البرهاني وغير البرهاني هو مشروع يخرج عن المألوف حتى بالنسبة للعلماء أنفسهم[93] .

وهكذا فعملية الفهم المقرونة بالاستدلال العفوي ، تتميز بشمولية تمكنها من استعمال ، أية معلومة مفهومية ، أو تصورية ، يمكن أن تضمها الذاكرة ، أو يشير إليها الواقع ، أو يتوقعها الذهن بحرية تداولية[94] ، ويصبح الاستدلال هنا شكلا لتثبيث الاعتقادات ، وشكلا لتأكيد الفرضيات ، وميزانا للوقوف على الصواب ، وبدون هذا الاستدلال تنطفئ جذوة الابداع في الجنس البشري[95] .

خلاصة القول :

على الرغم من تغييب النظرية المعرفية لآلية القياس فهي لازالت تؤدي وظيفة تداولية وتركيبية في إنشاء الأقوال وتأويلها ، وإنشاء المعارف والنظريات ، فقد تحول مفهوم القياس من آلية تجريدية صارمة إلى آلية مرنة مساعدة تعمل على كشف الخلل والوصول إلى خطأ النتائج ، وإظهار الخطأ في القول وفي الممارسة الخطابية ، وحتى الأخلاقية ، ومن ثم أصبحت وظيفته الأساسية ترتبط بالخلق والإبداع .

---

91 - Ibid P :107
92 - Ibid P :111
93 - Ibid P :119
94 - Ibid P :114
95 - Ibid P :95-108

ومن هنا يتأكد اعتقادنا بأن للقياس تقريبا نفس الوظائف التي أسندتها النظرية المعرفية للاستنباط ، ويتأكد لنا أيضا أن الآلية الاستنباطية وحدها دون قياس لايمكن توظيفها في تحليل الخطاب وفق مقتضياته وأبعاده المختلفة على احسن وجه ، لأن مكانيزمات الآلية الاستنباطية تعمل وفقها الآلات الذكية ، فقط في حين أن الذهن البشري أعقد وأغنى من الآلة بكثير ، بحيث يمكنه المزاوجة بين القياس والاستنباط دون أدنى صعوبة أو تعارض .

5 - الآليات المجازية بين التمثيل والتخييل «الإستعارة نموذجا»

تعرض هذا المفهوم لدراسات ومقاربات عديدة منذ أرسطو إلى اليوم ، كما تعرضت هذه الدراسات نفسها لانتقادات وتقويمات وإضافات جديدة ، حسب المدارس والاتجاهات ، ولم يعرف هذا المفهوم استقرارا أو ثباتا ، في عصر من العصور ، أو دراسة من الدراسات ، مما يصعب تتبع مساراته التعريفية ومقاربته مقاربة شمولية ، غير أننا سنقوم بتقديم بعض الاتجاهات التي أولت الاستعارة مكانة خاصة في تحليل الخطاب ، وخاصة في الخطاب الحجاجي ، باعتبارها آلية تساهم كباقي الآليات التي مر بنا تحليلها من هذا الفصل ، في بناء القول الحجاجي من مختلف النواحي الحجاجية : الاستدلال والتأثير والاقناع ، لكن قبل ذلك سنعرض لهذا المفهوم في بعض المدارس البلاغية والنقدية بشكل مركز .

5-1- الاستعارة في التقليد العربي : بين الأصولين والبلاغين

انطلق الأصوليون لفهم المعاني والدلالات اللغوية من حقل «تداولي» يقوم على الاستعمال ، فنظروا إلى الظاهرة اللغوية من خلال حقيقتين[96] :

- الحقيقة الوضعية : وهي اللفظ المستعمل أولا فيما وضع له .
- الحقيقة العرفية : وهي اللفظ المستعمل فيما وضع له في عرف الاستعمال ، فاطلقوا عليه مصطلح المجاز . وهو يعني كل انتقال من معنى إلى

96- الإحكام في أصول الأحكام ص 1/ 36

آخر ، لما بين المعنيين من تعلق ، وقد رد الآمدي هذا التعلق (أوجهات التجوز) الى المجاورة أو المشابهة[97] وتكون المزية في التجوز إثبات وجه الشبه ، وهذا ما عرف عند البلاغين أيضا بالمجاز يقول الجرجاني[98] «الكلام على ضربين ، ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده «خرج زيد ، وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ، ثم تجد لذلك المعنى دلالة تصل بها إلى الغرض ، ومدار هذا الأمر : الكناية والاستعارة والتمثيل... أولا ترى إذا قلت في المرأة «نؤوم الضحى» فإنك لاتفيد غرضك الذي تعني من مجرد اللفظ ، على المعنى الذي يوجبه ظاهره ، ثم يعقل السامع من ذلك المعنى على سبيل الاستدلال معنى ثانيا هو غرضك ، كمعرفتك من «نـؤوم الضحى» في المرأة انها مترفة مخدومة لها من يكفيها أمرها» وهـو تعريف دقيق يميز فيه الجرجاني بين ظاهر اللفظ في الاستعمال العادي وخفيه أو ما يوحي إليه من معان أخرى عن طريق المجاز ، وهو طريق العقل الذي يحوز اجراء اسم على شيء لم يوضع له اسم في اللغة[99] .

يوضح الجرجاني أن التجوز يكون من حيث المعقول لا من حيث المنقول لأنه إذا كان من حيث اللغة صرنا نقول ان اللغة تختص بالحي القادر دون الجماد ولو كان المجاز من طريق اللغة* لجعل ما ليس سرورا بسرور[99] ، والمجاز بالإضافة إلى ما ذكره الجرجاني بخصوص التجوز العقلي هو الملابسةالفهمية المصححة لمطلق الانتقال ولو في أحيان [100] وذلك كاف لفهم المراد مع القرينة . ويوضح عبد العزيز البخاري المقتضى الذي يرتبط اساسا بالقول المجازي بقوله «المقتضى هو جعل غير المنطوق منطوقا لتصحيح المنطوق[100]»

إن الاستعارة باعتبارها مجازا تقوم على الجمع بين شيئن او فكرتين انطلاقا من العلاقة التشبيهية من اجل تقديم صورة جديدة ، أو مخترعة تتدخل فيها

97- نفسه 1/120-111
98- الدلائل ص 262
99- الأسرار ص 359-356
100- شروح التلخيص 4/32

عملية التخييل والإبداع ، وتكون اجمل وأبدع حين تثير انتباه الآخرين وتلامس مشاعرهم من خلال الجمع بين المختلفين والمتباعدين في لوحة ساحرة «وهكذا إذا استقريت التشبيهات وجدت التباعد بين الشيئين كلما كان أشد ، كان إلى النفوس اعجب ، وكانت له النفوس اطرب»[101]

على أن هذه العلاقة أو التعالق يتم بين معنيين : واقعي وقيمي «نظرا لأن (العلاقة او المشابهة) ليست مطابقة فتنمحي الفروق كليا وليست مفارقة فتنمحي وجوه الاجتماع كليا... وحيث ان المشابهة ادل من غيرها على التعالق بين هذين المعنيين ، فقد ظهر ان الاستعارة ادل ضروب المجاز على العلاقة المجازية»[102] .

وليس بجديد ان نجد في التقليد العربي ما يبين تقدم منظورهم في دراسة آلية الاستعارة خصوصا لدى الجرجاني وذلك حين يربطها بالمقام التداولي من جهة ، وحين يقوم بتوظيف الحواس والطباع والنظر ، والفكر ، والتجربة ، في صناعة القول الاستعاري وتأويله من جهة أخرى ، كما نجد ذلك في الدراسات الغربية المعاصرة ، ذلك لأن الاستعارة عند قدمائنا العرب المتنورين ليست فقط زخرفا أو نقشا تأتي لتزيين الكلام ، ولكنها فن لغوي تداولي يعطي للقول قوته الدلالية واصابته النفيسة تأثيرا وانفعالا واستحسانا .

5-2 - الاستعارة في المنظور الغربي بين النظرية الدلالية (سورل وايكو) والبنية التصورية للايكوف .

إن الاستعارة كما يعرفها الغربيون[103] هي عبارة عن تركيب لساني سليم ، تمثل خصوصية منطقية ليست دائما كاذبة ، وتتميز عن عمليات المشابهة أو المماثلة لكونها تلتزم بوجود خصوصية مشتركة للقضايا المطروحة ، كما تتميز بكونها متغيرا يختلف من شخص لآخر (الانفراد) ولا يمكن الاتيان

101 –الأسرار ص 109-111

* ينطلق الجرجاني من المثال : خط أحس مما وشاه الربيع أي أن للربيع فعلا أو صنعا وأنه شارك الحي القادر في صحة الفعل ، وذلك تجويز من حيث المعقول لا من حيث اللغة .

102 - اللسان والميزان ص 232

-103 Limites de l'interprétation P :152

بمعادل لمعناها (يحل محلها) لأنها أصلا تستعمل في الحالات التي لا يستطيع قول آخر ان يؤدي نفس المعنى ونفس التأثير .[104]

5-2-1- الاستعارة في النظرية الدلالية سورل وايكو :

انتقدت النظريات المعاصرة (ايكو بالخصوص) المنهج الوضعي الإرسطي والمناهج الوضعية الجديدة التي تعاملت مع مفهوم الاستعارة انطلاقا من مرتكزات ومبادئ مسبقة وقواعد جاهزة (معيار) كانت تصف بها القول المجازي وتعالجه وتقيمه انطلاقا من أحكام جاهزة تعتمد على الصلات المادية بين الأشياء مما سمح بإنتاج استعارات ميتة او عادية[105] مع أن الأصل في الاستعارة هو الخلق او الإبداع الأصيل ، لأنها كثيرا ما تكون ناتجة عن الصفة أو ناتجة عن الجمع بين أفكار غير متحكم فيها[106] لذلك نجد «ايكو» يدافع من خلال طرحه الدلالي عن الاستعارات الإبداعية التي تولد عن طريق التوتر أو الصدمة التي تنتج إما :

- عن طريق الانفعال الذاتي الذي يتولد لدى المتكلم في حالات خاصة .

- أو عن طريق تاثير العالم الخارجي او العوامل الخارجية التي تحدد طبيعة الاستعارات قصد التأثير في الغير .

وهما طريقتان أساسيتان في انتاج القول الاستعاري متداخلاتان ومتكاملتان ، فطبيعة الحدث الخارجي هي التي تجعل المتكلم يبدع استعارات انطلاقا من انفعالاته الخاصة وانطلاقا من وضع المستمع الاعتباري[107] .

لذلك فالاستعارة لا تؤسس علاقة تشابه بين مرجع شيء ومرجع شيء آخر ، ولكنها تؤسس علاقة مقارنة بين محتويات التعابير المختلفة ، ومن ثم فهي لا تعوض بتعابير لسانية أخرى ، لكنها تضع في المقابل تعبيرين متمايزين

-104 Dictionnaire Encyclopédique de la pragmatique P : 60
-105 Limites de l'interprétation 152
-106 Ibid P : 153
-107 Ibid P : 153 - 165

حاضرين في التمظهرات الخطية للخطاب موضع تفاعل[108] بين محتويين لأن كل محاولة لتطبيق قواعد المنطق الشكلي (الوضعي) لقيم الصدق على الاستعارة ،لا يمكن أن يغير ميكانيزمها السميائي (او الدلالي)[109] مما يجعل القول الاستعاري يظل متعلقا بالتمثلات الذهنية والتجارب الذاتية التي يكونها الانسان عن العالم ، انطلاقا من العمليات الشعورية التي تتحول إلى قصد معين .

ويتضح بذلك ان الاستعارة في الفهم الدلالي تستدعي بطريقة مباشرة او غير مباشرة مقارنة ما ، سواء من خلال التكافؤ الدلالي الذي تبرزه الاستعارة داخل القول ، او عن طريق افتراض عملية مقارنة لبعض الاستعارات ، كما هو الشأن لدى» سورل «أو لمجموعها كما هو الشأن لدى (دافنسون) وهذا الفهم نابع بالأساس من الوظيفة التي تؤديها الإستعارة داخل القول ، مما جعل (سورل) يطرح سؤالا مركزيا ومحددا للقول الاستعاري في الاتجاه الدلالي هو :

لماذا حين يريد المتكلم القول بأن (س) هي (ب)يقول(س)هي (ج)؟

ويجيب بأن التميز بين معنى الجملة ومعنى قول المتكلم ، هو القاعدة الاساسية للتميز بين الخطاب الحرفي والخطاب الاستعاري ، بمعنى أنه للوصول إلى معنى قول المتكلم «زيد شجاع» انطلاقا من«زيد» ينبغي أن يتم عبر استعمال مجموعة من الاستراتيجيات والمبادئ (هي نسبيا معقدة) تناسب استثمار المستوى الخلفي ، بدل الحفاظ على دلالة الجملة نفسها[110] ، ويميز«سورل» في تحليله للاستعارة ، بين نمطين لمفهوم المقارنة يؤكد به أو يفسر معنى قول المتكلم و معنى الجملة وهما :

النمط الأول :دلالي يركز على تأكيد معنى القول أو يتضمن بشكل أو بآخر مقارنة ملائمة .

النمط الثاني : تداولي : يركز على أن تأويل الاستعارة يمر عبر اجراء مقارني لا يختلف عن الاجراء الذي يحقق مقارنة ملائمة .

108 - Ibid P: 155
109 - Dictionnaire Encyclopédique de la pragmatique P : 60
110 - Ibid P: 410

والقول بأن العملية التأويلية للاستعارة تعادل الاجراء المقارني يعني أن عملية تأويل الاستعارة تمر عبر معالجة مكوينيها ، والبحث عن خصائصهما المشتركة مع تحديد الخصائص التي يقصدها المتكلم حين ينتج قولا استعاريا ، وهذا التأويل لا يمر دون إثارة مشاكل تأويلية أخرى[111].

ويشير «سورل» في تحليله إلى أن معنى قول المتكلم لا يمكن صياغته لسانيا لأنه كان يتحدث عن الاستعارة باعتبارها تلائم قول المتكلم ، بأن س هي ج (زيد أسد) ويتدخل التأويل فقط ، من أجل الوصول إلى معنى القول عن طريق معنى الجملة[111] ومن هنا تبدو محدودية التحليل الدلالي للاستعارة .

5-2-2 - الاستعارة من منظور البنية التصورية : التحليل المعرفي[112]

إذا كانت منطلقات النظرية الفلسفية الوضعية(المنحدرة من أرسطو إلى الآن ، تقوم على مقولات معزولة عن الانسان ، كتفاعل) ، قد حكمت تصوراته للغة والعالم ، لمدة طويلة ، فان الاتجاه المعرفي افسح المجال للتجربة الانسانية وتفاعلها مع محيطها الخارجي ،بقصد صياغة مفاهيم جديدة و أفكار مغايرة ، كما فسحت المجال لاستخدام قدرات الانسان الجسمية والعقلية والشعورية والفطرية لتحقيق تطلعاته وتفاعلاته مع العالم الخارجي(حقائق أو رموز أو انساق معرفية .) ، بحيث تسمح له برؤية كيانات العالم من منظوره الخاص ، واعادة تركيبها مع ما يلائم حاجياته وانتظاراته ، ومن ثمة تدفعه إلى تشييد أنساق من التصورات التي تجسدها لغته ومفاهيمه وتترجمها اعماله وانشطته... انطلاقا من الآليات النظرية (العقلية والفطرية) التي يمتلكها الانسان (آليات تشبيهية ، وتخيلية واستدلالية واستنتاجية وتجزيئية) والتي تتكامل جميعها من اجل بناء انساق تصورية تستدعي عند الضرورة احدى هذه الآليات .

ومن هذا المنظور لم تعد الاستعارة مرتبطة بالخصائص الدلالية او الخصائص الشكلية ، بل اصبحت مرتبطة بالعمليات المعرفية التي ترتكز على التجربة والتفاعل الذي ينشأ من خلال تشغيل القدرات الذهنية والحسية

-11 Ibid . 411

112- الاستعارات التي نحيابها

حسب «ولسون وسبير بر» فإن كل قول هو تعبير تأويلي لفكرة المتكلم يجد له تأويلا ، لدى السامع ، و كل تمثيل هو شكل قضوي يستعمل وصفا أو تأويلا ، فحين يستعمل وصفيا يمكن ان يكون وصفا لحالة الاشياء الموجودة في العالم الحقيقي أو وصفا للأشياء المرغوب فيها ، وحين يستعمل تأويبا يمكن ان يكون تأويلا لفكرة موجهة لشخص معين ، او تأويلا لفكرة مرغوب فيها ، باعتبارها معرفة معينة .

ومن خلال الاستعمال التأويلي تراهن الاستعارة في هذا الاتجاه على العلاقة التأويلية بين الشكل القضوي للقول والفكرة التي يمثلها[116] على أن العلاقة التأويلية تقوم على تأويل علاقات المشابهة القائمة على الاختلاف والتمايز ، وليس على المطابقة او التماهي ، ويكون فيها التعبير حرفيا عن الفكرة(وهي حالات محدودة جدا) ، وحين يستدعي التأويل علاقة المشابهة نقع في متاهة اللاتحديد «فكل شيء يمكنه ان يشبه أي شيء ، من جانب معين»[117] لان ميكانيزماتنا التاويلية غير معروفة بالتدقيق . لذلك اعتبر(ولسون وسبيربر) القول الحرفي) تأويلا لفكرة المتكلم(طريقة غير ناجحة للتعبير عن الفكرة ، فوحده القول الاستعاري (كشكل تعبيري لايتقاسم فيه الشكل المنطقي والشكل القضوي نفس الخصائص) ، قادر على التعبير الجيد عن الافكار[118] وحين نقول التعبير الجيد فإننا نضع الخطوة الاولى في مجال الاستدلال والتاثير والاقناع كأشكال ضرورية في العمليات الحجاجية .

3-5 - الاستعارة كآلية من آليات الحجاج :

انطلاقا من المفاهيم والتعريفات التي تناولناها سابقا حول الاستعارة يمكن التأكيد على أن القول الاستعاري يعد آلية حجاجية بامتياز ، فإذا كانت «الاستعارة الشعرية تتملك السامع أكثر مما ترغمه ، فإن الاستعارة الحجاجية تكون أكثر قهرا و اقتسارا [119] ويتميز القول الاستعاري عن القول الحرفي

116- Pertinence 347
117- Ibid P : 348
118- Ibid P : 349
119- مجلة المناظرة عدد 89/4

إجمالا يمكن القول بان مفهوم البنية التصورية قد هيمن على دراسة (لايكوف وجونسون) فحصرها في الاستعارات المعرفية ،» نلاحظ ذلك من خلال الأنواع والتقسيمات التي أورداها» . حيث طوقت منطلقاتهما النظرية تحليلاتهم للقول الاستعاري ، تلك المنطلقات التي ركزت على الفهم المباشر ،حين وجدت لها مبررات من خلال الطروحات المعرفية والتجربية التي لا تخرج عن القدرة الانسانية في فهم تجارب الفرد وحياته وعلاقاته... لهذا كانت الاستعارات باعتبارها مظهرا ثقافيا عاما محايثة للغة وتتأثر بها سائر المظاهر الأخرى ، مثل السلوكات والأنشطة التي يمارسها الانسان ، لكن هذا التصور لا يخلو من تناقض . [114]

لكن ذلك لا يعني ان عملية الفهم تقلص من دور التأويل وتوهم بأن كل الاستعارات البسيطة والمركبة تكون ذات منطلقات موضوعية أو تجريبية هي التي تشكل الجانب المعرفي لدى كل الناس فأين العنصر الذهني كقاسم مشترك بينهم ومصدر كل الترابطات الممكنة بين الاشياء والافكار؟

لذلك فان ما ذهب اليه «ولسون وسبيربر» في تصورهما للاستعارة يمكن اعتباره شيئا جديدا يأخذ بعين الاعتبار اساس الاستعارة المنهجي ومحدداتها المعرفية واهدافها التداولية : يتجلى ذلك في النظرية الإصابيةPERTINENCE التي تعتمد منهج التأويل أو (كما يقول عنها صاحباها) ، لا تطرح التمييز بين الخطاب الحرفي ، والخطاب المجازي ، دون ان تواجه صعوبات تتنيها عن ذلك ، سواء كانت صعوبات نظرية ام تحليلية ، ذلك لأن كل قول في هذه النظرية -يمثل فكرة المتكلم سواء كان هذا التمثيل حرفيا ام استعاريا- يكون متوقفا على التشابه بين القول والفكرة الممثلة [115] وتكون مبررات الاستعمالات الاستعارية تداولية بالأساس .

لكن كيف يمكن تحديد المشابهة بين القول والفكرة؟ وماذا تمثل الفكرة وباية طريقة ؟ واين يتجلى بعدها التداولي؟ . .

114- مقدمة كتاب الاستعارات التي نحيا بها – المترجم-

115- Dictionnaire Encyclopédique de la pragmatique P : 418

حسب «ولسون وسبير بر» فإن كل قول هو تعبير تأويلي لفكرة المتكلم يجد له تأويلا ، لدى السامع ، و كل تمثيل هو شكل قضوي يستعمل وصفا أو تأويلا ، فحين يستعمل وصفيا يمكن ان يكون وصفا لحالة الاشياء الموجودة في العالم الحقيقي أو وصفا للأشياء المرغوب فيها ، وحين يستعمل تأويليا يمكن ان يكون تأويلا لفكرة موجهة لشخص معين ، او تأويلا لفكرة مرغوب فيها ، باعتبارها معرفة معينة .

ومن خلال الاستعمال التأويلي تراهن الاستعارة في هذا الاتجاه على العلاقة التأويلية بين الشكل القضوي للقول والفكرة التي يمثلها[116] على أن العلاقة التأويلية تقوم على تأويل علاقات المشابهة القائمة على الاختلاف والتمايز ، وليس على المطابقة او التماهي ، ويكون فيها التعبير حرفيا عن الفكرة(وهي حالات محدودة جدا) ، وحين يستدعي التأويل علاقة المشابهة نقع في متاهة اللاتحديد «فكل شيء يمكنه ان يشبه أي شيء ، من جانب معين»[117] لان ميكانيزماتنا التاويلية غير معروفة بالتدقيق . لذلك اعتبر(ولسون وسبيربر) القول الحرفي) تأويلا لفكرة المتكلم(طريقة غير ناجحة للتعبير عن الفكرة ، فوحده القول الاستعاري (كشكل تعبيري لايتقاسم فيه الشكل المنطقي والشكل القضوي نفس الخصائص) ، قادر على التعبير الجيد عن الافكار[118] وحين نقول التعبير الجيد فإننا نضع الخطوة الاولى في مجال الاستدلال والتاثير والاقناع كأشكال ضرورية في العمليات الحجاجية .

5-3 - الاستعارة كآلية من آليات الحجاج :

انطلاقا من المفاهيم والتعريفات التي تناولناها سابقا حول الاستعارة يمكن التأكيد على أن القول الاستعاري يعد آلية حجاجية بامتياز ، فإذا كانت «الاستعارة الشعرية تتملك السامع أكثر مما ترغمه ، فإن الاستعارة الحجاجية تكون أكثر قهرا و اقتسارا [119] ويتميز القول الاستعاري عن القول الحرفي

116- Pertinence 347
117- Ibid P : 348
118- Ibid P : 349
119- مجلة المناظرة عدد 89/4

في الحجاج بكونه يؤدي عدة وظائف في عملية التخاطب ، وعمليتي الفهم والتأويل بين المتكلم والسامع ، أو كما يقول ابن سينا «التخييل اذعان والتصديق اذعان لكن التخييل اذعان للتعجب والإلتذاذ بنفس القول ، والتصديق اذعان لقبول ان الشيء على ما قيل فيه ، والتصديقات محصورة ومتناهية اما التخيلات فلا تعد ولا تحصى .[120]

غير أن الآليات الاستعارية في القول الحجاجي لا تقف عند حدود التمثيل او المشابهة بين فكرتين او موضوعين ، بل قد تحول البناء الحجاجي بكامله الى بناء استعاري يستدعي فيه المعنى الاول معنى ثانيا ، اعتمادا على المقومات الاساسية في العملية الحجاجية (مقام ومستمع ومقتضيات تداولية) التي تشكل الى جانب الآليات الاخرى (لسانية منطقية تداولية) هيكل الخطاب الحجاجي... وهذا ماجعل «ميشل مايير» يولي اهتماما كبيرا للصور المجازية في نظرية المساءلة* في الحجاج ، بحيث جعل منها مكونا أساسيا لحصول الاقناع من جهة ، وإثارة الاسئلة المنتظرة من جهة اخرى . ولتحليل القول الاستعاري في الحجاج وظف «مايير» مفهومين اساسيين هما الضمني والمصرح به فالمصرح به هو ظاهر السؤال في القول أما الضمني فهو كل الإمكانات المختلفة للإجابة عن السؤال الواحد . وفي هذا الجانب بالضبط يرتبط الحجاج بالمجاز[121] فأن تقنع يعني ان تنهض لغويا بما يضمن تحديد اشكال الاقناع والتاثير ، بحسب مقصد المتكلم ومقتضيات المقام ، عن طريق المجاز ، الذي يؤدي فعالية حجاجية اعمق . والمجاز عند «مايير» هو الذي «يخلق المعنى ويصدم كل من لايشاطر المتكلم وجهة نظره ، وهو بذلك طريقة للتعبير عن الاهواء والانفعالات والمشاعر التي هي صورة من الانسان مثلما تكون الاستعارة صورة من الأسلوب للتأثير والاقناع»[122] .

وفي نفس الاتجاه اعتبر د . طه عبد الرحمان غنى الاستدلال الحجاجي فيما ينتج عن العلاقة التفاعلية بين المستمع والمتكلم والمقام ، التي هي حقل

---

120 - الشفا

* سنقوم في الفصل الرابع بتفصيل هده الأفكار .

121 - Questions de rhétorique P : 113

122- Ibid

لتوظيف المجاز ، فقد جعل منه مكونا رئيسيا في كل قول حجاجي «لاحجاج بدون مجاز» كما ارتكزت منطلقاته على الالتباس الوظيفي الذي يقوم عليه الحجاج وهو التباس لا يعني تعدد معاني اللفظ في القول الواحد ، ولاغموضا في تركيب الجملة ، وإنما هو إلتباس يجتمع فيه اعتباران هما : اعتبار الواقع واعتبار القيمة» بمعنى ان المجاز هو الاستدلال بعبارة الدعوى على إشارتها وهو عين الالتباس المطلوب في الحجاج [123] .

يتبين إذن أن القيمة المجازية للقول قد تكون شرطا من ضمن الشروط الاخرى)الاستدلال والحجة والآليات(في عملية الحجاج ، او كما يقول ما يير : «المجاز صيغة من صيغ الاستدلال تتبادل معه الادوار»[124] إذ ليس للحجاج من طريق إلا استغلال ما في اللغة من غنى وثراء ، ذلك لان الصورة المجازية تتنوع وظائفها داخل القول الحجاجي والعمليات الاستدلالية حسب الاهداف المتوخاة من استعمالها ، فمنها ما هو متعلق بالقول الحجاجي نفسه كالتكثيف والتزين ومنها ما هو متعلق بالمتكلم كتغييب المسؤولية الواضحة عن القول ، ومنها ما هو متعلق بالسامع كتحريك مخيلته ومنها ما هو متعلق بالمقام او الواقع الخارجي كإبداع صور جديدة لمعالجة بعض القضايا والوقائع :

5-3-1- الوظائف المتعلقة بالمتكلم :

كثيرا ما يلجأ مستعمل المجاز في القول الحجاجي إلى ترك المجال مفتوحا امام التأويلات المختلفة للسامع ، إذ يساعده ذلك على التهرب من التصريح بموقف صارم وثابت اتجاه قضية معينة يتعلق الامر هنا بالقول الحجاجي الذي يكون بناؤه المجازي كليا (أي أن القول الحجاجي لايوظف بعض النماذج المجازية) حتى لا يخلق صورا متعددة لنفس القول الحجاجي ، قد تكون متباينة من مستمع لآخر ، و كل واحد يفهمها ويؤولها كيفما شاء .

---

123 - اللسان و الميزان

124 - Questions de rhétorique P : 113-115

5-3-2- الوظائف المتعلقة بالسامع : الوظيفة التحريكية (تحريك الخيال)

ان القول المجازي المبني اساسا على التخييل هو الذي يجمع بين معاني الافكار والتصورات والمفاهيم ويحرك مخيلة السامع ويسموبه من حقيقة الواقع الى فضاء الخيال ، انطلاقا من عمليات ذهنية تقوم على الفهم والتأويل ، وهذه الوظيفة التي تحرك خيال السامع تعمل على استدراجه بشكل غير مباشر إلى حقل المتكلم ، وتثير انتباهه لما يقوله ، وما يريد الوصول إليه ، وبالتالي تدمجه في التفاعل الذي ينشده الحجاج .

5-3-3- الوظائف المرتبطة بالقول نفسه : التزيين والتكثيف .

وهي خصائص مرتبطة بكل الخطابات التي توظف المجاز ، حيث تقوم بتزيين القول وتجميله بالصور اللامعة والجاذبة ، غير أن وظيفتها داخل الحجاج تكمن أساسا في اضافة شيء جديد هو تكثيف القول ، انطلاقا من بعض الصور المجازية ، لكي يشكل قوة في المعنى والبيان حتى يتسنى للمتكلم من خلال هذه القوة تمرير مواقفه وأطروحاته .

5-3-4- الوظائف المرتبطة بالمقام :

يستعمل المجاز كذلك في الحجاج لخلق صور جديدة في محيطه ، انطلاقا من تركيب ونسج المعطيات الواقعية بطريقة إبداعية مما يجعل من هذه الصور محط اهتمام ، تدفع السامع إلى تصورها من خلال تركيبه ونسجه الخاص لوقائع أو حقائق أخرى ، فتجعله بذلك يشترك مع المتكلم في إبداعه وهو نوع من التوافق الذي يتطلبه الحجاج ، وان كان توافقا غير واضح وغير مباشر .

الفصل الثالث

استراتيجية الخطاب الحجاجي

إمكانات التحقق وإشكالات التأويل

تمهيد:

لم يثر الحجاج في الغرب اهتمام اللسانين إلا مع تطور التداولية ، على الرغم من انه يشكل جزءا مهما في حياتنا اليومية ، فهو ظاهرة اجتماعية وثقافية له علاقة بالاستدلال والمنطق ، محايث لنظام اللغة الداخلي ، ومنفتح على العالم الخارجي [1] ومرتبط بدواعي القول ، ذلك أن التواصل لا يتم من أجل لاشيء ، بل يأتي لربط علاقات مع الغير ، بهدف التأثير فيه ، أو على الأقل ، الاتفاق معه ،[2] وذلك عن طريق تحريك اعتقاد أو تبرير قرار أو الدفع إلى عمل ، لأن الحجاج يتوجه إلى الاعتقاد بالدرجة الأولى أي كل ما يتعلق بترتيب القيم ، بدل ترتيب الحقائق ، نظرا لعلاقة القيم بما هو ممكن وما هو محبذ ، فقوة الحجة هو ما يحدد الإقرار بها[3] على عكس البرهان ، الذي يهتم بترتيب الحقيقة .

إن دراسة الحجاج انطلاقا من تطور الدراسات اللسانية والتداولية يدخلنا حتما في سياق الحوار الناجح ومقولة التراضي والتوافق الاجتماعي[4] ، فالمتكلم حين يدخل في حجاج يبدأ عملية التهيء : فيتخيل وجود (مستمع) مخاطب ، ليس فقط قادرا على المتابعة والاجابة على ما يطرحه المتكلم ، ولكنه قادر على تجريب ذلك وتمحيصه وتقييمه في شكله الحجاجي ،» فالمستمع « في السياسية

---

1 - Argumentation et Conversation P:45

2 - Introduction à la logique et à l'argumentation P:15

3 - Critique de l'argumentation P:114

مثلا يتجلى في الظروف العامة للمحيط السياسي (ما هو ثقافي ، وما هو اقتصادي وما هو إيديولوجي) كما يتجلى في المصالح العامة لمكونات هذا الحقل .

ومن هنا فإن مدار الدراسات التي تناولت الحجاج ، تمحورت حول الآليات التي تضمن نجاحه وفعاليته ، وتناولت استراتيجيات الخطاب الحجاجي من مختلف أبعاده ومراميه وغاياته . تلك الآليات والاستراتيجيات التي تنجح في تقوية انخراط المخاطب ، بشكل يطلق لديه الاستعداد للعمل ، أو الفعل ، أو الاقتناع ، أو الثقة ، والتي يمكن أن تتحقق في الوقت المناسب ، أو على الأقل تجعله غير قادر على رفض القول الحجاجي[5]

ومن هذا المنظور فإن الحجاج يتوسل بالقدرات اللسانية للإجابة عن الإشكالات المطروحة ومواجهة الأسئلة المفخخة ، ومجابهة الحجاج السيئ النية ، والرد على المغالطات غير المعقولة ، وإيجاد حلول للمشاكل المطروحة ، إنه نشاط يومي يقوم به كل الناس في مشهد الحياة العامة ، وفي المشهد السياسي والاجتماعي خاصة ، إنه مجموع الاستدلالات التي تبسط أو تعرض أو تؤكد أو تنفي فكرة أو أطروحة[6] ، أو تحل مشكلة ، أو تقدم طرحا ، أو مرافعة ، أو خلقا ، أو إبداعا ، وهو في نفس الوقت استدلال وعلاقة : استدلال إرضاءا لقواعد العقل ، بنهج خطوات المنطق ، وعلاقة ، إرضاء وإمتاعا وجذبا واستمالة لشعور وقيم المخاطبين ، واعتبارا لما يستهدفه الحجاج من معتقدات محايثة لخوالج النفس الإنسانية ، بما تحمله من رواسب وآمال و انتظارات إعتبارا لذلك .

كيف يوفق الخطاب بين إرضاء العقل و إرضاء الآخر؟ ومعرفة الموضوع والهدف منه؟[7]

إنه سؤال مركب ومعقد خصوصا وأنه يجمع بين ثلاثة محاور مركزية في الخطاب ، تتطلب كل واحدة منها تحليلا ودراسة مستفيضة ، وهذا ما نتوخاه في المحاور اللاحقة من هذا الفصل ، لكن لابد من تقديم المفاتيح المحورية المتعلقة ب :

---

5 - Ibid P:125

6 - La pragmatique histoire et critique

7- L'Argumentation stratégie et tactique

أ- إرضاء العقل :

يتعلق الأمر هنا بتقديم خطاب واضح مبني يوافق منطقه الداخلي الحاجيات العقلانية للمخاطبين ، الأمر الذي يقتضي وضع مخطط تحدد فيه نقط اللقاء التي تفصح عنها العلاقات العقلية في الجمل المفتاح ، كما تفصح عن مختلف الجوانب التي يجب معالجتها في الخطاب ، بحيث تسمح بانتقالات تحكمها ضوابط العقلانية المنطقية ، انطلاقا من التسلسل الذي يقترحه الخطاب ، هذا الخطاب الذي ينبغي أن تكون تعابيره ، شديدة الارتباط بطبيعة الموضوع ، وطبيعة الظرفية التي تجعل المخاطب يقبل على الاستماع من خلال إشراكه ، بإثارة ردود أفعاله بشكل لا يجعله يقع في اختلال عقلي في الفهم .

ب- معرفة الفضاء :

إن أول ما ينبغي أن يفكر فيه ، في الخطاب الحجاجي ، هو تحليل الوضعية العامة ، بما تعنيه من معرفة الطبيعة الداخلية للمخاطبين (شعورا وانتظارات ، ومواقف) ومن معرفة المسافة التي تغطي عملية التخاطب (زمان ومكان) وطبيعة الفضاء الذي يجري فيه الخطاب (اجتماعي ، سياسي ، ثقافي) وحدود الخطاب وإكراهاته ، ومعرفة الأشياء التي يمكن إبرازها والأشياء التي يجب التلميح إليها ، والأشياء التي يجب معارضتها والاعتراض عليها ، والأشياء التي يضمها السياق... كل هذه الأشياء وغيرها يجب أن تدمج في دينامية الخطاب الحجاجي واستراتيجيته .

ج- إرضاء الآخر :

إن معرفة طبيعة الموضوع تقتضي معرفة اهتمام المخاطب به ، ومصلحته في ذلك ، ونوع المعرفة التي يكونها حوله (درجة معرفة الموضوع لدى المخاطب) ، ومدى استفادته من هذا الموضوع ، والأهداف التي يتوخاها ، والحوافز التي يقدمها ، والمعتقدات التي يتضمنها ، والمواقف الإديولوجية ، والثقافية والثوابت المبدئية التي ينطلق منها و درجات اهتمام المخاطب ، بمكونات ومضمون هذا الموضوع ، ومدى مصداقية الخطاب في عملية التخاطب . كل ذلك من أجل تحقيق مجموعة من الأهداف ، التي ينبغي أن

تكون داخل استراتيجية الحجاج ، أي النتيجة التي يتوخى الخطاب بلوغها ، وهي لا تعدو أن تكون إما ملموسة أو عقلانية تؤكدها الوقائع والحقائق أوالمواقف والقواعد والأخلاق .

إن تحقيق الأهداف قد يكون الوصول إليها عبر عملية حجاجية مباشرة أو عبر أهداف وسيطة ، إذا كانت الوضعية الحجاجية تسمح بذلك ، مثل : تهيئ المناخ المناسب للفكرة أو الموقف أو السلوك او خلق جو الثقة أو الفائدة أو حب الاستطلاع أو خلق الرغبة في تقبل الفكرة أو الأطروحة[8] .

1- الخصائص العامة للخطاب الحجاجي :

ليس كل خطاب بالضرورة حجاجا ، فقد تكون نهاية خطاب ما ، ذاتية ، أي دون أن تهدف إلى اقناع ، أو قل لا يشكل الحجاج هدفه الأساسي والمباشر ، وحتى وإن كانت هناك تعابير حجاجية فإنها تأتي بشكل عرضي ، فالخطاب اليومي الذي يجريه الناس فيما بينهم ، من أجل التعارف ، أو نقل المعلومات ، أو تبادلها ، او تقديم معطيات ، لايكون من أهدافه سوق حجة او الاستدلال على موقف او الدفاع عن أطروحة ، أو حمل الآخر ، على خطة ، أو الانخراط في عمل كما يؤكد ذلك Plantin ، في قوله : «من التسرع الاعتقاد أن الخطاب يكون لغاية حجاجية فقط ، فهناك كثير من الأقوال نستعملها في شكل عمليات غير حجاجية [9] «ومن هنا فإن الخطاب الحجاجي يتميز عن باقي الخطابات الأخرى ، بكونه خطابا مبنيا وموجها وهادفا ، مبنيا بناء استدلاليا يتم فيه اللجوء إلى الحجة والاستدلال والمنطق والعقل ، وموجها مسبقا بظروف تداولية تدعو إليها إكراهات قولية أو إجتماعية أو ثقافية أو علمية أو عملية أو سياسية ، تتطلب الدفاع عن الرأي أو الانتصار لفكرة ، أو تتطلب نقاشا حجاجيا ، يلامس الحياة الاجتماعية ، أو المؤسساتية ، بهدف تعديل فكرة أو نقد أطروحة أو «جلب اعتقاد أو دفع انتقاد» [10] ، ومن الواضح أن خصوصية الخطاب الحجاجي تكمن في كونه يخضع لمراقبة مضاعفة ، من عدة محطات : محطة

8 - Ibid

9 - Essais sur l'argumentation P:146

10 - اللسان و الميزان 226

المراقبة الاجتماعية (الإطار الاجتماعي بشتى أشكاله الاعتقادية والايديولوجية) ومحطة المراقبة العقلية ، ومحطة المراقبة السلوكية ، «حتى يأتي على الوجه الذي يمحو عنه ما يعيبه»[11] ، ولن يتأتى ذلك إلا بالوقوف على أهم الخصائص التي تشكل الخطاب الحجاجي وتميز خصوصياته الخطابية .

1-1- خاصية البناء والدينامية :

ليس هناك حجاج جاهز أو معطى منذ البداية ، بل هو عملية يتم بناؤها تدريجيا وتتطلب تكيفا مستديما لعناصرها الى نهاية اتمام الحجاج ، سواءا على شكل خطاب أو عرض أو خطبة أو جدال... «إذ أن الادعاء بوجود قواعد كلية ومطلقة لا يمكن أن يحالفه الصواب» [12] ومن ثم فإن غاية ما يمكن تحصيله من عملية الحجاج او عمليات الحجاج هو أن القواعد والأسس ترتبط بميدان اللغة في علاقتها بالإنسان والعالم ، عبر التقنيات التي تبلور تلك الافكار ، وتلك العلاقات وتلك التمثلات ، سواء تعلقت بمنطق الحياة وقطاعاتها المختلفة (منطق السياسية ، منطق الاخلاق) أو بمنطق اللغة أو بمنطق العقل . لذلك تأتي فعالية الخطاب الحجاجي من طريقة بنائه وتفاعل عناصره ، ودينامية مكوناته ، فالإقتصاد في الأدلة الحجاجية مثلا يكون له دور مهم في عملية الإقناع ، إذ المبالغة في سرد الحجج في غيرما مناسبة ، يفقد الحجاج فعاليته وقوته ، ذلك لأن الذهن البشري (حسب دراسة أشار اليها سيموني[13]) لا يقوى على معالجة سوى عدد محدود من عناصر القول ، ن السامع لا يستطيع الحصول إلا على 10٪ مما يسمع ، لذلك ينبغي التركيز على الأهم والأساسي في الحجاج ، كأن يجيب عن حاجة أو مطلب أو انتظار معين ، بالبحث عن الأسباب الدقيقة التي تبرره وتفسر أسسه ومتطلباته ، وبالتدليل بالحجة الملائمة والمؤثرة حسب الحاجة ، لذلك تكون العلاقة بين الحاجة إلى الحجاج والحجاج ضرورية ، وهو الطريق الأنسب إلى الإقناع كما يقول «باسكال» ، فلا تتصور قيمة الحجة

---

10 -

11 - نفسه 223

12 - أصول الحوار 66

13 - L'argumentation stratégie et tactique P : 55

بمعزل عن الشخص الموجهة إليه ، إذ لا وجود لحجج وأدلة معيار تطابق مستمعا جاهزا ، وإنما هناك مخاطبون لهم حاجات وانتظارات خاصة ،لا تتجاوب مع لغة الخشب التي تصاغ في قوالب جامدة تعكس حالات دوغمائية (عقائدية وثوقية) تتكرر في كل خطاب بطريقة كاريكاتورية ، كما نراها في خطابات بعض الأحزاب ، مما يفقدها كل مصداقية وينزع عنها كل قوة حجاجية ممكنة ، وهي بهذا تبعد كل البعد عن الأشكال التعبيرية التي يوظفها الحجاج الناجح .

1-2- خاصية التفاعل :

ينبني الحجاج على مبدأين معرفيين اساسين ، هما مبدأ الإدعاء ومبدأ الاعتراض ، يؤديان إلى اختلاف في الرأي أو في الدعوى ، ويدفعان إلى الدخول في ممارسة الدفاع أو الانتصار للدعوى وهو ما يؤدي إلى تحقيق نوع من التزاوج الظاهر أو التزاوج المفترض* (الذات الاعتبارية) للمتكلم والمخاطب [14] ، وقد ينشأ عن هذا التزاوج الظاهر أو الاعتباري للمتكلم والمخاطب ازدواج في مختلف أركان العملية الحجاجية ، وهي حسب الأستاذ طه عبد الرحمان :

أ- ازدواج في القصد : أي حصول الوعي بالقصدين عند كل منهما .

ب- ازدواج التكلم : كما لو كان المستمع هو الذي يتكلم ، أو كما لو كان المتكلم يحمل لسان المستمع .

ج- ازدواج الاستماع : كما لو كان المستمع يحمل المتكلم في سمعه .

د- ازدواج السياق : يحتوي سياق إنشاء القول على نصيب من سياق التأويل ، كما يحمل سياق التأويل نصيبا من سياق الانشاء .

وهكذا تكمن أهمية التفاعل المباشر والتفاعل غير المباشر (الازدواج الاعتباري) بين المتكلم والمستمع ، في ضرورة الإلتزام بطبيعة الارضية المشتركة بينهما ، وهي أرضية تضم كل الإمكانات الخطابية الخاصة بمقام ما (معلومات مضمونية ، وسائل ترتيبية واستدلالية ووسائل تحصيلية...) تراعي اعتقادات المتكلم والمخاطب وردود افعالهما .

---

14 - اللسان و الميزان 265

- الذات الظاهر للمتكلم تدعي أن يجرد المتكلم من نفسه

* (الذات الإعتبارية)الظاهرة التي تقوم بالإعتراض وتشرك مع المخاطب في ممارسة الإعتراض

1-3-خاصية الإلتباس .

إذا كانت اللغة الطبيعية أصلا لكل غموض دلالي ، ومجالا لكل انزياح ومجاز لساني ، فإن الأمر سيكون معقدا وعسير الفهم في العملية الحجاجية ، أو قل إن الحجاج هو عمق الإلتباس . وعلى الرغم من ضرورة التقيد بالآليات والأدوات والتقنيات التي يعتمدها الحجاج لتشكيل القول ، فإن المجال يبقى مفتوحا أمام مهارة المتكلم في فن القول ، وإظهار كفاءته الإبداعية ، لكي يصل بسهولة الى إفهام الآخر ، وتقريبه من طروحاته حتى يتسرب إلى ذهنه وعواطفه وعقله ، بغية إقناعه والتأثير فيه .فأين يكمن الإلتباس؟

يأتي الإلتباس من طريق المجاز الذي هو «الاستدلال بعبارة الدعوى على إشارتها» ،[15] ويكون «جامعا بين معنيين متقابلين هما العبارة والإشارة»[15] ولا تتم هذه العلاقة فقط عن طريق الصورة البلاغية التي تتيحها اللغة بواسطة المجاز ، بل تتم بصفة عامة عن طريق العلاقات الرمزية التي تدخل فيها كل الدلائل (SIGNES) اللسانية و غير اللسانية ، فالإنسان ككائن رامز كما يقول « كاسرر»[16] يقع بشكل سريع تحت تأثير الرموز التي تقيم علاقات مركبة بين الاشياء والأشياء وبين الأشياء والافكار ، او العكس ، حيث تنفذ هذه الرموز الى داخل الانسان دون مقاومة .

لذلك فالعبارة في الحجاج إذا اقتصرت على ظاهرها جاءت عادية أو عارضة في القول ، بحيث لا يعيرها المستمع أدنى اهتمام ، أما إذا حملت معها إشارات رمزية ، فإنها بكل تأكيد ستحرك آليات الفهم والتأويل لدى المخاطب وتدفعه نحو اعتقاد ما .

فقد لا يكون دائما طريق الإشارة في الحجاج ايجابيا أو صحيحا فقد يأتي للتغليط والخداع عن طريق ايهام رمزي ، بحيث لا تدل العبارة على الإشارة المطلوبة ، أي تصبح الإشارة نقيض العبارة ، ففي الانتخابات المغربية تكثر بعض العبارات الرمزية في التجمعات الجماهيرية مثل :

---

15 - اللسان و الميزان 232

16 - La philosophie des formes symbolique

-الصوت أمانة في عنقك .

إنه تعبير استعاري ورمزي في نفس الوقت ، حيث الأمانة لها إشارات قوية في علاقتها أولا بشيء مادي هو الصوت وبشيء معنوي هو «العنق «ثانيا . فالصوت في هذا القول قد يدل على الحرية والنزاهة في التصويت ، ويصبح أمانة على عاتق الناخب ، وقد يكون الصوت مبتاعا مقابل قدر من المال وتصبح الامانة هنا دالة لا على الحرية في الاختيار وإنما دالة على المقابل المادي تكره صاحبها على التصويت إكراها ، ولا تتساوى الامانة في الصوت في الحالتين معا .

1-4- خاصية التأويل : وهي وجه آخر من النشاط الحجاجي يقوم بتقييم ايجابي او سلبي للقول الحجاجي على مستويين : مستوى أول عن طريق استقبال القول ، كعلامات لغوية تحول فيها الرسالة من السنن الى الخطاب[17] ، وفي مستوى ثان تتم عن طريق تعالق عنصري الفهم والتأويل[18] : فهم أولي لمعنى القول ، ثم فهم ثان ، أو تأويل لمعنى معنى القول ، وهنا تدخل مجموعة من العوامل الخارجية لتحديد البعد التأويلي ، ذلك لأن طبيعة الحجاج لا تقوم على وصف ظاهري للقول مثل : (زيد ذكي) لكنها تقوم على التدليل على بعض النتائج*التي تكون نتاجا أو كما يقول موشلير»إن المتكلم لا يقدم قوله كما لو كان وصفا عاديا لكنه بالأحرى يقدم تقييما (إيجابيا أو سلبيا) ، وهو مقتضى وصف القول بالفعل الحجاجي»[19] ، وتشير كل نظريات تحليل الخطاب (تأويلية ، ظاهرية ، تداولية ، لسانية...) في هذا الإطار إلى غياب درجة الصفر في القول ، وإلى غياب استقلال الذات في الخطاب ، ذلك لأن الخطاب لا يستعمل إلا في إطار سياق و مقام معين .

وفي هذا الإطار تؤكد النظرية التأويلية (إيكو) على اعتماد السياق في تأويل الخطاب ، لأن المعاني التي ينتجها الخطاب هي معاني ضمنية تنتج الايحاءات التي يفرزها السياق اللساني (تركيب ،بلاغة ،تضمين...) ،

17- du texte à l'action 103-105

18- Les limites de l'interprétation P : 153

* يميز طه عبد الرحمان بين النتيجة conclusion و النتاج « الميزان ص 115»

19- Argumentation et conversation P : 50

وتكشف عنها العملية التأويلية[20] ، أما النظرية التداولية فتضيف المقام (سياق غير لساني) الى السياق اللساني ليعزز هذه التضمينات والايحاءات ، يقول موشلير : «وقد لا تكون العلاقة الحجاجية بالضرورة علاقة بين عناصر لسانية فقط بل تكون هذه العلاقة من طبيعة ضمنية غير لسانية «[21] .

1-5- خاصية الاعتقاد :

ان استهداف اعتقادات الانسان يمثل احدى الجوانب الأساسية في العملية التخاطبية ، ويشكل رهانا صعبا في كل حجاج ، بالرغم من كون الاعتقادات لاتمثل عناصر مادية ملموسة وتخلو من كل استدلال ذي بعد علمي برهاني ، لذلك ارتبط امر الاعتقاد ببعض القيم الانسانية (تضحية ، نبل ، إيثار) التي عليها مدار الحجاج والتي يراهن عليها المتكلم كي يذعن السامع لما يطرحه من آراء ومواقف .

فالاعتقادات بصفة عامة هي ملتقى الاخلاق المقبولة في مجتمع ما ، خلال حقبة معينة ، حيث تقوم بدور المسلمات او المبرهنات كما في الرياضيات ، لا تقبل النقاش والجدال في كثير من الاحيان ، ولاتخضع للتحليل العلمي والتمحيص الدقيق ، ولا تقوم على قواعد مضبوطة ، بقدر ما تقوم على انساق فكرية ، وعلل تمتزج فيها الاقوال بالافعال ، والمبادئ بالمسلمات والأقوال الكونية بالأقوال السياقية الظرفية... كلها تتفاعل لتؤسس احكام القيمة[22] ، وقد تصبح بعض الاعتقادات داخل جماعة او حزب او حركة ... قيما مشتركة تجمع بين ماهو مادي (مصلحي) وماهو معنوي (اجتماعي أو ثقافي) ، يقول PLANTIN في شأنها «هي تعريفات اجتماعية وثقافية لأشياء العالم ، او قل هي التي يقيمها الانسان في الأشياء اعتبارا لما له من مصالح ، الى درجة انها تشكل في وعيه نقطة لقاء يومية تقوم بتحديد مختلف العلاقات العملية للأشياء والظواهر التي تحيط بالإنسان» [23] ، فالانسان لا يقضي حياته في

20- Les limites de l'interprétation P : 157
21 - Théorie pragmatique P : 50
22- Le juste et le vrai P : 194
23- Essais sur l'argumentation P : 15

المختبرات العلمية لكي يحلل كل الظواهر الانسانية والطبيعية التي يصادفها او يقيم معها علاقات ، إذ غالبا ما يصدر أحكاما نابعة من الذات (عاطفة ، مشاعر ، ذوق...) يبدد فيها كل ما هو عقلاني ، إلى درجة تصبح معها بعض الأفعال حتى الإجرامية منها مشروعة وواجبة ، وذالك تحت تأثير اعتقادي خطير ، كما حدث ويحدث في بعض الجماعات الدينية من انتحار جماعي أو تقتيل همجي ، أو مطاردة الجنس الآخر ، أواقصاء مطلق للآخرين كما في بعض جماعات الميز العنصري ،كل ذلك يتم تحت تأثير اعتقادات وثوقية تتغلف بالدين أو الجنس الخالص...

غير أن هذه الاعتقادات الجماعية لا تفرض نفسها فرضا ، بل يكون لها معنى بالنسبة لكل فاعل[24] ، وهذا المعنى بدوره لاينشأ من فراغ ، بل هو نتاج و حصيلة لعمليات تواصلية اقناعية يلعب فيها الحجاج دورا مركزيا[25] عن طريق صدمات نفسية ومؤثرات لاشعورية تمس الدواخل الإنسانية ،إلى درجة يحول الحجاج فيها ما هو خيالي إلى شيء واقعي وما هو نسبي إلى ما هو مطلق... إنه ليس من باب الصدفة أن نجد المعلم الأول (أرسطو) ينطلق من المشهورات والظنيات والمغالطيات كمقدمات في فنون الجدل والخطابة والسفسطة للإقناع والمحاجة .

1 -6- خاصية الإنتهاض إلى العمل :

إن تأثير القول الحجاجي غالبا ما يدفع إلى رد فعل معين ، قد يكون عملا أو كفا عن عمل أو عدولا عنه أو تحويلا لمساره... وهذا العمل هو الذي يؤكد بالملموس حصول اقتناع معين [26] ، لكن حصول الاقتناع لدى المستمع لا يكون إلا بعد مطابقة القول الحجاجي لفعل صاحبه ، باعتبار المطابقة دليلا وحجة مادية تنسحب على المتكلم وتزكي موقفه وتؤكده ، إنها الخاصية ، التي يسميها طه عبد الرحمان [27] «مبدأ الانتهاض الى العمل» و هي مبدأ اساسي ومحوري ، ليس فقط في الجانب الحجاجي ، بل في كل الجوانب التواصلية

24- أفعال الكلام 130-135
25- Le juste et le vrai
26- أفعال الكلام 134
27- اللسان و الميزان 237

والخطابية والتعاملية ، يعرفها بقوله « هي الدليل الذي يجب اعتماده للعمل به بعد أن يكون الاعتقاد قد حصل » [28] ، مما يجعل القول الحجاجي مرهونا بالاقتناع والعمل ، وفي حالة انتفاء العمل يصبح الدليل على القول حجة ضد المتكلم ، وينقلب الى تبكيت وتهاتف . فالرجل السياسي الذي يدعى الليبرالية مثلا حين لاتتوافق اعماله ومبادؤه يعترض عليه المستمع بقوله :

وأين أنت من الليبرالية وأنت تمارس الاقطاعية والعبودية في حياتك .

وقد يبدو في هذا الاطار أن مطابقة القول للفعل ظاهرة لايمكن التحقق منها دائما ، فقد يكون القول والفعل حاصلين في الظاهر لكن قد يكون ذلك بشكل مؤقت (في زمن ومكان معين) أو بشكل تمويهي لأغراض ظرفية .

2- الإستدلالات الحجاجية : أطرها وطرائقها :

تتميز العملية الحجاجية - بالإضافة الى الجوانب الاستراتيجية والخصائص العامة التي تحدد اطارها النظري والتطبيقي- ، عن باقي العمليات التخاطبية الاخرى ، بتوظيف مجموعة من التقنيات والطرائق الاستدلالية المختلفة ، بعضها عام تشترك فيه مع مجموعة من العلوم النظرية والعلمية (المنطق واللسانيات والخطابة والجدل...) وبعضها الآخر خاص تقتضيه شروط المحاجة كالسياق الحجاجي ، واللغة الحجاجية ، وطبيعة المتخاطبين ، وظروف ومقتضيات القول ، كالتجربة ، وأنواع الحجج والاستدلالات السببية . وعن طريق هذه التقنيات والطرائق يأخذ الحجاج شكله وصورته النهائية ويتحقق في العالم الخارجي كفعل حجاجي ، أي من اللغة الى التداول ، مما يتطلب معالجة مفصلة ودقيقة تحدد مفاهيمها العامة وطبيعة توظيفاتها الحجاجية وغاياتها التداولية .

لقد تطرقت مجموعة من الدراسات المعاصرة لهذه التقنيات والطرائق وخصصت لها حيزا كبيرا في المجال التطبيقي (PERLEMEN, TITIKA, MOESHLER, SIMONIET, ROUNI, PLANTIN . . .) متجاوزة بذلك طرق الاستدلال التقليدية (المنطق الصوري وبعض الانساق المنطقية التقليدية) ، التي اقصت من مجالها البعد التداولي ومبدأ السببية وطبيعة التجربة الإنسانية

28- نفسه

في الخطاب الحجاجي ، فالخطاب الحجاجي لا يتكرر بشكل آلي ولا تحكمه أشكال صورية قارة ، لما تفرضه الاكراهات الخارجية وطروحات مناوئة على القول الحجاجي ، ومن تم تكون الحاجة في كل مناسبة قولية الى ابتكار تقنيات جديدة تلائم طبيعة الخطاب الحجاجي تراعي الترابط الضروري لطبيعة الاستدلال الذي يقود القول الحجاجي من الاسباب الى المقدمات إلى النتائج بهدف تحقيق غايته المرسومة ، لكن هذا لايعني ان القول الحجاجي يولد وينتج في كل مناسبة قولية علاقات سببية ومفاهيم وتعريفات وطرائق وتقنيات جديدة ، حتى لا نصبح امام ركام لامحدود ولانهائي من هذه العناصر ، بل ان المقصود هنا من الابتكار هو أن هذه العناصر لا تحافظ دائما على ثباتها وصلابتها المفهومية والتعريفية والعلية ، ذلك لأن القول الحجاجي يخصبها ويغنيها بمجموعة من الصفات والمعاني الجديدة التي تلائم شروط تداولها ، وتعطيها خصوصيتها الاستدلالية وتضفي عليها القوة الاقناعية الضرورية .

2-1- أشكال التعريف وتوظيفاتها في الحجاج :

يبدو أن اشكالات التعريف او التحديد تفرض ذاتها بإلحاح في هذا الإطار لكونها تعتبر أساسية في تحليل الخطاب عامة ، وتحليل الخطاب الحجاجي خاصة ، لإضفاء الموضوعية النسبية على الأقوال الحجاجية ، لذلك سنقوم بدراسة عامة لمفهوم التعريف ، انطلاقا من بعض النظريات التي لامست اهم الجوانب في العمليات التخاطبية ، التي لها علاقة بالحجاج مباشرة ، كالمنطق والتداولية والعلم المعرفي...

وتأتي اهمية التعريف هنا لارتباطه المباشر بأطر الحجاج وطرائقه واستدلالاته لكونها تتطلب تحديدات دقيقة تميزها عن باقي التوظيفات في العلوم الاخرى أولا وثانيا لان عناصر العمليات الحجاجية تلعب دورا اساسيا في تداول الكلام بين المخاطبين ، انطلاقا من طبيعة الخطاب موضوع القول ، فالحجاج في الخطاب السياسي مثلا يتميز بتقنيات خاصة تؤدي وظائف متنوعة في عملية الاستدلال والاقناع ، كالتعارض والإتساق والتدرج والتضمين... وهي طرائق لا تحافظ على نفس التعريف ولا على نفس الوظيفة ، ولا تؤدي دائما

الى نفس الغاية التي قد نجدها في المنطق او اللسانيات او غيرهما من العلوم ، لكنها تساير في المقابل ، التطور المعرفي الذي لحق مفهوم التعريف عبر مختلف العصور ومن داخل مجموعة من النظريات، وهذا ما سنقوم بمقاربته بشكل عام ومختصر ، كمدخل لدراسة السببية والإستدلال في البناء الحجاجي وطرائقه وآلياته .

مفهوم التعريف :

سنقوم بمقاربة شمولية لمفهوم التعريف من خلال زويا نظر مختلفة ، تصب في صلب موضوع الحجاج ، وتغنيه من الناحية المفاهيمية وتجعله يستثمر في القول الحجاجي بشكل واسع ، مع التركيز على النماذج التي أولت التعريف، مكانة خاصة في التحليل، وفي هذا الإطار نستحضر النموذج التجريدي (ارسطو وتلامذته) ونموذج البنية التصورية (جنسون) ونموذج التعريف الحجاجي (روبريو) .

2-1-1- التعريف في التصور التجريدي :

قام النموذج التجريدي للتعريف لدى ارسطو على الجنس والنوع والفصل*، وفق الشجرة التي حددها فورفوريوس، ونقحها واعطاها شكلها النهائي، وهو ما يعرف بالتعريف الماهوي او التعريف بالجوهر، أي «تعريف الكلمة بمجموع الخصائص الجوهرية للشيء الذي تدل عليه الكلمة المعينة DENOTEE ، انه تعريف يهدف الى الحقيقة أي حقيقة الشيء في ذاته»[29] فالتعريف التالي للانسان :

- الانسان حيوان عاقل .

ينطلق من الصفات الملازمة للشيء (الانسان) أي جوهره وماهيته، ثم ينتقل من الجنس الى النوع ثم الفصل، لكن الاشكال المطروح هنا هو : كيف

(*) هناك من يضيف لهذا التعريف ، الخاصة و العرض

29 - مجهول البيان

يمكن تحديد جوهر الشيء وجنسه ونوعه؟ بمعنى هل الانسان فقط حيوان عاقل؟ ولماذا لايمكن القول بانه حيوان ضاحك؟ او حتى حيوان راجل بدون ريش؟

ومن ثم سيعرف التحديد الماهوي الارسطي انتقادات متنوعة بدءا من الفلسفة الرواقية ، مرورا بالفلسفة العربية ، وانتهاء بالفلسفة المعاصرة ، انطلاقا من اعتبارات غير ماهوية كالإدراك الحسي والمادي . كما نجد ذلك لدى ابن تيمية في رده على تعريف «التعريف»عند ارسطو ، فالتعريف عند ابن تيمية لا يمكن ان يفيد في الأمور العملية ، لأنه تصوير يتعلق بمعرفة الأعيان المختصة ، فذلك لاينفع فيه إلا الحواس الظاهرة[30] ، ومن هنا كانت إضافته لمفهوم «الوضع المتغير» ، باعتباره عنصرا غير قار يوجه التعريف نحو صفات اخرى ، يوضحها ابن تيمية بقوله : « ان الصفات الذاتية والعرضية تستند الى الوضع وهو متغير دوما ، لأن الحاجة الإنسانية لا تستقر ولا تسكن» ، ومن هنا لا نستطيع وضع حدود أبدية ثابتة مستقرة ، في أي علم من العلوم ، ما دامت هذه العلوم تتغير باستمرار[31] ويستمد موقف ابن تيمية وجاهته من كونه يفتح مجال التعريف امام الصفات الذاتية والمتغيرة في الانسان ، والتي تخضع للحاجة والضرورة من جهة ، ومن كونه يحرر مفهوم التعريف من سلطة العلم الخاص والوحيد (المنطق) من جهة أخرى ، فلكل علم رؤية معينة لمفهوم التعريف يستمدها من موضوعه ومن منهجه الخاصين ، ففي العملية التي تخص الخطاب السياسي مثلا لا يحدد الشيء بالصفات الملازمة (الجوهر والماهية) ، لأنها معروفة لدى المخاطبين ولا تزيد ولا تنقص من قدراتهم الإدراكية ، و لا تقوم بتفعيل رغباتهم ولا إثارة انتباههم ، بل يحدد الشيء بالأبعاد الذاتية او الخفية التي قد تكون ذات طبيعة نفسية او اجتماعية اواخلاقية ، تستند الى العلاقات القائمة بين الشيء وتحديداته ، كعلاقة الملابسة وعلاقة المفارقة وعلاقة التعارض ، او بناء على قاعدة مشتركة تستعمل في الغالب كمدخل للحجاج بهدف الاقناع بشكل احسن[32] .

30- الرد على المنطقيين ص 69

31- نفسه 69-72

32 - Eléments de rhétorique et d'argumentation 97

2-1-2 - التعريف في الدلالة المعرفية

في سياق النقد الموجه للتعريف الارسطي ، تبلورت مجموعة من الاتجاهات خلال العقود الثلاثة الاخيرة ، كان لها دور مهم في تطوير مفهوم التعريف ، وذلك بربطه بمجموعة من الحقول المعرفية الانسانية ، وإدماجه داخل مفاهيم جديدة كالسيرورة التأويلية اللامتناهية والسياق ومدار الحديث ، وتوظيف مقومات بعيدة عن الحقيقة الجوهرية للشيء التي قد تكون غير ملازمة لطبيعته الماهوية .

ويمثل في هذا الإطار أصحاب الدلالة المعرفية اتجاها مغايرا» للوضعية» الارسطية ، متميزا عن باقي النظريات السابقة حيث اعتمدوا على البنية التصورية كمصطلح جديد ، وبديل عن التعريف الماهوي الأرسطي ، انطلاقا من اعتبارات دلالية وتداولية تصورية . حيث توظف البنية التصورية في التعريف كل المعلومات اللغوية والحسية والحركية[33] ، متجاوزة بذلك بعض المفاهيم التي لم تعد تؤدي وظيفة محددة الغاية في العملية التعريفية (كالمعجم والموسوعة) ، مستندة في المقابل الى النسق التصوري ، الذي تشكله وتوجهه التجربة اليومية في حياة الانسان ، وما تقيمه هذه التجربة من علاقات تربط بين الانسان والعالم ، ذلك لأن جل التصورات تفهم جزئيا بواسطة تصورات اخرى ، هي التي تتحكم في سلوكاتنا اليومية ، وتبنين ما ندركه وما نستعمله من كلمات كما تبنين الطريقة التي نتعامل بها مع العالم[34] .

ويتضح هنا ان الامر لا يتعلق فقط بالاشياء المنعزلة بل في علاقتها بالحدث الناتج عن التفاعل بين الكلمات والتجربة ، ذلك لأن خصائص الأشياء لاتكون ملازمة لها ، بل هي خصائص تفاعلية[34] ، وبذلك لا تنطلق عملية تعريف الشيء من فراغ (أي من تعريفات مسبقة) بل تخضع للتجربة الواسعة وللفهم المتداول ، فإذا اخذنا مثلا صفة او خاصية «جيد» فهي تعني قاطع بالنسبة للسكين ، ومريح بالنسبة للكرسي ، وماهر بالنسبة للعازف...وهي معاني غير

33- التوليد الدلالي في البلاغة و المعجم
34 - الاستعارات التي نحيا بها

واردة في البنية المعجمية ولا في المعارف الموسوعية ، ومن هذا الجانب تتدخل البنية التصورية في التعريف بحيث تتعدى حدود اللفظ الى ما يمكن ان يربطه بغيره من الالفاظ والتصورات ، بواسطة علاقات ينسجها الفكر انطلاقا من ابعاد مختلفة نذكر منها :

- بعد إدراكي : وأساسه تصور الشيء بواسطة الجهاز الحسي .
- بعد غرضي : واساسه تصور الشيء في استخداماته الممكنة .
- بعد وظيفي : وأساسه تصور الشيء في وظيفته .

لكن هذه العملية المركبة في التعريف تأخذ مسارا آخر في الحجاج لدواعي تتعلق باستراتيجية القول وبعملية تكتيكية في توظيف آليات وطرائق وتقنيات المحاجة ، حيث يكون التركيز على مجموعة من الخصائص الملائمة بصرف الانتباه عن الخصائص الاخرى التي يمكن إلغاؤها من مجال التداول القولي ، فحين ننجز اثباتا ما ، فإننا نقوم بانتقاء وابراز خصائص تؤدي دور الإثبات وترتبط بغرض الاستعمال ، ونلغي في نفس الوقت خصائص أخرى . وهكذا فمقولة «الكرسي» مثلا ليست محددة بشكل صارم من خلال تلازمه في ذاته (الماهية) لكنها تحدد تبعا لأغراض الفهم الانساني واستعمالاته المتعددة ، اذ تصبح فقط فرضية لمقولة غيرثابتة قابلة لكل الاضافات والتوسيعات ، قد تخرجها من مجال الحقيقة الى مجال المجاز ، ف : «كرسي جامعي» يعني وظيفة استاذ في الكلية ، و«حقيبة وزارية» تعني مهمة داخل الحكومة و الاقتصاد المتسارع ، الطريق السيار للمعلومات الخ... وهذا الانتقال من التصورات المحسوسة الى التصورات المجردة يقرب الفهم ويؤدي وظيفة مقبولة ومركزة ، وهذا ما دفع «جونسون ولايكوف» الى ادخال التعريف الاستعاري كمكون اساسي في النسق التصوري لجل المقولات الحقيقية منها والمجردة ، فالفهم الجيد حسب المؤلفين لا يحصل من خلال تصورات منعزلة ، بل يتحقق من خلال اعمال مجموعة من الأجهزة التفكيرية (الجهاز الادراكي والجهاز الحركي والقدرات الذهنية) والمكونات النفسية (العاطفة والتأثر والانفعال) في ارتباطها بالمحيط الفيزيقي من جهة وفي تفاعلهما مع الغير باعتباره اطارا مؤسساتيا او اجتماعيا او ثقافيا او سياسيا او دينيا .

2-1-3- التعريف الحجاجي :

لقد اعطت هذه الطروحات والافكار المتعلقة بمفهوم التعريف شحنة قوية للدراسات الحجاجية ، ادت الى تدقيق مفاهيمها ومصطلحاتها وانتقلت من التوظيف المباشر لهذه الافكار الى التوظيف المبني على دراسة متخصصة وملائمة لطبيعة العمليات الحجاجية ، وهكذا يعد العمل الذي قام به روبريو[35] في اطار ربط التعريف بمجال الاستدلال والاقناع الحجاجين ، من الأعمال المهمة والانجازات الحدثية ، حيث جعل من التعريف دليلا حجاجيا في الاقناع ووسيلة ناجعة في بناء القول وتزكية الأطروحة ...وقد قسم «روبريو» التعريف الى ثلاثة انواع ، يوظف كل نوع بطريقة دقيقة وفق الشروط الداخلية والمقامية للحجاج ، وحسب الدواعي التداولية الخاصة بها وهي :

أولا : الأشكال المنطقية للتعريف .

ثانيا : الأشكال البلاغية للتعريف .

ثالثا : التعريف بالمقارنة والمخالفة .

إن هذه الاشكالات التعريفية الحجاجية بصفة عامة قد لاتعد ابتكارا او من باب الخلق والابداع ، لكن الجدة فيها تكمن في طريقة تصنيفها أولا ، وفي طريقة توظيفها ثانيا ، وفي طريقة عرضها ثالثا ، وذلك في علاقتها بالعمليات الحجاجية كاستراتيجية عامة للقول في ارتباط وثيق بخصائص المقام والسياق بمراعاة الطبائع الذاتية للمخاطبين (حالات نفسية اجتماعية ، ثقافية وسياسية وعقدية) .

لذلك سيكون اهتمامنا موجها نحو تدقيق القيمة التداولية لهذه الاشكال التعريفية في بعدها الحجاجي بالدرجة الاولى ، لان هذا البعد هو بمثابة بوابة لدراسة طرائق الحجاج ووسائله التكتيكية التي تستدرج المستمع الى ارضية خصمه وتجعله ينساق بسهولة نحو تقبل القول أوالفكرة .

Eléments de rhétorique et d'argumentation 96-111- 35

وبالرغم من كون هذه التعريفات تأخذ صيغة «الأشكال» فإن الموضوعية دائما لاتكون اساسا لها ولا الصحة المنطقية قاعدة لها ، فقد تأخذ ظاهريا هذه الصفات وتخفي اشياء لايقوى التفكير على ابرازها وفك رموزها مباشرة .

وانطلاقا من الأهمية التي يكتسيها هذا التداخل الظاهر والخفي ، في الأشكال التعريفية ، وما تتيحه من إمكانات خصبة ، يمارس الخطاب الحجاجي قوته ويبرز مؤهلاته داخلها ، سنقوم بتقديم المرتكزات الأساسية لهذه النماذج التعريفية الحجاجية .

- الأشكال المنطقية للتعريف :

يعرفها «روبريو» بقوله : «ان نعرِّف ، يعني أن نقيم علاقة تعادل او تكافؤ بهدف اعطاء معنى لمفهوم ما ، يشكل التعريف في الغالب مدخلا للحجاج ، لأننا نحتاجه حينما نريد تحديد مفهوم حتى تكون هناك ارضية تقوم على قواعد مشتركة بين المخاطبين من أجل إقناع احسن» وفي هذا الإطار يقدم المنطق مجموعة وسائل للتعريف منها :

- التعريف بالمفهوم والمصادق :

وظف هذا التعريف بشكل واسع في علوم مختلفة ، وهو طريقة تعريفية يكتمل فيها المفهوم بالماصدق ، فالتعريف بالماصدق يتم عن طريق تقديم الخصائص المميزة للشيء بشكل تجريدي ، فمتحف البطحاء مثلا ، هو المتحف المخصص للفنون الشعبية خلال القرن(18) اما تعريفه بالماصدق فقتضي تعداد العناصر التي يتكون منها المتحف ، وذلك بذكر افراد المجموعة التي تضم : ألبسة واسلحة وآواني فخارية ونحاسية وخشبية ويحتوى على أروقة تقليدية وتتوسطه حديقة ونافورة .

وتتميز القيمة التداولية لهذين التعريفين في البعد الحجاجي للقول ، بكون التعريف بالمفهوم يتجه نحو اختيار مركّز ومستوعب لكل التفاصيل ، بحيث يؤثر على المستمع ، ويوقعه بشكل موضوعي أو زائف في شراك الموضوع الذي يطرحه المتكلم مثل : هذه «السلع أجنبية» أو«دمقراطية غربية» و لكون التعريف بالمصادق يتوخى التفصيل والتدقيق ، حتى يحيط بالموضوع ، ويبرز

كل الخصائص الدالة على الشيء والمؤثرة في الغير ، دون أن يكون التطويل غاية في ذاته ، بل لغايات حجاجية تستدعيها ضروروات تأثيرية حجاجية مثل : «الحرية سلوك يتجسد في ممارستنا و ثمرة مؤسساتنا وشكل لخطاباتنا وترجمة لنزوعاتنا وتفاعل متواصل يتوطد ويتطور عبر انشغالنا الدائم .»

- **التعريف التفسيري :**

يتطلب اللفظ او القول في أحيان كثيرة تفسيرات توضحه نظرا لخصوصية اللغة الطبيعية المفعمة بالغموض ، من جهة ، ونظرا لإلحاح الانسان في طلب التوضيح والتفسير أكثر ، من جهة اخرى ، لذلك تظل كل الكلمات نصوصا مفتوحة تتوارد عليها تفسيرات متعددة للتدقيق أو التحديد او التوسيع او لتميز المشترك في اللفظ او القول ، توظف لغايات متعددة نذكر اهمها :

أ- النفاذ الى جوهر الشيء المراد تعريفه أو الموضوع المراد طرحه ، خصوصا إذا تعلق الأمر بالأشياء المجردة او المستعملة في مجالات متنوعة ، وقد تكون متناقضة ،كتعريف الديموقراطية أو الاشتراكية مثلا ، فالإشتراكية يمكن تفسيرها انطلاقا من مبادئها وأفكارها وتوجيهاتها وكذلك الديمقراطية ، لكن العملية الحجاجية هي التي تجعل هذا التفسير ملائما ومقبولا في إحدى الاديولوجيات لدى المستمع أو غير مقبول .

ب- الانتقال من شيء لآخر ، عن طريق تفسير يحول انتباه السامع أو السائل من موضوع الى موضوع ، تتثيره العملية التفسيرية دون وعي منه ، خصوصا إذا كان المتكلم في وضعية حرجة من مسألة مطروحة للإيضاح ، فيحاول ادراج تفسيرات متعددة حتى يخرج من المأزق ، ويكثر استعمال هذا النوع في الخطاب السياسي ، فحين يتعرض السياسي لتفسير»الحد من التضخم» تطرح عليه مجموعة من التفسيرات تكون سلبية ، كالزيادة في البطالة والحد من الاجور... ولايستطيع تجاوزها إلا بإدراج تفسيرات اخرى ، كالتقليص من الديون الخارجية والحد من عجز الميزانية والاستثمار الأجنبي وفتح المقاولات الصغرى...وهكذا يتبين أن هذه التفسيرات تؤدي الى تحويل انتباه المستمع وتجعله ينسى او يتناسى الموضوع الأساسي ويصبح أمام موضوع آخر هو نقيضه (البطالة : إدماج الشباب في المقاولات) .

- **أشكال منطقية آخرى للتعريف .**

هناك بعض التعريفات الحجاجية الثانوية التي تستخدم عند الضرورة القولية ، إما لتوسيع تعريف الشيء أو تأكيده أو إثارته في القول ، **كالتعريف بالوصف** مثل :

أ - يواجه قصر الإليزي اقتراحات قصر ماتينيون .

يشير التعريف الوصفي الأول إلى رئاسة الجمهورية و الثاني إلى رئاسة الحكومة لتوجيه المستمع نحو مصدري القرار الإقتصادي والسياسي والاجتماعي .

التعريف الاجرائي الذي يستعمل حين يتعلق الامر بتعريف سريع لمفهوم معقد كالتعريفات العلمية التي يوظفها الحجاج كمعادلة علمية لمفهوم الشيء وبطريقة ضبابية في احيان كثيرة كأن نقول ؛

ب- السياسية هي الأكسجين الذي نتنفسه .

وهذا التعريف الإجرائي غالبا ما يكون مدخلا غير مرفوض لتعريفات اخرى قد لاتكون إجرائية .

2-1-4 - الأشكال المجازية للتعريف .

هي أشكال تقوم بدورغير مباشر في تعريف الأشياء والموضوعات ، بحيث تستنتج من العلاقات القائمة بين الألفاظ والتراكيب داخل القول ، دون ان تقيم علاقة تعادل او تكافؤ منطقية بين الأشياء ، وهي تعريفات لاتتوخى الدقة والوضوح ، بل تعمل على تجميل القول او الفكرة للتأثير على مخيلة السامع وإيهامه بأن الشكل المجازي لتعريف موضوع ما ، هو نفسه الشكل المجازي لموضوع آخر مثل :

- العولمة طريق سيار يسمح بقطع المسافة في ظرف وجيز .

وتكون هذه الأشكال المجازية للتعريف مشحونة بالعاطفة والايحاء ومن ابرزها نجد :

- **التعريف الموجه :**

وهو تعريف «جديد» لمفاهيم معروفة عن طريق اللعب بالكلمات وترتيبها في قالب جديد وفي صورة قولية لامعة ، تغطي بها صورتها الحقيقية أوالقدحية ، وفي هذه التعاريفْ الحجاجية يجد الخطاب السياسي ذاته ومرتعه ، اذ تتيح له إمكانات متعددة لتوجيه المستمع او الجمهور نحو أهدافه ومراميه الخفية ، عن طريق شحن الخطاب بتعاريف لها دلالات رمزية ، أو دينية ، أوديولوجية» . فالثروة الفاحشة بطرق غير قانونية «تعرّف وتفهم انطلاقا من»الارزاق بيد الله» - في الدول الاسلامية - ، كغطاء حامي لكل سؤال : من اين لك هذا ؟ كما تفهم السوق الحرة في هذه الدول بالمضاربة الشرسة والاحتكار والتملص الضريبي وغيرها من المفاهيم التي تشحن بدلالات غامضة وتغليطية مثل (الجهاد ، الحرية ، المساواة ، حقوق الانسان ، التفضيل...)

ولعل المثال الذي أورده «روبريو» في تعريف العنصرية تعريفا موجها ،يعد أحسن دليل على هذا التغليط المقبول والمؤثر : «فالعنصرية هي نظرية تراتبية الاجناس تقود الى ضوررة الاحتفاظ بالجنس الاعلى واعطائه الحق في السيطرة على الآخرين»*

فكل واحد لديه شيء من الأنانية وحب ذاتي لجنسه أو لغته او دينه أو اديولوجيته سيؤثر فيه هذا التعريف ويوجهه نحو إقصاء الآخر وإلغائه من منظومة الوجود .

- **التعريف المكثف والشعار :**

يشكل هذان التعريفان سلطة قوية في تحريك شعور المخاطبين خصوصا في مجال الاشهار والخطاب السياسي ، حيث يوظفان الجمل القصيرة كقيم حجاجية تحمل صفة التعريف المكثف او الشعار ويجعلان من القول الحجاجي أداة منبهة ومحفزة لرد فعل قوي وسريع ، ويرجع ذلك إلى سببين اثنين :

الأول : لأن الناس يحبون في الغالب ماهو جامع ولامع ، وكل ما يصدم المخيلة .

---

* تعريف العنصرية حسب Petit Robert

الثاني : لأن الناس يرتاحون للأحكام الجاهزة التي تجعل قدرتهم التأويلية معطلة تقريبا .

وتظهر قوة التعريف المكثف في الاقناع كما في المثالين التالين :

-« المدارس سجون تروض البرجوازية داخلها أطفال العمال وتجعلهم يفهمون تراتبية الدولة ومن ثمة تخضعهم لسلطتها» .

إن ما يصدم المخيلة في المثال : هو«المدارس سجون» فهو في ظاهره شبه معادلة لكنه يستبطن تعريفا استعاريا محفزا ومؤثرا لدى الطبقة البرجوازية الاستعمارية ، بدفعها إلى بناء مدارس في المستعمرات ، و تبرر ذلك الفعل بكونه يخدم مصلحتها وبالتالي يشجع اصحاب رؤوس الاموال على بناء المدارس .

- الديمقراطية هي حكم الشعب بالشعب :

أي حصر الديمقراطية في الانتخابات ، و هذا التعريف للديمقراطية جد مكثف وغامض يستميل عواطف الجمهور و متخيلهم البسيط حول الديمقراطية ، فهذا التعريف المكثف يوقع الديمقراطية في نوع من الشعبوية ، فقد تختار أغلبية الشعب ممثليها عن طريق انتخابات حتى ولو كانت نزيهة وشفافة ، لكن هذا الاختيار قد يفضي إلى نظام دكتاتوري أو ديني متعصب او نظام ضارب عرض الحائط بحقوق الانسان ، إن الانتخابات أو صناديق الاقتراع الزجاجية تعتبر فقط عند المتوسط العام ثقافة سياسية سائدة ، ومن المحتمل جدا أن تكون هذه الثقافة السائدة مخالفة لثقافة متشبعة بحقوق الانسان* ، في حين أن حقيقة الديمقراطية أعمق من ذلك إذ هي البنية الناظمة أو المنظمة للحياة العامة ، إنها أسلوب في الحياة .

كما يستعمل التعريف الحجاجي بالشعار خصوصا في التجمعات الحاشدة لتوجيه الجماهير باختلاف قدراتها الفهمية والتأويلية ومستوياتها الثقافية والعلمية ، نحو فكرة أو قضية معينة فيثير فيهم ذلك رد فعل مباشر وملموس (ترديد الشعار ، الهتاف ، الصفير...) إن هذا النوع من التعريف

* علي أو مليل جريدة الاتحاد الاشتراكي 2000/1/6

يوحي بشعور رهيب يوهم بشيء ممكن التحقق ، او قول متحقق في الوقت الذي يردد فيه الشعار . وينسحب ، هذا التعريف على الشعارات الوطنية والقومية والثورية وشعارات الحملات الانتخابية (السياسية) ولافتات الندوات والتجمعات و اللقاءات ، فهي احسن نماذج تفسر وتؤكد القوة التعريفية في الحجاج كما في :

التعريف بالشعار الثوري : - الحرب الثورية هي حرب الجماهير الشعبية(ماو)

- الثورة الصينية هي في العمق ثورة الفلاحين (ماو)

التعريف بالشعار القومي : يكفينا يكفينا من الحروب ، أمريكا أمريكا ، عدوة الشعوب .

الشعار الوطني : إنا حلفنا القسما ألا نخون الوطن شعارنا يحيا الوطن .

الشعار الحزبي (الانتخابي) : اشتراكية هي البديل والتضحية هي السبيل .

شعار اللافتات مثل : تنظم النقابة الوطنية للتعليم العالي مؤتمرها الوطني 2000 تحت شعار «الإصلاح الجذري للتعليم العالي والبحث العلمي ، حتمية الحاضر ورهان المستقبل ، كرامة الأستاذ الباحث هي أساس ربح هذا الرهان .»

كل هذه الشعارات تقدم تعريفات مكثفة كمعادلات رياضية بين شيئين او فكرتين وتجعلهما متضامنين وغير قابلين للانفصال=(بأداة المقارنة «هي») فالثورة الصينية تساوي ثورة الفلاحين وتلغي امكانية اختيار بدائل اخرى كثورة التجار او الموظفين . وتقف على نقط حساسة لدى جمهور الفلاحين كالفقر والحرمان والاستفادة في مقابل مايقدمه الفلاحون من خيرات ومجهودات لخدمة الوطن ، وبالتالي فالثورة هي ثورتهم ، وتقدم الوطن كفيل بتحقيق وإنجاز الثورة .

2-1-5- التعريف بالمقارنة والمخالفة :

-**التعريف بالمقارنة** : وهو طريقة ملائمة لتعريف الشيء او المفهوم بتقريبه او تميزه عن الأشياء الاخرى المحيطة به عن طريق اختيار قرين له بسيط معروف جيدا ، ويمكن اعتبار هذا التعريف المقارني وسيلة بيداغوجية فعالة ، فلكي نعرف العملية المعقدة لنزول المطر مثلا نقارنها ب» آلة الضغط البخاري»

وتكون هذه الوسيلة التعريفية الحجاجية مغلطة ومبتسرة في عمومها ، إذ لاتقدم كل المعطيات والمعلومات التي تبين وتوضح طبيعة المقارنة وجزئياتها ، عكس التمثيل الذي يقدم المبدأ الواضح لحالات التشابه الممكنة (مجازية او ضمنية او خفية...) بل تكون المقارنة سريعة تعتمد على تشابهات غامضة كمقارنة الليبرالية الامريكية «باليمين» في المغرب .

وتقدم المقارنة في الحجاج على شكل معادلة بسيطة تستغل وضوحها المفترض من أجل التمويه والتلاعب بالمفاهيم حيث تغيّب تماما الاختلاف او التعارض المرتبط بالمعارف المختلفة والناتج عن السياقات المتباينة ، الأمر الذي يسهل تكذيب وتفكيك هذه المقارنة ، بالعودة الى المعارف والسياقات الأصل ، ففي المثال التالي تظهر بوضوح مفارقة التعريف بالمقارنة :

ارتكب جوسبان رئيس الحزب الاشتراكي الفرنسي خطأ في تصريحاته بلبنان ، باتهامه حزب الله بالحركة الارهابية فتم تعميم هذا الخطأ على كل الاشتراكين في العالم (منهم الاتحاد الاشتراكي في المغرب) والذي اعتبرته بعض التيارات الاخرى معاديا لحزب الله فكان رد احد الصحافين على هذا الاتهام عن طريق فك هذه المقارنة التغليطية بقوله :

-جوسبان ليس اتحاديا .*

ويأخذ التعريف بالمقارنة اشكالا متنوعة منها العام (وهو الذي سبق تحليله) ومنها الخاص ويتمثل في مفهومي : الكم والكيف وتستعمل فيها اسماء التفضيل وصيغ المبالغة .

الكم : عن طريق المقارنة تستعمل بعض الأسماء والصيغ مثل : اكبر ، اصغر ، اوسع ، وارحب وفسيح .

- إن المجال السياسي ارحب واوسع مجال لممارسة الديموقراطية !
- ان طريق الجهاد في سبيل الله اقرب طريق الى الجنة !

اذ يتم حصر المفاهيم العامة عن طريق المقارنة الكمية داخل مفاهيم مبهمة وعامة حيث تبدو وحيدة وواحدة وتلغي ما يمكن مقارنته من افكار ومفاهيم اخرى بالمفهوم الأول .

* جريدة الاتحاد الاشتراكي حديث المحرر حسن نجمي

الكيف : عن طريق المقارنة ب : احسن ، اجمل ، رفيع ، ثمين .

- إنه احسن رئيس

- إنه احسن **مرشح**

- **إنها اجمل** طريقة للتغير .

وهي مقارانات معيارية تقوم بدور التفضيل والتنزيه ، وتخفي اشياء اخرى كأن لاوجود لشيء آخر ، يقوم مقام هذا الشيء الموجود حاليا ، وإلا سوف يكون اختيار الأشياء الاخرى دونيا وناقصا .

وهناك بعض المقارنات الحجاجية التي تكون ضمنية (مجازية) او ملتبسة او غامضة تجمع في الغالب بين اشياء ثانوية لاتكون مقصودة ولاموجودة في الفكرتين او المفهومين معا ، انطلاقا من ظاهرها ، تتطلب التوضيح المباشر بعد القول ، مثل :

- الوظيفة العمومية تجعل من الانسان زاهدا .(أي الملل والروتين) .

- التعريف بالمخالفة : وهو تعريف يأتي على عكس التعريف بالمقارنة في الاهداف والآليات والغايات ويتعلق بمقارنة سلبية وغير متعادلة بين الشيئين او المفهومين او الفكرتين ، اذ يتم التميز بينهما وفصل الواحد عن الآخر دونما اعتبار للقواسم التي قد يشتركان فيها ، ويهدف هذا التعريف الى التقليل من شان بعض الأشياء والرفع من قيمة الأشياء الاخرى ، ويوظف بكثرة في الخطاب الإشهاري ، حيث تدل فيه المقارنة دائما على الفكرة التالية «احذروا التقليد» . «اكتشفت احسن طريقة للمحافظة على البشرة جربت ، كل المنتوجات الموجودة ولم تنفع وأخيرا وجدت...» .

كما يوظف في الخطاب السياسي مثل :

- «لقد جربتم على ما يزيد عن اربعين سنة مضت كل الاحزاب التي حكمت المغرب ، وأنتم تعرفون الوضعية الاجتماعية والاقتصادية... التي وصل إليها بلدكم ، وتعرفون الأحزاب التي لم تحكم والتي ناضلت الى جنابكم ولها برنامجها الخاص لقيادة المغرب» .

فالتعريف بالمخالفة في الخطاب الحجاجي قد يقلص من دور الحجة والدليل ، ويفتح المجال للتبرير ، قد تصبح معه ممارسة الفعل من جانب الشخص او المؤسسة (سياسية ، دينية ، اقتصادية...) محرمة على الآخرين لاعتبارات تميزية غامضة قد تعتمد على المعيار او «الطابو» او حتى السلطة المعنوية مثل :

- انا لست مثل الآخرين .

او مثل الفقيه في الثقافة المغربية الذي يعمل بقوله ولايعمل بسلوكه :

«افعل ما اقوله لك ولاتفعل ما أفعل »

2-2- السببية في الممارسة الحجاجية :

إن التفكير في الحجاج لا يمكن أن يقصي التفكير في السبب ، ذلك لأن الممارسة الاستدلالية ليست وقفا على علم دون أخر ، فهي كما تكون في العلوم البحته تكون في العلوم الانسانية ، حيث تشكل الأرضية الاساسية لعدد من الاستدلالات اليومية ، لكن مفهوم السببية وعلاقاته بالظواهر الطبيعية يثير كثيرا من الاشكالات الفلسفية والعلمية كما طرحها «PLANTIN» في كتابه [36] على شكل تساؤلات .

- ما السبب ؟ ما الأثر؟ ما طبيعة العلاقة التي تجمع بينهما .
- ما القانون العلمي ؟ مامعنى أن نفسر؟ مامعنى الفهم؟ ما المعرفة ؟
- هل كل معرفة هي من نوع سببي؟ هل هناك نموذج سببي موحد للعلوم البحثة؟
- ماذا نفعل بالاحتمالية؟ وهل هناك حظوظ كبيرة في انتصارها؟ وهل معنى هذا أننا نجهل السببية؟ وهل هناك علاقة عقلانية واحدة؟
- هل تحكم الحتمانية * DETERMINISME العالم الفيزيقي ؟
- هل هناك نموذج سببي يطبق عليالعالم الفيزيقي كما يطبق على العالم النفسي ، أو الاجتماعي ؟... .إلخ .

*Essais sur l'argumentation

* السببية في الفزياء الكلاسيكية ، دراسة ابستمولوجية ترجمة عبد السلام بنميس [الحتمانية Déterménisme]

من المعروف أن مفهوم السببية يعد من المفاهيم الأساسية التي تأسس عليها العلم التجريبي «فالعلم هو معرفة الأسباب[37]» كما يقول ، أرسطو وقد شكل هذا المفهوم عبر العصور موضوعا للنقاش بين الفلاسفة والعلماء ورجال الدين ، نظرا لقيمته في المعرفة العلمية والمعرفة التجريبية وذلك بإغنائه بمجموعة من أصناف « الأسباب التي كان أرسطو قد حددها في : الصورية والمادية والفاعلة والغائية .

إن مبدأ السببية يعتمد على الضرورة التي تحكم قوانين العلم التجريبي ، وهذه الضرورة هي ربط الأسباب بالنتائج (لا دخان بدون نار ، أو النار تنتج عنها الحرارة) ، باعتبار أن السبب ظاهرة لا توجد في ذاتها بل توجد في علاقتها مع ظواهر أخرى ،[38] أو هو كما يقول «مارسيليون «ليس السبب إلا مبدأ الذاتية مطبقا على وجود الأشياء في الزمان[39] ، أما «كلوديرنار» فيربط السببية بالحتمانية حيث اعتبر أن كل الظواهر الطبيعية محكومة بظروف حتمية تحدد نشأتها أو تغيراتها أو اندثارها في الزمن والمكان[40] .

وقد كان لمفهوم السببية دور مهم في عملية تفسير الظواهر المتغيرة في الطبيعة داخل الزمن والمكان ، عن طريق ترابط الوقائع فيما بينها سببيا ، سواء أكان هذا الترابط واضحا أم خفيا ، لكن هذا التصور الكلاسيكي للسببية سيعرف نقدا حادا من قبل الفيلسوف الانجليزي «دافيد هيوم» الذي خصص جزءا كبيرا من أعماله الفلسفية لتحليل السببية باعتبارها أساس كل الأحكام المتعلقة بالوقائع التجريبية ، أي أساس كل معرفة علمية ،[41] و المعرفة لدى هيوم ، لها مصدران إثنان : هما الانطباعات والأفكار ، والفرق بينهما يقابل الفرق بين الإحساس والتفكير ، فالإحساس هو عملية أولى وبسيطة وضرورية ، تسبق العملية الثانية أي التفكير ، باعتبارها ظاهرة معقدة . والعلاقة بينهما هي علاقة فلسفية وطبيعية في نفس الوقت[42] أي العلاقة التي تجمع بين

37- السببية ، دراسة ابستمولوجية ص 14
38- نفسه ص 19
39- نفسه ص 19
40- نفسه ص 20
41- نفسه ص 41
42- نفسه ص 51

السبب والنتيجة ، والبحث في وعن هذه العلاقة يعد جوهر السببية ، باعتبار أن الترابط هو الذي يحكم العلاقة وهو الذي يحدد مبدأ المجاورة في الزمن والمكان سواء كانت المجاورة والترابط قريبين في الزمن والمكان أو كانا بعيدين ، وفي هذه الحالة يتم ترابطهما عن طريق الأسباب والنتائج الوسيطة أو الفرعية المجاورة .

إن فكرة الترابط الضروري التي تسمح بتحديد طبيعة العلاقة بين الأسباب والنتائج هي ذات طبيعة استدلالية ، أي أن الاستدلال يقودنا من الأسباب إلى النتائج ، وهذا الاستدلال ليس واحد أو وحيدا في كل العلوم والمعارف ، بل يختلف من مجال إلى آخر حسب الشروط الداخلية والخارجية التي تحدد العلاقات القائمة بين الأسباب والنتائج «ففي ميدان المعرفة البرهانية ، نحن نمارس التعقل على العلاقات بين الأفكار ، بينما في المعرفة غير البرهانية نمارس التعقل على انطباعات ، أي على معطيات حسية أو مباشرة أو معطيات من أصل حسي تم تخزينها في الذاكرة أو المخيلة . ثم حصل تذكرها لأغراض تعقلية . »[43] وهذه العملية الاستدلالية التي تقوم باستنتاج موضوع من آخر أحدهما السبب والآخر النتيجة لا ينبغي أن تتوقف على جوهر الموضوعين فقط بل قد تتدخل مجموعة من الخصائص العرضية التي ترافقهما عبر الزمن والمكان لتحدد العلاقة القائمة بينهما . ذلك لأن التجارب الإنسانية وعمليات الذاكرة تحافظ على علاقة الترابط المستمر بين خصائص الموضوعات كيفما كان نوعها ، إذ تساعد على ضمان العلاقة بين الأسباب والنتائج عبر الزمن (نار حرارة) دون أن نستطيع في بعض الأحيان إقامة استدلال نبرهن به على أنه ينبغي أن يكون هناك تشابه (أو ترابط) بين الموضوعات التي هي حاصلة خارج ميدان تجاربنا كالحرارة والنار ، يقول هيوم «ليس لدينا أي تصور آخر حول الأسباب والنتائج . باستثناء الذي يتعلق بموضوعات كانت دائما مترابطة في كل الحالات الماضية ، إذ لا يمكن للعقل البشري أن يفهم علة هذا الترابط ، فنحن نلاحظ هذا الترابط ، ونعتبر دائما أنه وبفضله تترابط الموضوعات

43 - نفسه ص 56

بالضرورة في المخيلة[44]» ، وهذا ما يسمح للانسان بالانتقال من انطباع إلى آخر ويسمح كذلك بتشكيل أي اعتقاد جديد حول موضوع أو ظاهرة ما .

إن الإعتقادات في الأخير ليست حقائق علمية أو برهانية أو قوانين صارمة ملزمة ، بقدر ما هي حقل للتفاعل الإنساني ومجال للبحث والتأويل ، إنها مواضيع عامة تثير عبر الزمان والمكان نقاشات وجدالات تسعى إلى تثبيتها أو نفيها . كما يسعى الناس خلال حياتهم اليومية وفي مجالات استغالهم إلى البحث عن وفي هذه الاعتقادات لتعديل أو تغيير أو التخلي... عن أراء وأفكار بكل حرية واختيار ، وليس الحجاج إلا طريقا من بين الطرق التي تسمح بتحقيق هذه الغايات .

- السببية والمجاز في البنية التصورية :

يمكن تلخيص هذه الأفكار في أن ظاهرة السببية* هي خطاطة ذهنية يوظفها الحجاج دونما سعي إلى تحقيقها كما هي ، لما يرتبط بالسببية من أبعاد أخرى : نفسية واجتماعية وتداولية ، ويختار الحجاج الأسباب التي تساهم أحسن في الإقناع ، وتلائم الهدف المنشود ، حسب الاستراتيجية المتبعة ، فالإجابة على السؤال التالي :

-لماذا حصل الطالب على نقطة سيئة في الاختبار ؟

يعود ذلك إلى مجموعة من الأسباب المختلفة منها :

* لأنه لم يراجع دروسه
* لأنه مريض
* لأن سلوكه كان عائقا

وكل هذه الأسباب الممكنة وغيرها ، يمكن اعتبارها أسبابا ، حتى ولو كانت نماذج من تفسيرات مختلفة تعارض الواحدة الأخرى ، أو تلغيها .

كما يمكن تصنيف هذه الأسباب إلى :

---

44 - نفسه ص 58 - 59

* السبب أصله الحبل .[اللسان] ثم قيل لكل شيء وصلت به إلى موضع أو حاجة تريدها : سبب .

- **أسباب مباشرة** : وهو ما يظهر طبيعيا في تفسير ظاهرة بسيطة ، ويسمى في الغالب سببا ماديا أو أداتيا .

- **أسباب وسيطة أوعميقة** : يؤول إلى تحليل يبدو أكثر صعوبة ، حيث يرتبط بالأسباب العميقة أو البعيدة ، كالاسباب التي كانت وراء الحرب العالمية الأولى مثلا .

ومن ثم تقوم كل الأدلة المستمدة من الوقائع على التجارب الملاحظة أو المعيشة ، أي : المؤسسة على التجربة والخبرة ، إذ يمكن تعميم هذه الفرضية على كل الأدلة كيفما كان نوعها ، فهي في عمقها قائمة على التجربة المختزلة أو اللحظية ، او تجمع بين ماهو مختزل ولحظي ، ينسحب ذلك حتى على الأدلة المنطقية نفسها . غير ان مايميزها عن الأدلة التجريبية هو كون هذه الأخيرة ، لا توجد بدون ملاحظة الواقع المتكرر ، ومنه تستخلص العلاقات المتعددة التي تحكم سلوك الأفراد في مجتمع ما ، حيث تستطيع إدخال وتوظيف مفاهيم متنوعة كـ : السبب والواقعة ، والمثال والنموذج وغيرها ، وهي ليست علاقات تجريدية بين عناصر موضوع الرهان ، ولكنها بالتحديد علاقات ملموسة (concretes) ، يتعلق الأمر بتفسير الواقع حسب التسلسل الذي يجري أمامنا .

ومن هنا فإن تصور السببية يعد عنصرا جوهريا في النشاط البشري ، وهذا لا يعني أنه تصور بدائي ، ذلك أننا يمكن أن نطبق التصور السببي المنبثق من تجاربنا على تصورات استعارية مثل[45] :

- لقد رفع زيد معنوياتنا .

أي أن ما قام به زيد جعل معنوياتنا ترتفع ، وذلك اعتمادا على الاستعارة الفضائية الاتجاهية ، على غرار المثال التالي :

- أحس أنني في القمة اليوم . أي في سعادة .

فعلى الرغم من أن للمقولة السببية حدودا غامضة ، فإنها محددة بشكل دقيق في عدد كبير من الحالات ، فنجاح انشطتنا في هذا العالم يقتضي أن نطبق باستمرار تصور السببية في مجالات أنشطة جديدة ، وذلك عن طريق القصد

45- الاستعارة التي نحيا بها ص 19

والتخطيط ورسم الأهداف[46] وهي محددة بشكل أدق في صورها القاعدية المباشرة التي تتميز بسمات وخصائص يمكن إجمالها في الخطاطة التالية :

الهدف ←التغيير← مخطط التغيير← برنامج التغيير← تنفيذ المخطط بنجاح .

حيث تمثل هذه الخصائص المشتركة العلاقة السببية التي تظهر مجتمعة باستمرار ، في عدد لا يحصى من الأعمال الذي ننجزها في حياتنا اليومية ، فظهورها مجتمعة يكون أكثر من ظهورها منفصلة .

وانطلاقا من هذا الظهور الدائم أمكننا مقْولة* السببية من خلال تلك الخصائص المشتركة التي تنطلق من السببية القاعدية المباشرة أو (الطرازية) [كأن نفتح بابا ، مثلا او نضغط على زر] ثم نعمم هذه السببية القاعدية على الاعمال والاحداث التي تلتقي مع تلك (الطرازات) ضمن تشابهات أسرية ، حيث يمكن أن ندخل في السببية الأعمال المنجزة عن بعد ، [التنفيذ غير البشري] ، واستعمال منفذ وسيط وظهور منفذين أو أكثر ، أو استعمال غير متعمد أو غير مراقب للبرامج والحدس إلخ...) حيث تتمحور الاستعارة السببية ويمكن توضيح ذلك ، في الأمثلة التالية :

- صنع زيد طائرة من ورق
- صنع زيد من الصلصال تمثالا .

في هذه الأمثلة يتميز الورق الذي اصبح على شكل «طائرة» عن الورق العادي ، عن طريق تغيير بسيط لشكل الورق وبتغيير في شكل الصلصال إذ ينتقل الأمر من صلصال عادي إلى تمثال ، حيث يصبح للصلصال شكلا جديدا ، ووظيفة جديدة (التغير من حالة إلى أخرى) بفضل الاستعارة التالية (الشيء يأتي من المادة) حيث تعتبر مادة الصلصال وعاء فمن المادة الجديدة (عبر الاستعارة) ، يخرج التمثال ، ولهذا يكون تصور الصناعة جزئيا تصورا استعاريا ، لأن الاستعارة هنا منبثقة من تجربة الولادة (التجربة الانسانية

46- نفسه ص 89

* Catégorisation حسب ترجمة عبد المجيد جحفة [الاستعارات التي نحيا بها]

القاعدية) التي يخرج منها المولود أو (شيء) وهذه العملية هي أساس تصور الخلق والصنع والابداع مثل العديد من الاستعارات كما في :

- خلقت الديمقراطية من أجل الحرية
- القوة لن تولد إلا العنف
- الاستثمار يولد مناصب الشغل
- بدأ التغيير يرى النور .

ففي عدد لا يحصى من الأعمال المنجزة في حياتنا اليومية تظهر هذه الاستعارات متصلة أكثر من ظهورها منفصلة إذ هناك تصورات سببية منبثقة مباشرة من السبب ، وهناك تصوران استعاريان ، ينبثق السبب عنهما :

الأول : التصورات المنبثقة وبشكل مباشر ، وهي تلك التي لا نجدها تتأسس على استعارة بل نجدها تنبثق بشكل طبيعي ومباشر مثل : لا دخان بدون نار .

الثاني : التصوارات غير المباشرة أي تلك التصورات التي لها أساس في تجربتنا ، وتشكل نواة انبثاق مباشر ، والتي يتم تحديدها استعاريا ، «مادامت توافق انواعا طبيعية في التجربة»[47] مثل الزمن والأفكار والفهم والجدالات والعمل والسعادة والصحة والسلطة والمنزلة الاجتماعية والعقل... . إنها تصورات تقتضي فهما استعاريا لأنها ليست محددة (من خلال ذاتها) بل توظف بشكل سببي استعاري لتلبية حاجات اشتغالنا اليومي حسب «لايكوف و جونسون» .

2-3- أشكال الحجاج وأنواع الحجج :

إن بناء القول الحجاجي – استراتيجية وعمليات تكتيكية – تتشكل عن طريق تفاعل مكوناته الداخلية (استدلال وآليات ومفاهيم...) والخارجية (وقائع إنسانية ، تجربة ، اسباب ومسببات...) وهي عناصر ضرورية (قمنا بدراستها ومعالجتها في المحاور السابقة) لكنها غير كافية لفهم وتحليل القول الحجاجي ،

47- Ibid P

ذلك لأن الحجاج يطرح إشكالات أخرى ترتبط بطبيعة أشكاله وأنواع حججه وطرق توظيفها... ، نطرحها على شكل أسئلة :

- ماهي طبيعة الميكانيزمات والقواعد التي تجعلنا نحكم على صحة الحجاج وطبيعة أشكاله ؟ هل يتعلق الأمر فقط بتطبيق صارم للاستدلال الصوري المنطقي ؟ أم يتعلق الأمر بمراعاة قواعد خارجية للدفاع عن الرأي أو الانتصار لفكرة أو تبكيت أطروحة . .؟ فما هي إذن هذه القواعد؟

-وما هي طبيعة وأنواع الحجج التي يوظفها الحجاج لكي يكون صائبا وصحيحا ؟

-هل هناك نظرية جديدة تعالج الحجاج من منظوور يتجاوز منطق الصحة والخطأ ؟

إنها أسئلة ترتبط بطبيعة المعالجة الحجاجية للقضايا الإنسانية ، وبطبيعة المسار الذي يأخده الحجاج لبناء الاستدلالات واختيار الحجج من أجل تحقيق الأهداف المرتبطة بقضايا الإنسان ومصالحه وهمومه وانتظاراته ، إنها معالجات من المفترض ألا تقوم بتطبيق منطق محمولات الصحة والخطأ ، لكنها تتطلب مقاربات جديدة تستجيب لمحمولات المصالح العامة للناس . والقيم المجتمعية ، وتخضع لمقولات المعارف والقيم النسبية ، لكي تحقق التوافق والتراضي والتفاهم القائمة على الصواب بمفهومه الإنساني .

وفي هذا الإطار تكون الحاجة ماسة إلى معالجة أشكال الحجاج وأنواع حججه معالجة جديدة لا يكون الهدف منها الوقوف على الحجاج كبناء نظري خالص وإنما يكون هدفها طرح القضايا الإشكالية التي يتناولها الحجاج وإبراز أشكاله المغالطية ، التي عجز المنطق الكلاسيكي - الذي يرتكز على الأبعاد الصورية واللغوية – عن معالجتها ، وأغفل أو تجاهل جوانبها الثقافية والمعرفية وسياقاتها المجتمعية ، إنها النظرية الحجاجية التي تعتمد البرجماتية المنهجية[48] في تحليلها لأشكال الحجاج تحليلا يحدد قيمتها المعرفية والثقافية ويكشف عن الجوانب التغليطية المقصودة وغير الواضحة في القول ، في إطار حيز خارج لغوي يشمل ما هو ثقافي

48- Critique de l'argumentation

وما هو نفسي وما هو قيمي... دونما إغفال البنية الإجرائية الشكلية التي تحمل الصواب وتقاربه . إن هذه المقاربة الجديدة تعالج الحجاج باعتبار أن سلامته لا تدرك منطقيا[49] ، وإنما تدرك سلامته إدراكا إشكاليا لكون هذا النوع من الحجاج يلامس الجوانب الغامضة في الحقول المعرفية الإنسانية التي تعرف تحولات سريعة ، لا تدرك في حينها مما يتطلب أسئلة وتحليلا عميقين للواقع والأحداث ، لأن الواقع مركب وملتبس ، ولأن الكائن يخترقه الإختلاف والتعارض ، لا ينفك يقوم بإخضاع الواقع للتشكل المستمر وقراءته مرة ثانية لتشكيل الواقع والفكر في آن واحد ، فحين ينجح الإنسان في صنع القواعد وفي إعادة تشكيل الواقع ، فهو ينتج ويشكل في نفس الآن مفاهيم جديدة تساهم في ترتيب أفكاره أو إعادة خلقها من جديد .

2-3-1- أشكال الحجاج

- الحجاج المغالطي

لقد بلغ اهتمام الدارسين بالمغالطة (PARALOGISME) ذروته مع كتاب «هاملن» المعنون ب (FALACIES 1970) حيث انتقد فيه التاريخ الباهت لهذا النوع من الحجاج ، الذي كان في مجمله اجترارا لمقولات ارسطو ، بالإضافة إلى مساهمات JHONWOODS وDOUGLAS WALTON في كتابهما نقد الحجاج (CRITIQUE DE L'ARGUMENTATION) التي جاءت لتعزز هذا الطرح وتركز على الثقة في قدرات المحاجة باعتبارها مساعدا للحقيقة ، ودعامة لمؤسساتنا الديمقراطية ونظامنا القضائي اللذين يقومان على الحوار المتبادل .[50] وإذا كان قد اجمع الدارسون على أن المغالطة مظهر يوهم بالصحة والسلامة ،كإيهام الذهب المزيف على أنه حقيقي ، في حين أن حقيقته تقوم على الخطأ الذي يدركه العارف أو الخبير بأمور الذهب ، فإن المغالطة في الحقيقة تتجلى في المفارقة التالية : عدم وجود الصحة والظهور بمظهرها[51] كالتي تظهر في القياس المبكت الذي تلزم عنه نتيجة هي نقيض النتيجة التي

49- Critique de l'argumentation introduction
50 - Critique de l'argumentation P : 15
51 - Ibid p : 79

وضعها المخاطب ، إنه إذن نمط من الحجاج يفتقر إلى الصحة ويوهم بذلك ، وقد أرجع أرسطو ذلك[52] ، إلى ما يعرض للمعاني من قبل الألفاظ ، من عوارض ، تحدث اللبس ، والغموض في الأشياء والألفاظ كما في :

- زيد من قبيلة عبقر ، فهو عبقري .

لذلك كان اضطرارا أن تشترك معاني مختلفة في اللفظ الواحد ، دون إن ينتبه قليلو الخبرة بالكلام إلى ذلك ، فيضطرب فهمهم ، كما يمكن أن ينشأ التبكيت عن عيوب بنيوية في تأسيس المحاجة كما هو الشأن بالنسبة للمصادرة على المطلوب والأسئلة المتعددة ، إلى درجة أن مؤلفي نقد الحجاج اعتبرا عنصر المغالطة بمثابة طعم يتوسل به المتكلم لتحقيق غايات معينة .

ويبدو أن هذه القدرة على المغالطة والخداع والمواربة والتمويه والحيلة والتضليل والايهام... يملكها الجنس البشري وبعض الكائنات الحية . إما دفاعا عن النفس أو سعيا وراء تحقيق مصلحة من المصالح ، إذ هناك من المتكلمين من يرمي قصدا إلى المغالطة وهناك من يعتقد بعدم وجودها في القول (حسن النية) ، وهو ما يفتح باب الحجاج أمام العناد ، ويدخل في الادعاء والاعتراض ، وهما من بين السمات الجوهرية في الحجاج .

وانطلاقا من ذلك تتعدد وتختلف صور المغالطة حيث تأتي على شكل[53] :

-أ- مسائل متعددة مثل : السؤال التالي :

-هل هذه المسائل كلها جيدة أم لا ؟

إنه سؤال ينطوي على جمع مسائل مختلفة في قضية واحدة ، فيكون الجواب المطلوب واحدا ، وكأننا إزاء مسألة واحدة او شيء واحد ، وكل جواب على هذا السؤال يوقع في المغالطة ، إنه سؤال فخ يسعى إلى الإيقاع بالمخاطب ، لأن صاحبه لا يطلب جوابا وإنما يريد إحراج المخاطب .

52 - تلخيص منطق أرسطو ص 670-969

53 - Critique de l'argumentation P : 60-80

- ب - تركيب وقسمة

كما في العدد (5) الذي هو عدد زوجي وفردي في نفس الوقت (بالنسبة لمن يريد التغليط) لأن العدد خمسة (5) مكون من اثنين : (2)+ثلاثة (3) أما حقيقة الأمر فهو عدد فردي .

وقد حدثت المغالطة هنا حين استنتجنا الكل من الأجزاء . أو كأن نقرر أن الكل على صفة معينة ، وأن كل جزء من الأجزاء يحمل هذه الصفة . ويورد صاحبا نقد الحجاج[54] مثالا آخر للمغالطة في التركيب كما يلي :

- بما أن عناصر الآلة خفيفة فالآلة يجب أن تكون خفيفة .

-ج -مغالطة القسمة

وهي المغالطة التي تسحب على الأجزاء صفة الكل مثل :

- بما أن الحافلات تستهلك بنزينا أكثر من السيارات .
- فإن مجموع الحافلات تستهلك أكثر من مجموع السيارات .

نستنتج من ذلك أن عدد السيارات مجموعا هو أقل من عدد الحافلات ، ومصدر المغالطة هنا هو أن عدد السيارات مجموعا أكثر من عدد الحافلات .

- الحجاج الإشكالي

يصعب حصر أشكال الحجاج في الممارسة اليومية ، فقد ذكر أرسطو أنها تتجاوز المئتي نوع ، منها مايتعلق بالحجاج المغالطي الذي يمكن الرد عليه وكشف تهافته ، ومنها مالا يمكن كشف تهافته ، لأنه يطرح إشكالات تتطلب إجابات جديدة أو حلولا أخرى بحثا عن الحقيقة ، وهو ما يعرف بالحجاج الإشكالي ، الذي يتجاوز قواعد المنطق الشكلي ومعيار الصحة والخطأ ، وينفتح على منطق آخر يعرف اليوم بالمنطق اللاشكلي ، الذي يعبر عن الوعي بقصور التناول في إطار المنطق التقليدي ، على أن هذا المنطق الجديد يرتبط بجوانب مختلفة لأبعاد النفس الإنسانية وخوالجها ، ونظرتها للعالم ، ومحيطها المعرفي العام ، سنكتفي بذكر نماذج معينة من الحجاج الاشكالي كما تناولها الدارسون :

54- Ibid P: 169

- الحجاج النابع من الشخص ذاته[55] :

ويعرف بL'ARGUMENTATION AD HOMINEME: حيث يورد المخاطب النتائج المستقاة من المبادئ الخاصة للمتكلم أو من تنازلاته أو إرضاءاته أو طروحاته ليدحض بها أقوال خصمه لدخولها في إطار الممكن دحضه ، نذكر على سبيل المثال تلك المناظرة التي جمعت بين أبي العتاهية وتمامة بن الأشرس[56] والتي دارت بينهما حول الجبر والاختيار* ، وهذا النوع يخرج من الحجاج المغالطي إلى الحجاج الإشكالي ، إذ من المشروع أن يستغل المتكلم تناقضات الخصم وتنازلاته ليوظفها لصالحه ، وفي هذا السياق رد صاحبا كتاب «نقد الحجاج» هذا النوع إلى خطإ منطقي له دلالته من حيث أنه طعم يوظفه المتكلم بغية تحقيق غاياته . يرجع صاحبا نقد الحجاج هذا الخطأ إلى[57] :

أ- تناقض تداولي مثل :

- إنه يكسب مائة ألف درهم فهو على حق .

ويتجلى الحجاج الاشكالي في هذا المثال في كونه ينبني على أن من يملك أموالا كثيرة يكون على «حق» انطلاقا من الأحكام العامة التي يقربها الناس في المجتمع ، ذلك أن القدرة على كسب أكثر ما يمكن من المال ، يمكن أن تكون «معيارا اجتماعيا» سواء حققها صاحبها بطرق مشروعة ، أوغير مشروعة ، وأن جانبها المنطقي لا يتحكم غالبا ، في الحكم الذي يصدره الناس ، فهي شكل حجاجي لا يمكن أن يغالط أحدا في حقيقة الأمر ، إذ يمكن الرد على ذلك بأن الذي يكسب مائة ألف درهم ليس بالضرورة على حق ، أما من الناحية التداولية والاجتماعية فلها قيمة أخرى تجعل السامع يذعن لها .

إن المسألة في الحجاج الإشكالي لا تتعلق بسلامة العلاقة المنطقية ، كما لو كان الأمر يتعلق بمسألة شكلية أو رياضية ، بل يتعلق الأمر بمسألة تداولية ،

55 - Ibid P : 12

56 - انظر ملخص هذه المناظرة في « أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية «ص 417 أو في «طبقات المعتزلة» للقاضي عبد الجبار 274

* حين حرك ابو العتاهية يديه و سأل تمامة عن السبب فرد عليه . . ومن أمه فاعلة ... فقد انتزع تمامة اعتراف ابي العتاهية الذي يؤمن بالقدر أي قدرة الإنسان على أفعاله ومسؤوليته إزاءها ، فما كان على ابي العتاهية أن يسأل عن فعل هو مسؤول عنه . أي حركة اليد ، لأنه معتزلي .

57 - Critique de l'argumentation P :17

في بعض التنظيمات السياسية والدينية التي نجدها في واقعنا المعيش بشكل ملموس) حيث تؤدي في بعض الاحيان الى خلق ذات اسطورية من الذات الاسلوبية في بعض المجتمعات المعاصرة (كاسترو- كوبا والقذافي - ليبيا) ، وبقدر اهمية الذات الأسلوبية في القول الحجاجي بطريقة ناجحة في ايصال المعنى وتمرير المواقف وحصول الإقناع فإن كيفية معالجة الذات الأسلوبية نظريا تبدو في غاية الصعوبة ، لأن الأمر يتطلب تحديد حالة خاصة يتم تسليط الضوء عليها من هذا الجانب .

ولعل خطاب الوزير الأول امام البرلمان (الصادر بجريدة الاتحاد الاشتراكي يوم 14 يناير2000*) يعكس بعض هذه المواصفات فهو خطاب يتميز ببعض الخصائص الأسلوبية التي تؤدي وظائف جديدة في الخطاب السياسي ، تلك الخصائص التي عولجت في التراث البلاغي العربي القديم والمعاصر ، والتي سنعمل على دراستها حسب ما يتطلبه القول الحجاجي وما يوظفه في العمليات الاستدلالية والإقناعية ، لإبراز الاهداف والغايات التي سيقت من أجلها ، كالتعليل والتأكيد والتبرير والتوسيع والتمويه والتخيير وغيرها ، ومن أمثلة هذه الطرائق ، السلب والايجاب والمقابلة والتقسيم والتسهيم والمناسبة والإدماج والتفريع والخروج... وهي طرائق توظف تداوليا كما سنرى في الخطاب السياسي وتساهم في بنائه بناء حجاجيا واستدلاليا ، بالإضافة إلى تحديد الوظائف القولية في العمليات الحجاجية ، لذلك سنعمل على إبراز الذات الأسلوبية في خطاب الويزر الأول من خلال :

1- الطرائق الأسلوبية .

2- وظائفها .

3- غايتها الحجاجية

دون الوقوف على الأطروحة العامة التي يطرحها خطاب الوزيرالأول ، أوالاستراتيجية التي بنيت عليها الآليات التي وظفها ، يتبين -من خلال خطاب الوزير الأول- أن الذات الأسلوبية تمكنت من الإحاطة بالموضوع

* انظر النص الكامل للخطاب بملحق الأطروحة

وفي الأخير يخلص صاحبا نقد الحجاج من خلال دراستهما لهذه الأشكال الحجاجية ، إلى أنه ليس هناك منطق خاص يقبل بهذه الأنماط الحجاجية نهجا في الاستدلال ، فالحجاج في هذا الجانب فشل استدلالي ، وقد سعيا في محاولتهما إلى تأسيس منهجية جديدة في اختيار المسائل الاستدلالية ، تقتضي أن نستخرج من المقدمات موضوع الحجاج مجموعة من الفرضيات تمثل طبقة جديدة للاختيار الاستدلالي[58] ، ولا تمثل فرضية ما ، أهمية تجريبية معينة إلا إذا أخذت بعين الاعتبار القضايا التي تثبتها(الفرضية) أو تنفيها وعملت على إخراج القضايا التي لا دور لها في الإقناع أو الإفحام ، ومن هنا يأتي الحجاج المغالطي في العمليات الإستدلالية ، كشكل تقفز فيه المغالطة على الأسباب المباشرة والضرورية وتخلط بين القضايا الأساسية والثانوية[59] .

ولذلك تكثر في الحوارات والتفاعلات اليومية كل أنواع هذه النقاشات والجدالات والمحاجات النافذة فتكون مؤثرة في مجموعة من الناس والفئات الاجتماعية ، حيث تلعب دورا مهما في صنع الرأي العام ، لكن قد يكون هذا الحجاج مخادعا أو مضللا تغيب فيه الحقائق المادية والموضوعية التي يتأسس عليها الحجاج الناجح ، فتكثر فيه الآراء الخاصة والشخصية ، كأساليب للإقناع من خلال زاوية نظر معينة كما يقول باسكال [60] «إن الأشياء لا تكون صحيحة أو غير صحيحة إلا من خلال الزاوية التي ننظر منها» . وبذلك ينشئ الخطاب الحجاجي «اليومي» مناهج ومبادئ واستراتيجيات وقيم... وغيرها ، هي مقاربات خاصة وأحادية للوقائع الإجتماعية والسياسية والثقافية والعقدية... يصعب معها الوصول إلى إقناع علمي موضوعي أو قل لا يجد الإقناع العلمي مكانه في الثقافة السائدة ، أو يبدو للآخر ضربا من الخيال والتفلسف لا فائدة منه ، ذلك لأن كل واحد يمارس عملية الحجاج وإبداء الراي ، يتصور أن هناك شيئا ما سيربحه أو يخسره أو هناك مساحة يغزوها أو يدافع عنها بالكلمات والحجج والأدلة والاستدلالات المتنوعة[61] كالتغليط والتهديد والمساومة والاغراء والإطراء

58 - Ibid P :109
59 - Eléments de rhétorique et d'argumentation P :171
60 - La parole pamphlétaire P :85.
61 - الاستعارات التي نحيا بها ص 82

وتقديم حجج عقلية وأخرى تخييلية... تعتبر جميعها وسائل تكتيكية للوصول إلى المصالح الخاصة المنشودة ، لكن مع استبعاد الوسائل الأخرى التي لا تنتمي إلى مجال اللغة كالعنف والتسلط المادي والصراعات العنيفة .

2-3-2- أنواع الحجج :

تتنوع الحجج داخل القول الحجاجي بين ما هو موضوعي وما هو ذاتي ، وبين ما هو صائب وما ليس صائبا ، وما هو مقنع وما هو غير مقنع... الخ . وهي حجج تختلف منطلقاتها وأهدافها ، منها ما ينطلق من التجربة وما يختزنه الفرد والجماعة من معارف واقناعات وثقافات ومسلمات وثوابت ، ومنها ما ينطلق من العلم أي الحقائق التجريبية والظواهر المبرهن عليها ... وتكون هذه الحجج دعامة لعمليات الإقناع والإفحام حيث يسعى الإنسان من خلالها إلى تمرير مواقفه لتغير اعتقادات الآخرين... لكن الإشكال الذي يظل قائما في غالب الأحيان هو الرغبة الملحة للمخاطب في الإقناع بكل أنواع الحجج والوسائل التي قد تكون مشروعة أو غير مشروعة ، دونما اعتبار لحق الآخرين في اختيار ما يلائمهم من أفكار واعتقادات وقناعات ، وهذه الأنواع من الحجج لا تظهر فائدتها ولا صوابها إلا من خلال الرجوع إلى السياق وإلى طبيعة الموضوع الذي تدعمه أو تفنده ، نذكر منها :

- الحجاج بالسلطة :

إن المعرفة الموضوعية تقتضي دراسة شمولية لكل الأدلة التي يوفرها المجال العلمي والتي ينبغي أن تكون قابلة للإدراك والفهم[62] ، إنها سلطة من نوع خاص (علمية إدارية) ، تتجاذبها الموضوعية العلمية والانطباعية الذاتية باستمرار ، بل إن الموضوعية قد تتنافى مع الركون إلى السلطة ، وتفترض طلب المعرفة وإيصالها للآخرين عن طريق الاستدلالات المعقولة والملائمة للمجالات المعرفية التي تعالجها .

---

62 - Critique de l'argumentation P :40

لذلك فالمجال الحجاجي ينبغي أن لا يوظف كل سلطة مباشرة مادية أو معنوية بل ينبغي أن يفتح آفاقا للتفكير وأن يقدم إمكانيات للعمل أكثر مما يضع من حلول جاهزة ومفروضة .

وفي هذا الاتجاه حدد مؤلفا نقد الحجاج[63] خمسة شروط حتى تكون الحجة بالسلطة سليمة وهي :

- ان تدرك الحجة بالسلطة ادراكا سليما .

- ان تكون للسطة كفاءة حقيقية ومتمكنة في مجالها بحيث لاتسند لمجرد الشهرة او ما شاكلها .

- ان يعتبر جانب التخصص في كل مجال على حدة .

- ان يكون الرأي قائما على دليل يمكن تأكيده او بالاحرى البرهنة عليه .

- ان تكون هناك تقنية وفاق ضرورية للبث في الخلافات بين سلطتين او اكثر .

ويبدو ان هذه الشروط تنسحب على اشكال السلط كيفما كانت : ادارية او سياسية او علمية او اجتماعية او ثقافية...وكلما كان الحرص على إعمال هذه الشروط كانت الآراء او القوانين او الاصلاحات او مجالات البحث العلمي صائبة ومفيدة .

ومن هنا كان الحرص على بلورة تلك الشروط في اختيار المسؤولين سواءا في الحكومة او الإدارات او المؤسسات او المرافق الاجتماعية المختلفة ، باعتماد جانب الخبرة والتخصص وسلوك منهجية تقوم على تأكيد الرأي بالدليل الصائب والتداول في القضايا وفق تقنيات تتوخى الحصول على توافق إرادي يستحضر ملابسة الوضع العام الذي يندرج فيه الرأي او الإصلاح او المشروع او القرار او أي شيء يتطلب التداول حيث يبدأ رحلته من التصور الأولي على مستوى مؤسسة مركزية ثم على مستوى الحكومة ثم على مستوى البرلمان مثلا .

ان كل هذه الاحتياطات هي في الحقيقة ضمانة ضرورية لكي يكون الرأي او القرار او الإصلاح الذي يصدر عن السلطة (السياسية مثلا أو غيرها) مسنودا

62 - Critique de l'argumentation P :40

الى دليل قوي يرجح ما يصدر عنها ويبعدها عن المغالطة والهوى . وحتى في هذه الحالة فإن ما يصدر عن السلطة كيفما كانت لايتصف بالكمال ، اذ لاوجود لسلطة في منأى عن الزلل لايأتيها الباطل ، لذلك تتغير القوانين وتتغير المنظورات وتتغير الرؤى وتتغير الإستراتيجيات في افق البحث عن الكمال وهو ما يحرك الجنس البشري أفرادا وجماعات ومجتمعات ودول إلى التطور والرقي وهذا هو مجال الحجاج السليم و الصائب .

- الحجاج بالتجهيل والمغالطة المعرفية :

هو حجاج يقوم بإفحام المخاطب انطلاقا من تعجيزه على ان يأتي بما ينفي ماسبق تأكيده بالحجة ، ذلك ان المتكلم يؤسس حجته على قاعدة مؤداها : اذا لم تأت بما ينفي حجتي فهو الدليل على انها صحيحة ، وهي قاعدة تتنافى مع قواعد البحث العلمي التي ترفض الخلط بين غياب الحجة وتوفر الأدلة النافية لها ، فإذا لم يحضر دليل ينفي حجة ما ، فليس معنى ذلك ان الحجة صحيحة بشكل مطلق ، وهنا تكمن المغالطة ، ويكمن ربما الإشكال الإثباتي للبعد المعرفي الذي قد لايجعل المخاطب ينفي حجة خصمه مثل[64] .

- لايوجد دليل ضد فرضية ما
- إذن هي صحيحة

ويظهر ان الشكل المغالطي القائم على التجهيل يقابله الشكل المعرفي المغالطي كما مثل لذلك مؤلفا نقد الحجاج ب :

-لم يثبت احد أن (ف) خاطئة او (صحيحة) اذن (ف) صحيحة او (خاطئة)

ويرجعان المغالطة بالتجهيل والمغالطة المعرفية الى (القيمة) الإثباتية ذات البعد الإبستيمي(65) التي تجعل أن (ف) يمكن ان تكون ممكنة الصحة أو ممكنة الخطأ مما يجعل منهما شكلين مغالطيين يطرحان قضية إشكالية .

---

64 - Ibid P :100

65 - Ibid P :103

الحجاج بالقوة :

هي حجة تتوجه الى سلوك المخاطبين قصد تكييفه وفق ما يريده المتكلم دون اعتبار ما يفكر فيه المخاطب أو يعتقده ، ودون أن يخاطب المنظومة الفكرية للمخاطب ، بقصد تغييرها وإحلال انتظام آخر محلها ، بعد حصول اقتناع ذاتي يكون ناتجا عن الأثر المباشر لعملية الحجاج . ومن هنا فهو يتعارض مع أبسط تعريف للحجاج ، فهل يمكن اعتباره حجاجا؟

. اذا نحن استحضرنا مكونات الاستدلال الحجاجي أي المقدمات التي تؤدي بنا الى نتيجة ، نقول إنها صحيحة او خاطئة[66] ، فإننا لا نجد ما يفيد منطقيا في الحجاج بالقوة ، لأن مقدماته ذات طبيعة انشائية (افعل) مشحونة بالترغيب والترهيب الذين لاينفصلان ، ويسلكان نفس علاقة القوة التي تصادر حرية المخاطب ، كأن نصدر بعض النصائح على الشكل التالي :

- يجب ان تختار شعبة اقصادية اذا كنت تود الحصول على العمل .

أما المسكوت عنه فهو : اذ لم تختر هذه الشعبة فانتظر الشارع .

ان الحجاج بالقوة لايمكن ان يعالج في اطار المنطق التقليدي ، وهذا ما حذا بمؤلفي نقد الحجاج إلى الدعوة الى معالجته في إطار المنطق الأخلاقي العملي[67] . ففي الامثلة التالية :

- لاترفع صوتك فوق صوت النبي .
- قم للمعلم وفه التبجيلا .
- صوت لصالح المدافع عن الحق .

يبدو ان الحجاج بالقوة هنا ذو طبيعة تداولية يسعى الى تحقيق فعل يجلب نفعا خاصا للمتكلم أو المخاطب ، أما الحجاج عن طريق الترغيب او الترهيب ، فهو يسعى الى تحقيق مصلحة اجتماعية خاصة مثل :

- البيعة لزيد او ضرب الرقاب .

وهو ما يطلق عليه الحجاج بالقوة اما الحجاج الذي يسعى الى تحقيق مصلحة عامة اجتماعية او ثقافية كما في الامثلة الثلاث السابقة فيصعب ان نطلق عليه حجاجا بالقوة بل يمكن تسميه بالحجاج المبني على تجربة أو الإختيار الصحيح .

66 - Ibid P :104

67 - Ibid P :63

- المحاجة الجماهيرية

حجاج يقوم به المتكلم أمام جمهور بقصد اقناعه بفكرة ما او إثارة حماسه لموضوع ما لتحقيق اقتناع بشيء ، وعندما يستجيب الجمهور لأفكار المتكلم انفعالا (التصفيق مثلا) يحقق الحجاج هدفه[68] ، يكثر هذا النوع من الحجاج في الخطاب السياسي والاجتماعي كما في المثال التالي :

- ان الديموقراطية هي الحل الامثل للمشاكل التي تعاني منها البلاد .

ان هذا القول لايتعرض لمفهوم الديمقراطية بشكل واسع ولالشروط تحقيقها او انتاجها ، ولا لأنواعها ، ولا لطبيعة المجتمع والمؤسسات ولا لواقع الوضع السياسي... اذن يتمثل الجانب المغالطي هنا في الإخلال بهذه الخصائص والمواصفات والشروط[69] .

ذلك لأن الامر في الحجة الجماهرية يعود الى السياق التداولي الذي يجعل المتكلم غير حريص على بناء حجاجه بناءا منطقيا ، يتوخى فيه الدقة والموضوعية ، ليصل الى نتائج يقينية ،الأمر الذي يدفع المتكلم الى تركيز حجاجه على الجانب العاطفي والشعوري ، الذي يثير حماس الجمهور بغض النظر عن التدليل على صحة نتيجته وسلامة مقدماته ، اعتمادا على تصور جدلي منفتح يراعي انتظارات الجمهور وما به تتحقق هذه الانتظارات حتى ولو كانت العلاقة بين مضامين القضايا في المقدمات والنتيجة منفصلة ، بل حتى ولو تجاهل الحجاج موضوعه ليتناول امورا اخرى[70] تقوم بإخفاء الحجة الموضوعية وإيلاء الاهتمام الشديد لإثارة العاطفة ، ولهذا فان الحجاج الجماهيري خاصة والحجاج بصفة عامة لايقيد قوله بالعلاقات المنطقية المجردة او غير المجردة ، بل يتناول ما به يلامس مشاعر المخاطبين وتطلعاتهم وانتظاراتهم ، إذ لو سلك المتكلم غير هذا السبيل ، ما كان ليحقق ما يريده من وراء الحجاج .

---

68 - Ibid P :69

69 - Ibid P :70

70 - Ibid P :77

- **المحاجة الانفعالية*** :

هو نوع من الحجاج يسعى الى التأكيد على مشاعر الجمهور وذلك بان يستثير إشفاقه او خشيته او... وهو بهذا يوجه البناء الحجاجي نحو الحقل الانفعالي الذي يضم المشاعر والأحاسيس والعواطف الداخلية ، كأن يستدر المتكلم مشاعر الحزن لدى المخاطب الى درجة يجعله خاضعا لمراميه ، او يستدر مشاعر التضامن الى درجة يتنازل فيها المخاطب عن أغلى ما عنده ، فيكون بذلك نوعا خاصا من الحجاج يصيب ما لم تصبه الحجج الاخرى المبنية على حقائق موضوعية ومنطقية .

وفي بعض الاحيان يلجأ هذا النوع من الحجاج الى المراهنة على ما يقبله الجمهور كآراء مسبقة (PREJUGES) وذلك باستعمال الحجاج الجماهيري او الحجاج الديماغوجي الذي غالبا ما تتجلى خطورته في الخطاب السياسي مثل الحجاج ضد الافكار التقدمية او ضد الافكار المتنورة بتوظيف كل ما تسمح به اللغة وما تسمح به المعرفة لمصادرة الميدان العقلاني ومعانقة اثارة الخوف والتقدير الزائد او الانفعال او الشعور بالندم ، مما يجعل هذا النوع من الحجاج منفتحا على كل اشكال الإغواء والأهواء...

إن ما يميز هذا النوع هو اعتماده على الاستدلال بناءا على قاعدة المعتقدات والمسبقات الخاصة التي يقبلها المخاطب بدون أدنى إعمال للعقل او الروية بل يقبلها باعتبارها احكاما مسبقة وعامة (عامية) تؤثر في الجميع .

- **الحجاج بالمصادرة على المطلوب*** :

حجة تجعل المطلوب نفسه مقدمة في القياس يراد به النتيجة مثل :

- «ان كل انسان بشر وكل بشر ضحاك»[71] وقد اعتبرت خطأ منطقيا ، غير أن الخلاف ظل يطرح اشكالا يتعلق بماهية الخطأ وفيم يتمثل وما دوره؟

---

* يعرف أيضا بالحجاج الديماغوجي

71- Ibid P :77

* هو جعل الشيء (أو القضية) التي ينبغي البرهنة عليها شيئا مسلما به منذ البداية . كما في السؤال الاستعاري : كيف تريدون من وزير أول يتحمل أكبر مسؤولية . وينس مستقبل بلاده . حيث اتخذ الوزير الأول ماينبغي البرهنة عليه ، شيئا مسلما به . أنا وزير أول إذن أدبر مستقبل البلاد (بدون دليل)

هل يتمثل في المطابقة التامة بين المقدمة والنتيجة ام يكفي ان يدل لفظ المقدمة على النتيجة ، دلالة ضمنية؟ ان هذه التساؤلات تدفعنا الى طرح الاشكالية المتعلقة بالطاقة الاقتناعية لهذا النوع من الحجاج الذي لاينفك عن السياق العام الذي يرد فيه .

فليس الهدف من المصادرة على المطلوب هو الوقوف على ما فيه من خطإ منطقي اوشكلي ، بقدر ما هو محاولة لوضع أسس للمعالجة التداولية ، فمن السهل ان نقول انها حجة دائرية مغالطية غير شكلية ذلك لان الحجاج الذي ياتي على صورة (ج) إذن (ح) . يفترض ان ما هو موضع التساؤل هو حقيقة في حين ان الإشكال في هذا النوع الذي يرتبط بحقل سيكولوجي اكثر من ارتباطه بالحقل المنطقي المحض ، فإذ كان الحقل الاول يعالج الاقوال من منطلق استدلالي INFERENCE معرفي ، فإن الثاني يعالج الاقوال من منطلق تضميني استنباطي صوري [ظاهره صحة التضمن الدلالي[72]] IMPLICATION باعتباره مصادرة على المطلوب ، كما في المثال التالي :

- يتوفر زيد على كل مواصفات حسن التدبير اذن زيد يصلح ان يكون مقتصدا .

في سياق معين يمكن ان يكون مثالا مناسبا للمصادرة على المطلوب ، على الرغم من غياب الدليل . ذلك لأن كل أثر لابد ان يكون له سبب ، وبدون ذلك لن يكون الأثر ، وهكذا يمكن القول إن هناك حجاجا مغالطيا إذا ما لاحظنا إختلافا قصديا أوغير قصدي ، أي اختلافا بين الفعالية المقدمة وبين تصحيح نوع الحجة . ومن هنا يعتبر مؤلفا [73] (نقد الحجاج) ان التباعد بين المقدمة والنتيجة يعد خطأ أو تغليطا على عكس ما اذا لاحظنا ان هناك مجموعة من الاختلافات ترتبط بسبب المعيار الحقيقي الذي تتمم به الحجة . أي مدى قدرتها على أن تجعل نتيجتها ذات مصداقية ، واذا لم تكن لها هذه القدرة على ذلك فهي فعالة دونما حاجة الى اعتبارها مغالطة[74] .

وخلاصة القول : فان المغالطة هي بكل تأكيد حجاج إشكالي من حيث إنتاجيته التداولية ،حيث تنطلق من التقويم النظري ، أي إعطاء بعض نماذج

---

72 - Ibid P :115

73 - Ibid P :122

74 - Ibid P :133

الإكراهات حول صيغة إعادة البناء النظري لموضوعها ، وذلك باختيار صيغة بناء الحجاج ، لذلك يجب الحديث عن المغالطة في الوقت الذي نقرر ان نطرح على الحجاج سؤالا حول إنتاجيته وفعاليته . إن نظرية المغالطة ليست نظرية منطقية صورية بقدر ما هي نظرية تنتمي الى منطق غير صوري تتحكم فيها عوامل تداولية ونفسية واجتماعية ، او قل أنها عوامل تداولية معرفية بكل تأكيد ، لا تستحضر دوما البعد الدلالي الخالص الذي يتوسل بآليات الاستقراء والاستنباط بل تتوسل بوجهات نظر معرفية ثقافية تثير افتراضات وترضي انتظارات .

2-4- الطرائق والتقنيات الحجاجية في الخطاب السياسي .

تستعمل هذه الطرائق لتبرز مجموعة من الخصائص الحجاجية التي يتحقق بها القول ، ويؤدي بها وظيفته الإقناعية ، وهي طرائق وظيفية تهدف الى خلق دلالات ومعاني من داخل القول ككل ، في علاقته بالظروف المقامية والمعرفية والعقلية والنفسية وغيرها ، حيث تتوسل هذه الطرائق بمجموعة من التقنيات والآليات اللسانية والمنطقية والعقلانية التي تؤدي المعاني المرادة .

وهذه المعاني المنتجة ترتبط في غالب الاحيان بطبيعة اللغة المستعملة ، لما تحمله -بالإضافة الى الجوانب التركيبية والمعجمية والأسلوبية- من قيم ثقافية ودينية واجتماعية ونفسية ، وما تحمله بعض أدواتها -من كثرة الاستعمال والتداول - من معاني عامة يصطبغ بها القول ، ويزداد بها المعنى المراد قوة وتأكيدا . ذلك لأن اللغة وادواتها تتحكم كثيرا في طريقة عرضنا واختيارنا للمعاني التي تخالجنا والتي نرغب في ايصالها إلى الآخرين ، ونجعلهم يقبلونها ويتمثلونها جيدا ، وبذلك تترجم هذه الطرائق) اللغوية وغير اللغوية) الاستراتيجية العامة للخطاب الحجاجي بوسائل تكتيكية خاصة تستعمل في الضرورة القولية ، لتدعيم الحجج المساقة وبناء استدلال قوي ، حتى يمكن أن يؤدي ذلك الى اقناع المستمع بأطروحة المتكلم وتزكيتها ، إما بالإعتقاد او الفعل او رد الفعل ، أي تحقيق الفعل الحجاجي الى واقع ملموس فعلا أو تركا .

وفي نظرنا يمكن تقسيم هذه الطرائق الى ثلاثة اقسام رئيسية هي :

أولا : الطرائق الذاتية : الذات الأسلوبية .

ثانيا : الطرائق الموضوعية : الذات العقلانية .

ثالثا : الطرائق الواقعية : الذات الحدسية و التجريبية .

كل واحدة من هذه الطرائق تؤدي وظيفة أو وظائف معينة داخل القول الحجاجي مجتمعة أو متفرقة ، فالمتكلم ، يكون له دوره الخاص كذات تتدخل في القول الحجاجي وتوجهه حسب رغبة الذات وقناعتها ، وحسب كفاءتها اللغوية والأسلوبية ، كما تتدخل الموضوعية التي تفرضها عليه الشروط العقلانية لتجعله مقيدا بمجموعة من الطرائق الخاصة بالعقل ، ويتدخل كذلك الواقع ليؤثر في توجيه العملية الحجاجية ذاتا ، وعقلانية ، نحو معاني وغايات محددة يستخدم فيها المتكلم الحدس والتبصر لكي يلائم قوله انتظارات المستمع .

ويتبين أن هذه الطرائق تتكامل وظائفها الحجاجية في القول ، فتجعله منسجما ومعقولا دون ان تكون الواحدة منها مهيمنة داخل القول أو تستأثربه على حساب الطرائق الاخرى ، فحين يكون القول الحجاجي فقط مبنيا بناء اسلوبيا ذاتيا لايراعي الشروط الموضوعية والواقعية ، قد لايؤدي وظيفة إقناعية محكمة ، ولايثير في الآخرين رغبة المتابعة والاندماج ، فيرد هذا القول الى صاحبه : «إنه يعبر عن ذاته وبأسلوبه الخاص عما يعنيه» نفس الشيء يمكن ان يحدث في استعمال الطرائق الاخرى منعزلة او مهيمنة ، فالتكامل المطلوب هنا في القول الحجاجي هو انسجام هذه الطرائق فيما بينها ، وذلك بملء الفراغات التي تنشأ من خلال استعمال احدى الطرائق .

2-4-1 - الطرائق الذاتية

تتدخل الذات بشكل أو بآخر في الحجاج ، فهي تمثل محورا اساسيا في اقطاب هذه العملية (متكلم ، مقتضيات مقامية مستمع) اذ لايجوز للمتكلم ان يكون واصفا فقط ، فللذات اعتبارات متنوعة ، ومواقف خاصة يتطلبها

القول الحجاجي ، ويتحول بها من مجرد قول عادي الى خلق عملية تفاعلية مع العناصر الاخرى تكوّن استراتيجيته العامة .

وحين نتحدث عن الطرائق الذاتية في هذا الجانب ، لانستحضر الذات بإعتبارها تمثل نوعا من الحجج معنوية كانت أو مادية* ، والتي تكون حاضرة قبل القول الحجاجي كقوة للضغط والتأثير والتوجيه ، لكن الذات بإعتبارها اسلوبا قوليا ، أي الطرائق الأسلوبية التي يتميز بها قول المتكلم عن قول غيره ويشكل بها خطابه ويعمل عن طريقها على إيصال مضمون القول وفحواه ، إذ بها يتم بناء استدلالاته وصياغة تركيبه ، لأن القضايا في الحجاج لاتعرض بكيفية سردية او استفهامية او جدلية او غيرها ، بل تأتي مصاغة بطريقة مبنية ومرتبطة بشكل منسجم ، تظهر فيها كفاءة المتكلم الأسلوبية وقدراته التركيبية «فالأسلوب هو الانسان» .

فدور الذات الأسلوبية تعمل على تسهيل مهمة السامع والمتكلم بتقليص درجة التعقيد الموجودة بينهما وبعبارة اخرى ، لا يهدف المتكلم فقط الى توسيع المحيط المعرفي الذي يتقاسمه مع المستمع ، لكنه يفترض في نفس الوقت وجود درجة من الاشتراك قد يشار اليها وأحيانا قد يتم الإعلام بها عن طريق اسلوب القول ، ذلك لأن فعالية وجدية خطاب المتكلم تقتضي تقديم أو إظهار بعض القدرات المعرفية ، وبعض المصادر السياقية التي تنعكس بالضرورة في الطريقة او البناء الأسلوبي الذي يصوغ به قوله الحجاجي ، وهي الطريقة التي تتيح للسامع إعادة تكوين المعلومات وتمييز الخفي منها والواضح والمطلوب والمرفوض والايجابي والسلبي .

ومن خلال الأساليب الذاتية نتحدث كثيرا عن التمايزات الحاصلة بين هذا وذلك انطلاقا من التاثيرات المباشرة التي يستقبلها جهازنا الادراكي ، والتي تكون في الغالب مبنية على الذوق ، دون تحليل علمي مدقق ، فنقول هذا اسلوب شاعري وهذا أسلوب ماكر وذلك اسلوب جاد والآخر أسلوب مقنع ، ونستحضر كذلك حين نريد تأطير تجمع جماهيري لتفسير اودعم او معارضة أو تأييد قضية أو خطة ، بعض الذوات الأسلوبية . -قد لا تكون متخصصة

* راجع المحور السابق « أنواع الحجاج»

في القضية المطروحة- دون الآخرين ،او حين نشاهد مقابلة تلفزية بين توجهين فقد لايقنعنا اختيار أحدهما لتمثيل التوجه الذي يدافع عنه ، فنقول كان بالأحرى اختيار فلان عوض فلان ،لأنه يصلح لمثل هذه المواقف ، لا لأنه مثلا غير مبدئي أو قليل المعرفة بالمسألة التي يعالجها ، بل لأنه يستطيع بأسلوبه الخاص مجابهة خصمه وإفحامه . وقد لايكون اختيار زعيم حزب أو رئيس دولة او كاتب عام لمنظمة... لمجرد تاريخه أو سيرته الذاتية أو إخلاصه لانتمائه وأفكاره ، لان هذه الصفات قد تجتمع في اشخاص كثيرين ، لكن الاساس في الاختيار يكون في الغالب مبنيا - بالإضافة الى المميزات الاخرى- على قوة الشخص الأسلوبية والخطابية ، التي تستلهم عقول وقلوب الجماهير والأنصار والأتباع وتتغلب على المنافسين الآخرين .

وأحسن مثال على ذلك ما حدث ويحدث الآن في الولايات المتحدة ((كأقوى ديموقراطية في العالم)) ، من تنافس بين مرشحين من نفس الحزب لتجميع أكبر عدد من الأصوات المؤيدة لتحقيق الفوز والتمكن من الترشيح للانتخاباب الرئاسة ضد مرشح حزب آخر ف«بوش» الإبن (كما نقلت ذلك وسائل الإعلام الدولية والمحلية) رغم تاريخه السيء وسمعته اللاأخلاقية (تعاطيه للمخدرات حين كان شابا) باعتبارها من أهم المحددات والمعايير التي يعتمدها الناخبون في التصويت ، رغم ذلك تمكن من الانتصار على غريمه انطلاقا من الشهرة التي يتميز بها في علاقته بأنصار حزبه والمتمثلة في قدرته القوية على التواصل والتفاعل معهم ، من خلال أساليبه الاقناعية مع ناخبيه من اقصى ولاية في غرب أمريكا الى أقصى ولاية في شرقها ، الأمر الذي لم يتمكن معه خصمه من مسايرة اسلوبه الانتخابي وطأطأ له الرأس وتنازل عن الترشيح .

ومن هنا تظهر قيمة الذات الأسلوبية وخطورتها في استمالة الراي الآخر (العام أو الخاص) ، والتأثير عليه وإقناعه وضمه الى صفها ، فهي التي تدفع في بعض الأحيان الآخر الى التنازل كليا للذات الأسلوبية ، باعتبار هذه الاخيرة صورة مماثلة للآخر واحسن معبر عن انتظاراته وأفكاره ، قد يصل الأمر الى حد التماهي والانصهار أوالى حد الدفاع عنها بالروح والدم (كالزعيم الروحي

في بعض التنظيمات السياسية والدينية التي نجدها في واقعنا المعيش بشكل ملموس) حيث تؤدي في بعض الاحيان الى خلق ذات اسطورية من الذات الاسلوبية في بعض المجتمعات المعاصرة (كاسترو- كوبا والقذافي - ليبيا) ، وبقدر اهمية الذات الأسلوبية في القول الحجاجي بطريقة ناجحة في ايصال المعنى وتمرير المواقف وحصول الإقناع فإن كيفية معالجة الذات الأسلوبية نظريا تبدو في غاية الصعوبة ، لأن الأمر يتطلب تحديد حالة خاصة يتم تسليط الضوء عليها من هذا الجانب .

ولعل خطاب الوزير الأول امام البرلمان (الصادر بجريدة الاتحاد الاشتراكي يوم 14 يناير2000*) يعكس بعض هذه المواصفات فهو خطاب يتميز ببعض الخصائص الأسلوبية التي تؤدي وظائف جديدة في الخطاب السياسي ، تلك الخصائص التي عولجت في التراث البلاغي العربي القديم والمعاصر ، والتي سنعمل على دراستها حسب ما يتطلبه القول الحجاجي وما يوظفه في العمليات الاستدلالية والإقناعية ، لإبراز الاهداف والغايات التي سيقت من أجلها ، كالتعليل والتأكيد والتبرير والتوسيع والتمويه والتخيير وغيرها ، ومن أمثلة هذه الطرائق ، السلب والايجاب والمقابلة والتقسيم والتسهيم والمناسبة والإدماج والتفريع والخروج... وهي طرائق توظف تداوليا كما سنرى في الخطاب السياسي وتساهم في بنائه بناء حجاجيا واستدلاليا ، بالإضافة إلى تحديد الوظائف القولية في العمليات الحجاجية ، لذلك سنعمل على إبراز الذات الأسلوبية في خطاب الويزر الأول من خلال :

1- الطرائق الأسلوبية .

2- وظائفها .

3- غايتها الحجاجية

دون الوقوف على الأطروحة العامة التي يطرحها خطاب الوزيرالأول ، أوالاستراتيجية التي بنيت عليها الآليات التي وظفها ، يتبين -من خلال خطاب الوزير الأول- أن الذات الأسلوبية تمكنت من الإحاطة بالموضوع

* انظر النص الكامل للخطاب بملحق الأطروحة

المطروح على أنظار مجلس النواب ، بالوقوف على حصيلة الحكومة في ظرف سنة ونصف ، حيث جاء متسقا ومنسجما في بنائه الأسلوبي بحضوره حضورا متميزا ونافذا من خلال بعض الطرائق : كالسلب والإيجاب ، والاستدراك والتأكيد بالنفي وغيرها ، أدت غايات حجاجية جد محددة كالتأكيد او التبريراو التعظيم يقول :

القول الأول «إننا واعون بأن سياسة التأهيل الاقتصادي التي نسير على هديها لا يمكن ان تعطي اكلها على الفور ، لكننا استطعنا والحمد لله تسجيل بعض ثمارها الأولى تبرزها عدة مؤشرات» .

يبدأ هذا القول بالأداة «إن» المؤكدة للصيغة الاسلوبية ثم يؤكد ب«أن» ثانية ثم بالنفي «لا» وأخيرا ب «لكن» الاستدراكية .

يبرز القول في بدايته أن سياسة التاهيل لم تعط ثمارها ، أي ان هناك إقرارا مؤكدا بلا جدوى سياسة التأهيل الاقتصادي على الأقل في الوقت الراهن واعترافا بالقصور ، لكن القول يستبطن شيئا آخرهو تأكيد القول بالنفي ، عن طريق الاستدراك ب «لكن» وهو ما يفيد عكس ظاهر القول ، أي أنه بداية الطريق الصحيح نحو تأهيل اقتصادي ، يتحقق عبر مراحل ، تبرزها بشكل واضح جملة الصلة «التي نسير» وشبه الجملة «على هديها» وهي تفيد التدرج والاستمرار ، وقد كان بالإمكان تعويضها ب : «الحالية «والتي لا تؤدي نفس الوظيفة الأسلوبية . كما وظف أسلوب «نفي الاستغراق» : «لا يمكن أن تعطي أكلها» وهو أسلوب يفيد التدرج كذلك ...الخ . وهذا القول ذو غايات حجاجية معينة تتمثل في تحقيق انسجام قولي ينفذ الى الآخر ويجعله مرتبطا بأطروحات الخطاب ، من خلال : «نون الجماعة» في «إننا» ، و«نسير» و«استطعنا» وعن طريق «نفي الإمكان» في «لا يمكن أن تعطي أكلها» وتقيده بالزمن «على الفور» وهذا كله يمثل اسلوبا إقراريا في الحجاج ، لكنه أخرج عن طريق السلب الى التأكيد ، الذي يتحقق في المستقبل بشكل تدريجي حيث أصبح حجة قوية تخدم أطروحة الوزير الأول .

وفي نفس السياق (خطاب الوزير الأول ص) يقول :

القول الثاني «إذا كانت هذه النتائج الأولية ، رغم حصيلة ما ورثناه في ميدان الأداء الاقتصادي اوالتدبير الإداري ، ورغم تأخير بداية العمل بميزانية 99/98 ، والظروف المناخية غير الملائمة التي عرفتها السنة المنصرمة ، لا تصل الى مستوى الحاجيات المتراكمة منذ عقد من السنين وبالأحرى الى طموحاتنا فإنها تطمئننا بما تتسم به من ايجابيات على أننا نسير في الإتجاه الصحيح» .

فالقول هنا مبني بناء شرطيا (أي شرط+ جواب شرط) ، لكن جملة الشرط لم تأت مستقلة بذاتها ، بل جاءت مقيدة بجملة «عارضة» تفسر وتبرر النصف الثاني من جملة الشرط التي تلي النصف الأول «إذا كانت هذه النتائج الأولية (رغم حصيلة ما ورثناه ورغم تأخر ...والظروف . . . .) النصف الثاني «لاترقى الى مستوى الحاجيات» . ثم يأتي الجواب «فإنها تطمئننا» . وهذه الجملة «العارضة» لم تأت عرضا في القول ، بل جاءت لتؤدي وظيفة تفسيرية وتبريرية للشرط نفسه ، بمعنى رفع مسؤولية الوزير الاول عن هذه النتائج التي لاترقى الى المستوى المطلوب ، والتي يربطها بعوامل خارجية ،» فإنها تطمئننا بما تتسم به من ايجابيات» ، جاء على غير الشرط ، أي ان النتائج الأولية رغم كل ذلك (أو مع ذلك) تطمئن وتسير في الاتجاه الصحيح .

وعموما فإن الأسلوب الذي صيغ به القول يبرز نوعا من الحبكة والمتانة المتناهيتين في طرح القضية المحورية في خطاب الوزير الأول : حصيلة التجربة الحالية ، وهي حصيلة لاترقى الى المستوى المطلوب لكنها تسير في الطريق الصحيح .

لقد اختلف كل من القول الأول والقول الثاني في الأساليب الذاتية الموظفة ، لكنها تؤدي نفس الوظائف الحجاجية ، وهي قوة الفعل والعمل الحالي ، وتجاوز الصعوبات والعراقيل السابقة ، وتخفي شيئا آخر غيرمعلن وهو أن ما أنجز هو شيء غير منتظر (وهذا ما يفيده التأكيد في القول الأول والشرط في القول الثاني) أي أن لا أحد في مكان الوزير وحكومته يستطيع إنجاز هذه المشاريع الأولية والسير بالبلاد في الطريق الصحيح ، وهو رد او جواب مباشر على الذين ينتقدون التجربة ، وهذا ما سنراه في القول الثالث الذي يوضح طبيعة الطريق الصحيح الذي رسمه في القول الأول والثاني .

القول الثالث «إنه لمن العسير ان نفلح في استعادة القانون كلمته واسترجاع القيم والاخلاق مكانتها ، وإحلال الشفافية المطلقة في أجل يقل عن سنتين ، وأن نستطيع في هذه الفترة الوجيزة تذويب الاختلالات وتقويم الانحرافات إلا اننا حرصنا في هذا المجال الحيوي على وضع الأسس لعمل ممنهج يسعى الى استئصال الداء من جذوره والتهييء له عبر إجراءات تقويمية قابلة للتطبيق ، تعكس إرادتنا في خلق قطيعة مع الماضي وإشعاعة ثقافة جديدة للمرفق العمومي» .

فالقول الثالث : وظف اسلوبين متعاضرين :

الأول : تأكيد السلب : «إنه لمن العسيرأن نفلح وأن نستطيع» .

الثاني : نفي السلب : «إلا أننا حرصنا في هذا المجال على وضع... . والتهييء» ، عن طريق الأداة «إلا» التي تفيد الإستثناف والربط وفي نفس الوقت تفيد النقض أي نقض الجملة المؤكدة سلبا «إنه من العسير ان نفلح» .

والقول الثالث : يسير في نفس مسار القولين الاول والثاني وذلك عن طريق : أولا : عرض الصعوبات التي تواجه المسيرة او التجربة في «مدة وجيزة» جدا ، وهذه الاخيرة تبدو مشكلا حقيقيا وفارضا ذاته وقد جاءت في القول الثالث مكررة «وفي أجل يقل عن سنتين» و«أن نستطيع في هذه الفترة الوجيزة» ، وهذا التكرار يؤدي وظيفة التأكيد لان القول الثالث كان سيستقيم لو جاء على الشكل التالي : «لأنه لمن العسير ان نفلح وان نستطيع... في اجل يقل على سنتين» ، لكن وظيفة التأكيد هي وظيفة حجاجية : أي على الآخر ان يقتنع بان المدة غير كافية لتحقيق كل شيء (الانتظارات) وثانيا : إبراز بعض الايجابيات : وضع الأسس والتهييء وثالثا : تقديم طرح جديد يتجاوز المخلفات السابقة .

وفي جميع الاقوال الاول والثاني والثالث جاءت الكلمات التي تدل على «الحصيلة» معرفة ، ومبررة للاخفاق والبطء الحاصل في انجاز المهام ، انطلاقا من تصور جديد يتمثل «في خلق قطيعة مع الماضي وإشاعة ثقافة جديدة...» وبالتالي يكون الانتقال في الخطاب من : عرض السلبيات وتقديم العراقيل

(تكون دائما مبررة) إلى تقديم البدائل ، وهو أسلوب تدريجي يسهل عملية الفهم لدى المخاطب ، ويستدرجه نحو قبول الخطاب والاقتناع بطروحات جديدة تكون بدائل عن الطروحات التي أدت الى هذه الوضعية المزرية .

ومن خلال دراسة خطاب الوزير الأول انطلاقات من هذه الطرائق الأسلوبية التي تؤدي مجموعة من الوظائف في العملية الحجاجية نجد أساليب متعددة تتدخل فيها الذات بشكل محكم ومنسجم داخل القول بدءا من عرض الأطروحة ، مرورا بالاستدلال وانتهاء بتقديم النتائج وطرح البدائل ومن هذه الأساليب نجد :

افتتاح القول بمصدر او مفعول أو مفعول فيه أو ظرف... وهي طرائق تبرز قيمة ووظيفة المفعول في القول الحجاجي ، حيث تتصدر القول لإثارة الانتباه حول الموضوع المطروح وليس حول الفاعل او الفعل يقول :

-«سعيا منا الى تعزيز...سيتم... . .» ص (9)

-ومؤازرة مع ذلك أعدت الحكومة استراتيجية...» ص (9)

-وفقا لاتزاماتنا بالعمل على اشراك الفعلي للمرأة... .أو لاينا... .» ص (13)

- كما إن إقدام الحكومة على إحداث ...يشكل عاملا أساسيا ص (14)

إن هذه الأقوال المبنية بناء أسلوبيا خاصا لاتخرج عن الإطار العام الذي قدمه الوزير الأول ، في جانبه الاسلوبي الخاص وجانبه الحجاجي العام ، حيث تتفاعل هذه الاساليب مع طبيعة الأقوال الحجاجية ، لتقوم بتدعيم اطروحة الوزير الأول والتركيز على دورها البنائي في عملية الفهم وحصول الاقتناع .

2-4-2- الطرائق الموضوعية : العقلانية

اذا كانت الذات تتحكم بمنطقها الداخلي الذاتي في القول ، وتطبعه بأسلوبها الخاص وتجعله دعامة أساسية في العملية الحجاجية ، فإن ذلك لا يخرج عن النطاق العقلاني للقول ، أي إن للعقل منطقه الخاص يجعل الإنسان محاصرا بمجموعة من الضرورات والضوابط الموضوعية التي توجه خطابه وتضبط سلوكه اتجاه الآخرين ، وإلا أصبح متحررا يقول مايشاء بلا ضابط ، فلا أحد سيسمعه أو يعيره اهتماما .

فلا نريد من خلال دراسة الوظائف العقلانية في الحجاج دراسة مفهوم العقل من الناحية الفلسفية أو الفكرية أو النفسية لأن لذلك مجاله الخاص ، بل ما يشغلنا هو حصر العقلانية في الطرائق التي يتوسل بها الحجاج في بناء عمليات الاستدلال ، لا بإعتبارها آليات منطقية او قياسية او غيرها ، بل باعتبارها طرائق تؤدي وظائف وأدورا محددة ومركزة في القول الحجاجي ككل ، من جهة ، وتحقق للقول الحجاجي تماسكه وانسجامه الموضوعي بنجاعته و فعاليته من جهة أخرى .

ولاشك أن مجموعة من هذه الطرائق لها بعد منطقي او قل هي وظائف تجد لها تفسيرا مناسبا في علم الرياضيات وعلم المنطق (فاليونان كانوا يعتبرون العقل والمنطق والحقيقة شيئا واحدا تقريبا) مثل التعارض والتناقض والتقابل وتحصيل الحاصل ...والتعدية والانفصال والاتصال والاحتمال وغيرها ، وهي طرائق تستخلص انطلاقا من العلاقات المنطقية والرياضية التي يبنى عليها القول بحيث تؤدي وظائف معينة في الخطاب الحجاجي بالخصوص ، لماله من خصائص تميزه عن الخطابات الاخرى ، كالمواجهة العقلانية التي يحكمها الجانب العقلاني ويوجه عملية تفاعلها (المتكلم والمستمع ومقتضيات المقام) ، ذلك لان الحجاج ليس محاكاة خالصة ولابرهانا خالصا ، تغيب فيه المواجهة والاعتراض ، بل يستطيع الجمع بين قواعد البرهان وإبداعات المخيلة ، ويبقى مفتوحا على الممكن والمحتمل ، بهدف تحقيق المتعة الفكرية وذلك بصهر المظهر البرهاني والعمق التداولي في قالب واحد .

سنحاول في هذا الجانب معالجة بعض الطرائق العقلانية الحجاجية التي تؤدي وظائف معينة تكون طريقا نحو حصول الإقناع إما بإعتبارها آليات رياضية او منطقية .

- اللاتساق INCOMPATIBILITE

يتمظهر اللاتساق في حالة المزاوجة بين إثباتين لا يتواجدان في نفس النسق دون ان ينفي الواحد منهما الآخر منطقيا ، فالكوكب لايمكن ان يكون

في نفس الوقت مجرة ونجما ، واللاتساق يخالف بذلك مبدأ التنقاض الذي يقوم على التعارض المطلق بين إثبات الشيء ونقيضه مثل :

- هذا الشيء يوجد ولايوجد .

يقوم مبدأ اللاتساق – كوسيلة حجاجية عقلانية – على علاقة اللاتساق غير المباشر بين شيئين متناقضين ، يكون الجمع بينهما في نفس النسق القولي من باب تأكيد الواحد ونفي الآخر ، وليس من باب إظهار التناقض الظاهري الذي يحتويه القول مثل : - لا يمكن للإنسان ان يكون خصما وحكما - .

فالإنسان قد يكون خصما وحكما في حالة وقد يكون حكما في حالة اخرى... فالنسق القولي هو الذي يحدد حالة الانسان و وضعه ، وتأتي قوة اللاتساق الحجاجية من كونها تجعل السامع في وضعية صعبة بين موقفين غير متسقين ، حيث يبدو معها القول متناقضا شكليا (الجمع بين المتناقضات) ، لكن الواقع والممارسة الكلامية يمكن لها ان تنزع عن القول هذا النوع من اللاتساق ، كما تنجح هذه العلاقة الحجاجية في تقريب الشيء او المفهوم او الفكرة من المستمع أكثر ، إذ تستهدف سوق الفكرة ونقيضها المفترض من أجل إحداث خلل في ذهن السامع ، أو على الأقل إضعاف قوته الاستدلالية ، حيث تجعله يقبل الاطروحة المقدمة له او يتراجع عن الاطروحة التي يؤمن بها أو تؤدي به الى اعتقاد شيء آخر بديل ، يكون موضوعا جديدا للتأمل عكس التناقض المنطقي (إما هذا أو هذا) مثل : (فيك الحكم و الحكم)

- البحر وراءكم والعدو أمامكم .

فالتأمل سينصب على موضوع جديد لأن البحر معروف(سفن محروقة) والعدو معروف (السلاح والقتال والعتاد...) هذا الموضوع الجديد هو التفكير في طريقة التغلب على العدو (استراتيجية وتكتيك) . وينجم التأمل في اللإتساق بشكل مكثف في الحالات التي تتعارض فيها القوانين المختلفة (القوانين الاخلاقية والوضعية القانونية والمعرفية والكونية...) في ظروف معينة ، حيث يوجه المتكلم بشكل دقيق الى تقديم اطروحاته بناء على ملاءمة هذه الخصوصيات الظرفية لانتظارات مستمعين ومخاطبين لهم اعتقادات مختلفة للوصول الى فكرة جديدة ومقبولة من طرف الجميع .

ويمكن حصر مبدأ اللإتساق في العمليات الحجاجية بين عمليتين عقليتين هما الثالث المرفوع والاختيار الصعب ، فكلما اتجه اللاتساق نحواليمين أعطى» الثالث المرفوع» وكلما اتجه نحو اليسار أعطى «الاختيارالصعب» . اذ يقوم الطرفان المتقابلان ، بتنشيط عملية اللاتساق التي نمثل لها بالشكل التالي :

الثالث المرفوع ⟵ اللإتساق ⟶ الاختيار الصعب

العدالة لا تعدل ⟵ ⟶ إما الإنتصار أو الردى

- **الثالث المرفوع :**

لم يعد هذا المبدأ المنطقي يوظف في العملية الحجاجية بطريقة آلية وصورية ، (موجود أو غير موجود ، صادق او كاذب) بينهما علاقة ثنائية متنقاضة ، بل اصبحت هناك علاقات اخرى (قيم اخرى) ، تتدخل فيها العناصر الوسيطة بين الشيء ونقيضه ، فبين الليل والنهار يوجد الفجر والغروب مثلا ، كما تتدخل فيها كذلك بعض العناصر التداولية ، حيث يمكن القول بأن العدالة لاتعدل دون خرق لمبدأ الثالث المرفوع او مبدأ الهوية .

فالعملية الحجاجية تخرق هذه المبادئ المنطقية من الناحية الشكلية ، دون ان تؤدي الى تناقضات قولية ، إذ توظفها من الناحية الاستدلالية لتأكيد شكل القول الحجاجي ، حتى تخفي بذلك التناقضات الضمنية والمحتملة في القول ، وتجعل المستمع يختار الايجابي والمناسب الذي يقترحه المتكلم ، ويستعبد مايراه المتكلم غير مناسب مثل :

1- إن نهج سياسة التقشف سيؤدي الى التقليص من الديون الخارجية .

2- إن تطبيق نظام التقويم الهيكلي سيمنح الدولة قروضا جديدة

فما هو خفي في المثال الأول ، هو التعارض بين سياسة التقشف وسياسة الرفاهية من جهة والتقليص من الديون ، وارتفاع الديون من جهة أخرى ، ويفهم التناقض والتعارض من خلال إعادة ترتيب هذه العناصر الأربعة على الشكل التالي : المربع التداولي :

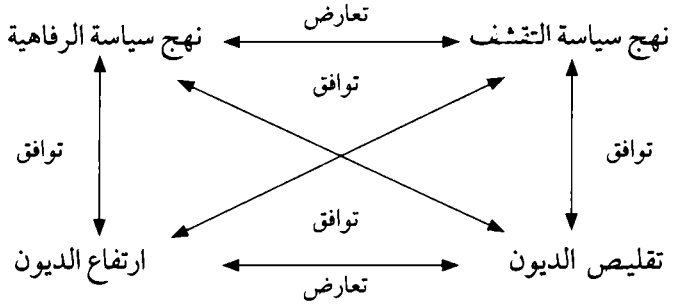

ومن ثم يكون اختيار التوافقات المحتملة (التناسبات) والملائمة للمتكلم وفي نفس الوقت استعباد ما هو غير ملائم بحيث يسمح هذا الاختيار بإدخال مجموعة من المفاهيم والاجراءات التي ترتبط بسياسة التقشف(التقليص من الأجور ، الرفع من الأسعار) وتقليص الديون (الزيادة في الضرائب ، الزيادة في الرسوم الجمركية) ومن هنا تكمن خطورة هذه العلاقات الحجاجية في تمرير مجموعة من الأشياء التي تكون مستعبدة في البداية من طرف المستمع ، فحين يقبل بالطرح الأول يكون مضطرا لقبول الطروحات الموالية دون أن يكون له مجال الاختيار .

الاختيار الصعب DILEMME : وهو عكس الثالث المرفوع يترك المجال مفتوحا أمام المستمع للاختيار بين نقيضين محرجين في نفس الوقت «أحلاهما مر» ، يستعمله المتكلم لتبرير موقفه أو تبرئة ذمته ، ليحمل المستمع على التقرير في ما هو أصلح . لكن القوة الحجاجية تكمن في أن الاختيار الصعب يعمل على احتواء المستمع وخلخلة اختياراته المسبقة ، وإيهامه بأنه صاحب القرار الأخير ، الذي قد يكون مقررا مسبقا من طرف المتكلم ، مثل : «أنا أوالفوضى*» ، حيث يكون الطرفان المتقابلان من الناحية الدلالية غير قابلين للتقابل ، مما يجعل المستمع في الغالب يختار «الأنا» ويستبعد الفوضى ، لا لكون «الأنا» تخفي الهدوء والسلامة ، لأنه قد لا يكون «الأنا» وقد لا تكون «الفوضى» في نفس الوقت ، و هذا ما يجعل الطرح الحجاجي من هذه العلاقة اختيارا صعبا .

* أنا أولا أحد

ونشير في الاخير إلى أن الاختيار الصعب لايرتكز على سلطة مادية أو معنوية وليس نابعا من الأمر او النهي عن طريق الربط (الوصل) مثل «خذ وطالب» او «أد الواجب وادفع» بل يرتكز على اختيار المستمع فقط لما يطرحه المتكلم من إمكانات .

- **الطرائق المنطقية** : التقابل : هو مفهوم شامل للمفاهيم التالية* : (التناقض التعارض التعاكس التباين...) وهو طريقة عقلانية يستوعبها العقل الانساني بسرعة فائقة تسهل عملية الفهم وتساعد على إدراك الأشياء ، دون ان تكون هذه الاشياء محددة في ذاتها(ابيض اسود) ، لذلك كان الكشف عن الحقيقة لدى الفلاسفة اليونان كما يقول «هيجل» يبدأ بتصادم الافكار المتعارضة وينتهي بتلاحمها ، ذلك لان التقابل في الطبيعة والانسان في تماس مستمر يجعل من كل علاقة واقعية علاقة تقابل ، حتى الانسان في ذاته وتجاربه وعلاقاته يحتوي على مبدئي السلب والايجاب .

ويكون الهدف من بناء القول بناء تقابليا طرحا إشكاليا للفكرة او الاطروحة ، أي البحث عما وراء تقابل الافكار وليس البحث في التقابل في ذاته ، او البحث في الثنائيات المتعارضة فيما بينها ، لأن العقل يتجاوز ذلك الى تفكيك الاطروحات والأحداث والأفكار والوقائع والمواقف لاستخلاص الدلالات والحقائق الكامنة وراء ذلك .

ويقوم القول الحجاجي بتوظيف هذا النوع من التقابلات في الاستدلال والحجج والاقناع ، حيث يتم بناء القول على شكل شبه معادلات منطقية متقابلة ، وذلك بهدف إبراز القوة الحجاجية وتوجيهها بشكل عقلاني حتى تحرك تفكير المستمع وتجعله يقبل على القول مثل :

- إن دولة وقعت على كل الاتفاقيات الدولية المتعلقة بحقوق الانسان لازال نظامها يعمد الى الاعتقال التعسفي وإلغاء حق الإضراب وقمع المتظاهرين .

ينطلق المستمع من أنه يعرف الدولة التي يحددها المقام والتي وقعت على المواثيق الدولية لحقوق الانسان ، وفي نفس الوقت تخالفها على المستوى

* والتقابل قد تكون بين لفظين مترادفين لهما نفس المعنى وهي وهي لا تهمنا هنا

العملي ،إنه تقابل لايقبله العقل ولا المنطق ، ولكنه موجود في الحقيقة وحاصل في الواقع ، مما يفتح المجال امام المستمع لاستعمال قدراته العقلية ، لفك هذا التقابل ، انطلاقا من تأويله الخاص ، فإما أن الدولة مثلا تحترم المواثيق ، او تلغي الانسان من منظوماتها القانونية ، إذ يجد المستمع نفسه امام طرح موضوعي لقضية ما من خلال التقابلات العقلانية الموجودة بالفعل ، و يستطيع أن يستوعبها ويدركها جيدا فتهيئه لفعل او اعتقاد اورد فعل معين . وهنا تكمن قوة التقابل الحجاجية : تقابل لايقبله منطق العقل ولا يرفضه منطق الواقع ، كما تكمن في كونها تدفع الى البحث عن مخارج لهذه التقابلات ، وايجاد الفائدة من عدم الفائدة ، او البحث عن الصحيح من خلال الخطأ ، بخلق معنى جديد او التهيئ لمعنى آخر كما في :(مُومِن ومتورط في الفساد) .

- **الطرائق الرياضية** : نماذج اللانفصال والتبادل :

هي طرائق تحكمها علاقات رياضية او شبه حسابية تؤدي الى نتائج او حقائق ثابتة على المستوى العقلي .

أ-بنية اللانفصال : هي طريقة رياضية تجمع بين شيئين او فكرتين يتعذر فصلهما بحيث لايمكن اعتبار الواحد دون الاخر «لاناكل البيضة دون تكسيرها» أولا يمكن تحقيق الشيء الثاني دون تحقيق الشيء الأول ، وهو ارتباط يجد متانته وقوته (في شكله الرياضي) على مستوى التحليل العقلاني ، و الصحة المنطقية .

إن بناء القول على اللانفصال يزيد من قوة الفكرة او الطرح الذي يتضمنه القول ، ويجعله غير قابل للدحض او الرد او التجزيئ . ولهذا يوظف الحجاج هذه الطريقة في بناء القول ، لتأكيد الفكرة التي يطرحها ، حيث تستمد نجاعتها وفعاليتها من الطبيعة العلائقية التي تجعل القول على المستوى الشكلي ، غير قابل للتجزيئ (أي فصل الفكرة عن اخرى) ، وعلى المستوى العقلاني ، قابل للتصديق ، ويكون اللانفصال في القول شرطا اساسيا بالنسبة للمتكلم ، يقيد به اختيار المستمع ويدفعه الى قبول القول كاملا او تركه كاملا ، ولكون القول الحجاجي يوظف لغة طبيعية ، وينطلق من مقدمات مشهورة او ظنية

في الواقع ، مما يفتح المجال امام المستمع لاستعمال قدراته العقلية ، لفك هذا التقابل ، انطلاقا من تأويله الخاص ، فإما أن الدولة مثلا تحترم المواثيق ، او تلغي الانسان من منظوماتها القانونية ، إذ يجد المستمع نفسه امام طرح موضوعي لقضية ما من خلال التقابلات العقلانية الموجودة بالفعل ، و يستطيع أن يستوعبها ويدركها جيدا فتهيئه لفعل او اعتقاد اورد فعل معين . وهنا تكمن قوة التقابل الحجاجية : تقابل لايقبله منطق العقل ولا يرفضه منطق الواقع ، كما تكمن في كونها تدفع الى البحث عن مخارج لهذه التقابلات ، وايجاد الفائدة من عدم الفائدة ، او البحث عن الصحيح من خلال الخطأ ، بخلق معنى جديد او التهيئ لمعنى آخر كما في :(مُومِن ومتورط في الفساد) .

- **الطرائق الرياضية** : نماذج اللانفصال والتبادل :

هي طرائق تحكمها علاقات رياضية او شبه حسابية تؤدي الى نتائج او حقائق ثابتة على المستوى العقلي .

أ-بنية اللانفصال : هي طريقة رياضية تجمع بين شيئين او فكرتين يتعذر فصلهما بحيث لايمكن اعتبار الواحد دون الاخر «لاناكل البيضة دون تكسيرها» أولا يمكن تحقيق الشيء الثاني دون تحقيق الشيء الأول ، وهو ارتباط يجد متانته وقوته (في شكله الرياضي) على مستوى التحليل العقلاني ، و الصحة المنطقية .

إن بناء القول على اللانفصال يزيد من قوة الفكرة او الطرح الذي يتضمنه القول ، ويجعله غير قابل للدحض او الرد او التجزيئ . ولهذا يوظف الحجاج هذه الطريقة في بناء القول ، لتأكيد الفكرة التي يطرحها ، حيث تستمد نجاعتها وفعاليتها من الطبيعة العلائقية التي تجعل القول على المستوى الشكلي ، غير قابل للتجزيئ (أي فصل الفكرة عن اخرى) ، وعلى المستوى العقلاني ، قابل للتصديق ، ويكون اللانفصال في القول شرطا اساسيا بالنسبة للمتكلم ، يقيد به اختيار المستمع ويدفعه الى قبول القول كاملا او تركه كاملا ، ولكون القول الحجاجي يوظف لغة طبيعية ، وينطلق من مقدمات مشهورة او ظنية

* الخطاب السابق [الملحق]

إن القول يبنى على علاقة التبادل باعتبارها شرطا اساسيا لتحقق فكرة بين طرفين متناظرين لتصبح ملزمة لهما معا ، إذ توظف هذه العلاقة بكثرة في الأمر والنهي الافتراضيين مثل : «لا تفعل للغير ما لايجب ان يفعل بك» أي افتراض نهي او امر مطلوب تحقيقه او ابعاده من كلا الطرفين المتناظرين .

أما البناء التبادلي في الحجاج فيأتي كحجة للإعراب عن مجموعة من الأهداف والغايات التي تفترضها السياقات المقامية ، ردا على انتقادات الآخر ومعارضته لأطروحة المتكلم ، حيث تجعل من الآخر ذاتا في المتكلم ، عليه ان يقبل وضعيته ويعالج القضية او المشكل الذي يطرح ، وكانه هو صاحب الدعوى بدل خصمه كأن نقول مثلا :

«ضع نفسك في مكاني» فالمتكلم يطلب افتراضا من المستمع ان يحل مكانه لكي يحس بالصعوبات والعوائق او الحرج الذي يواجهه ، والذي لايستطيع احد في مكانه ان يفعله اويعالجه ، ليجعل المستمع يتراجع او يحتفظ بطلبه او بدعواه ، وفي نفس الوقت يتيح للمتكلم أن يتخلص من الجواب او الفعل او الالتزام . ويكثر استعمال الحجة بالتبادل او التناظر في المسائل الحقوقية او الاخلاقية كما يؤكد ذلك روبريو ، ضاربا بذلك مثالا حيا ومعبرا عن النفاق او الرياء الذي يفيده هذا النوع من البناء ، كغرض حجاجي مثل : «كيف يمكن ان تتهم البرجوازية المرأة بالفساد الاخلاقي اذا كان ابناء عائلاتها يطلبونها لخدمة مصالحهم» .

2-4-3- الطرائق الواقعية : تجارب حدوس

ان الواقع وكل تمظهرات الفعل الانساني ، سواء تعلق الأمر بتفكيره أوكل ما تختزنه ذاكرته من تجارب وممارسات تشكل احدى الركائز الاساسية في تعامل الناس فيما بينهم وتعد شهادات حية توجه تصرفاتهم ، وحقائق ملموسة تكون الإطار او المجال الذي يضع الحدود المناسبة والفاصلة لفعل الانسان وحركته وتفكيره ، «الانسان ابن بيئته وابن طينته» ، فكثير ما يكون المحيط الخارجي(ثقافي اجتماعي... .) عائقا أمام الإبداعات الحرة للفرد وابتكاراته الذاتية في بعض المواقف والآراء .

هذا الواقع قد يمثل في كثير من المناسبات مفهوم «المعيار» الذي يتحكم في مقبولية هذا القول او الفعل اورفض هذه الممارسة او تلك . والمعيار كما هو معروف لايكون ناتجا عن الحقائق العلمية او البرهانية او ناتجا عن التفكير العقلاني ، بل يعبر في الغالب عن تقاليد وعادات وطقوس خاصة و قيم ، يكون مصدرها عقائديا او خرافيا او اجتماعيا او ثقافيا او حتى شخصيا ، تطبع تفكير الناس وتلهم مشاعرهم ، فيعملون دائما على احترامها وتطبيقها والعمل على مراعاتها وتقديرها ونبذ مخالفيها . إنها تصل في بعض الاحيان الى التيار العارم الذي يأخذ معه كل شيء ،كما يمكن ان يعبر هذا الواقع «المعيار» عن الطقوس والإشارات والممارسات المتحولة مع الزمن في وقت معين ، وتسمى غالبا «الموضة» التي تفرز اشكالا جديدة من «الحقائق» الجماعية والثقافية ، وتشغل الناس عن العادات والتقاليد وتحول أنظارهم وافعالهم عنها ، وقد تكون حقائق مناقضة للأعراف ، يستقبلها الناس ويؤمنون بها دون وعي بطبيعة هذا التحول وخلفيته ومراميه .

إن دراسة الواقع بكل تجلياته وتمظهراته الاجتماعية والثقافية يعد حقلا خصبا للدراسات الاجتماعية والأنطربولوجية ليس من مهمة هذه الدراسة الخوض في تحليل الاسباب والاصول والمسارات . بقدر ما يهم دراستنا من وقائع وأحداث مركبة ، وتمظهرات حقيقية تشكل وعي الفرد والجماعة ، وتؤثر في ممارسته الكلامية داخل الخطاب الحجاجي ، باعتبارها «رأيا» يوجه العملية الحجاجية نحو المفارقة و الاختلاف أو المماثلة و الاتفاق ، و هي طرق ذات منطلقات واقعية يتحكم فيها منطق الواقع ومنطق الحقيقة مما يجعلها تؤدي مجموعة من الوظائف داخل القول الحجاجي ، بهدف الإقناع وإثارة شعور المستمع ، من خلال تصوير هذه الوقائع في شكل صور اجتماعية او نفسية ، تشكل حالات خاصة لدى الانسان : كالسخرية والهزء والضحك والتهكم والارتياح والتذمر...وهذه الصور والحالات المؤثرة لايحركها إلا الحدس القوي بالطبيعة الانسانية المركبة والمعقدة في علاقاتها بالمتخيل الثقافي والاجتماعي . .حدس يستوعب تجارب الحياة ومتطلباتها ويستمد منها ما يناسب الحالات الانسانية واللحظات الملائمة لتحصيل نتائج معينة .

ان مثل هذه الطرائق المبنية على الواقع (المفارقات والمماثلات) والتي تعتمد الحدس لا تقل اهمية عن الطرائق الذاتية والعقلانية في بناء القول الحجاجي ، إذ بها يأخذ القول قيمته الانسانية والتداولية وبها يحصل الاقتناع

ومن هذا الجانب سنعمل على دراسة المفارقات ، بالخصوص ، في الخطاب السياسي باعتبارها طرائق واقعية يستكنهها حدس المتكلم انطلاقا مجموعة من العوامل الخارجية(وقائع ، تجارب ، اسباب ومسببات) ويشكل من خلالها حالات نفسية واجتماعية انسانية (تهكم ، سخرية ، هزء) هي عبر دالة لايمكن ان تمر دون ان يكون لها اثر اووقع على الانسان ايجابا او سلبا .

نموذج المفارقات المبنية على الواقع :

وهي طرائق مبنية على بعض المفارقات التي تفرزها بينة الواقع تستعمل في الاستدلال لتثير وتصدم افكار ومعتقدات الانسان ، وتشوش رأيه الخاص والعام ، اتجاه قضايا اجتماعية او ثقافية ، لذلك اعجب «روسو» بهذه الطرائق المستعملة في الاستدلال وقال بشأنها «اريد ان أكون رجل المفارقات على ان أكون رجل المسبقات» أو كما وصفها GRACIAN بانها «وحش الحقيقة»لأنها تهدف إلى وضع مجموعة من القيم والحقائق موضع تصادم وتفارق ، تدفع الى اعادة التفكير في اسسها وخلفيتها وغاياتها للوصول الى استنتاج جديد وتأويل مناسب ، فالمستمع او الآخر يعيش داخل مجموعة من المفارقات الواقعية (اجتماعية او ثقافية) قد لا يدركها بشكل مباشر وحين يدركها تدفعه الى إعادة ترتيب الافكار والقضايا موضوع التصادم ، وذلك بحل هذه المفارقات انطلاقا من الصورة الجديدة او الحالة الحية التي ينتجها الاستدلال الحجاجي كما في المثال الذي أورده «روبريو» :

- «ليس للشعب سوى خصم واحد هو حكومته» .

فالحكومة في التقليد السياسي هي مشروعية دستورية ، تقوم بتدبير وتسيير الشأن العام وتنظم العلاقات بين المؤسسات وبين الجماعات والمنظمات

* Eléments de rhétorique et d'argumentation

ان مثل هذه الطرائق المبنية على الواقع (المفارقات والمماثلات) والتي تعتمد الحدس لا تقل اهمية عن الطرائق الذاتية والعقلانية في بناء القول الحجاجي ، إذ بها يأخذ القول قيمته الانسانية والتداولية وبها يحصل الاقتناع

ومن هذا الجانب سنعمل على دراسة المفارقات ، بالخصوص ، في الخطاب السياسي باعتبارها طرائق واقعية يستكنهها حدس المتكلم انطلاقا مجموعة من العوامل الخارجية(وقائع ، تجارب ، اسباب ومسببات) ويشكل من خلالها حالات نفسية واجتماعية انسانية (تهكم ، سخرية ، هزء) هي عبر دالة لايمكن ان تمر دون ان يكون لها اثر اووقع على الانسان ايجابا او سلبا .

نموذج المفارقات المبنية على الواقع :

وهي طرائق مبنية على بعض المفارقات التي تفرزها بينة الواقع تستعمل في الاستدلال لتثير وتصدم افكار ومعتقدات الانسان ، وتشوش رأيه الخاص والعام ، اتجاه قضايا اجتماعية او ثقافية ، لذلك اعجب «روسو» بهذه الطرائق المستعملة في الاستدلال وقال بشأنها «اريد ان أكون رجل المفارقات على ان أكون رجل المسبقات» أو كما وصفها GRACIAN بانها «وحش الحقيقة» لأنها تهدف إلى وضع مجموعة من القيم والحقائق موضع تصادم وتفارق ، تدفع الى اعادة التفكير في اسسها وخلفيتها وغاياتها للوصول الى استنتاج جديد وتأويل مناسب ، فالمستمع او الآخر يعيش داخل مجموعة من المفارقات الواقعية (اجتماعية او ثقافية) قد لا يدركها بشكل مباشر وحين يدركها تدفعه الى إعادة ترتيب الافكار والقضايا موضوع التصادم ، وذلك بحل هذه المفارقات انطلاقا من الصورة الجديدة او الحالة الحية التي ينتجها الاستدلال الحجاجي كما في المثال الذي أورده «روبريو» :

- «ليس للشعب سوى خصم واحد هو حكومته» .

فالحكومة في التقليد السياسي هي مشروعية دستورية ، تقوم بتدبير وتسيير الشأن العام وتنظم العلاقات بين المؤسسات وبين الجماعات والمنظمات والافراد ، والشعب جزء من هذا الكل تنطبق عليه قوانينها ونظامها ، لكن

كيف يمكن ان تكون خصما للشعب؟ وهو الذي اختارها بنفسه عن طريق الانتخاب .

قد تكون المفارقة هنا في كون الحكومة لم تحقق ما وعدت به أو ما كان يطمح إليه الشعب في مقابل اختياره للحكومة/ الخصم ، وبالتالي عليه ان يفكر في طريقة اختياره أي الأسس والمبادئ والمرجعيات التي اعتمدها لاختيار من يمثله ومن يقوم على تدبير وتنظيم مصالحه وتحقيق مطامحه...وتتعدى التأويلات الى مجالات اخرى : (الاحزاب التي تشكل الحكومة برامجها واديولوجياتها وسائل المراقبة) . إن المفارقة في الاخير هي ان الشعب هو الذي ساهم في خلق هذه المفارقة الواقعية ، وهي اختيار حر لخصمه ينبغي ان يفكر في تغييره وإعادة النظر في قواعده...

غير أن الاستدلال بالمفارقات المبنية على الواقع قد يولد صورا كاريكاتورية من خلال معالجة نقدية للحالات الاجتماعية للناس ، تأخذ صورا من السخرية او الهزء او التهكم ...تتطلب استيعابا ووعيا جماعيا وفرديا كما تتطلب استخلاص الدروس منها بقصد إمكانية تغييرها وإستبدالها ، بما يخدم طبيعة وقيم ومبادئ انسانية خالية من كل مفارقة .

وسوف نقوم بدراسة نموذجين حجاجيين في الخطاب السياسي (المغربي والفرنسي) يطرحان مثل هذه المفارقات التي تنتج صوارا صارخة في الثقافة السائدة .

1 -«البلاد واحدة ولكن» : حديث المحرر(حسن نجمي) الاتحاد الاشتراكي عدد : 24 :5918 اكتوبر 1999 .

«يحدث هذا الشتات .....» والشتات يعني به الكاتب الصحفي ان كل مدينة لها ادارتها الخاصة بها وعلى المواطنين الذين يريدون قضاء مصالحهم (تأدية فاتورة الهاتف) ان يؤدوها في المدينة التي يقطنون بها رغم وجود مصالح في مدن اخرى قد تكون مناسبة أثناء السفر مثلا .

فالقول هنا معبر عن ذاته من خلال المفارقة الواضحة التي تنتج صورة ساخرة من هذا الواقع فإذا كان المواطن في امس الحاجة الى ادارة وطنية لها شبكات في مختلف المدن والاقاليم لتسهيل قضاء مصالح الناس اينما كانوا

رد الوزير الأول جوسيان و(الذي لم يتأخر كثيرا) خاصة وأنه كان متأكدا من أن هذا السؤال موجه من قصر الرئاسة :

«لقد نقلت الرسالة بدون أخطاء إملائية ، إذا كنت تبحث عن شبكة منظمة ، وعن تسيير مهيكل أو دور حزبي ، أو امتيازات شخصية . والتي كانت مرتبطة بتاريخ قديم يتجاوز 20 سنة . فلن تجد ذلك في جهتي» .

لقد كان جواب جوسبان ساخرا ومتهكما في نفس الوقت وموجها بشكل مباشر لرئاسة الجمهورية «الرئيس شيراك» الذي كان عمدة لباريس منذ 20 سنة مضت وهي الفترة التي عمد إلى النبش فيها النائب الدوغولي بوعي أو بدون وعي ، ومن ثم فإن المسؤولية المباشرة كما افترضها النائب ستعود للعمدة «شيراك و خليفته فيما بعد جون تيري» الذي ينبغي ان يحل مشاكله مع القضاء أولا وأن يبحث في دواعي اقتراض النائب ثانيا .

إن رد جوسبان من خلال حدسه القوي وبناء على معطيات واقعية جعلته يحرج النائب ومن ثم رئاسة الجمهورية ، لقد كان جوابه تبكيتيا* .

* الاتحاد الاشتراكي : 24 نونبر 1999

الفصل الرابع

الحجاج ونظرية المساءلة

1- نظرية المساءلة : المساءلة إكسير الحجاج

قدمت النظريات التداولية والتأويلية والمعرفية وعلم اللغة وعلم التواصل وعلم النفس المعرفي... مجموعة من المناهج والمفاهيم والآليات الإجرائية التي استفاد منها دارسو الخطاب عامة والخطاب الحجاجي خاصة . حيث ساهمت في تطوير طرائق تحليل الأقوال الإقناعية ، والأقوال التي تدخل في إطار العمليات التخاطبية والتواصلية ، فقد راكمت النظرية الحجاجية المعاصرة من الدراسات والأبحاث مالا يمكن حصره وتجميعه في مقاربة واحدة ، أو تتبع مساراته المختلفة ، نظرا لتعدد الإتجاهات واختلاف الرؤى وتداخل العلوم المعاصرة ، بحيث يصعب معها إيجاد القواسم المشتركة التي قد تلتقي حولها نظريات تحليل الخطاب الحجاجي ، لذلك كانت محاولاتنا في الفصول السابقة تهدف الى تحديد الإطار العام لنظرية الحجاج وإلى إبراز حدوده وتقاطعاته . واستراتيجيته وخصائصه وآلياته وطرائقه و أطره ، حتى يتمكن الدارس من الإلمام بكل الجوانب التي تدخل في الإطار النظري العام ، لغياب دراسات عربية معاصرة متخصصة في هذا الجانب ومنفتحة على الدراسات الغربية التي لا يمكن تعدادها أو مقاربتها كليا .

لكن لازالت هناك أسئلة تطرح نفسها بإلحاح والتي تتطلب دراسة أو مقاربة جديدة يمكن إجمالها في :

-هل يمكن اختزال الخطاب الحجاجي في الاستراتيجية والآليات والتقنيات؟

- هل نكتفي بطرح المقدمات وبناء الاستدلالات واستنتاج النتائج؟
-هل تنتهي وظيفة الحجاج في الإقتناع؟
- هل استغرقت النظريات التداولية المعاصرة كل ما يحيق بالخطاب الحجاجي؟
- هل انتظمت القواعد التداولية كل ما يتعلق بالخصائص الحجاجية؟
- كيف يتم الفصل المنهجي بين ماهو حجاجي وما هو تواصلي وماهو تداولي وماهو نفسي وماهو لساني وغير لساني؟

إنها أسئلة وإشكالات تستوقفنا كلما عمقنا البحث والتحليل في الخطاب الحجاجي إشكالات تخرجنا من دائرة البحث داخل الخطاب الى فضاء البحث خارجه ، رغم أهمية ماقدمته الدراسات التحليلية والإجرائية من نتائج وخلاصات ضرورية تطلبتها المقتضيات المنهجية التقنية و زمن الآلة والشفرة والأنترنيت . .

ولكي تكتمل نظرتنا سنعمل على توظيف نظرية فلسفية تناولت العمليات التخاطبية عامة والعمليات الحجاجية خاصة من منظور جديد ، يستهدف الخطاب في عمومه ويبحث له عن موقع داخل إشكالات المعرفة الإنسانية ، موقع مرتبط بهموم وآفاق وانتظارات الفكر الآني والمستقبلي للإنسان يتعلق الأمر بنظرية «المساءلة «حيث سنقوم في هذا الفصل بتقديم الإشكالات العامة للتواصل والحجاج من منظور تساؤلي[دون الوقوف على التفاصيل والجزئيات) و هي محاور قمنا بمعالجتها في الفصول السابقة] يفتح أفق البحث أمام قضايا إنسانية كونية(انتظارات و اكراهات و افتراضات)وإشكالات معرفية عامة . هي عناوين سنقدمها بشكل مختصر جدا في هذا الفصل يمكن البحث فيها لاحقا) خارج هذه الدراسة (لأهميتها خصوصا في مجال تنمية الفكر النقدي و الفكر التساؤلي في عالمنا العربي .

1-1- نظرية المساءلة و البلاغة[1]

يعتبر (مايير) أحد منظري البلاغة «المعاصرة» الذي أحدثت دراساته الأخيرة طفرة نوعية في تحليل الخطاب في مجال التواصل والإقناع ، انطلاقا من

وجهة نظر فلسفية تعتمد البعد الإفتراضي/ الانتظاري ، وتستند الى الإختلافات الإشكالية في التأويل والفهم خصوصا في كتابيه[1] وقد استفاد (مايير) من مختلف العلوم المعاصرة للتواصل والنظريات المعرفية والهرمونيتكا ، والظاهراتية ، في قراءة البلاغة الكلاسية والجديدة معا . فتمكن من إبراز المكونات الجديدة للخطاب الحجاجي البلاغي من خلال تصور جديد منفتح على العلوم الإنسانية الفلسفية بالخصوص . حيث لم تعد البلاغة في منظور «مايير» مرتبطة بفن الإقتناع أوفن التعبير فقط بل أصبحت طرحا إشكاليا لمختلف القضايا والتساؤلات التي عالجتها النظريات المعرفية والفلسفة والتواصلية داخل نظام اللغة وخارج نظامها ، أي كل ما هو متعلق بالإنسان : الذاكرة والعقل ومعارف موسوعية ، إنها عناصر تشكل أساس العلاقات التخاطبية بين الناس ، علاقات تخاطبية غير جاهزة أو معطاة ، بل هي علاقات مفترضة : أسئلة وأجوبة ، وأجوبة وأسئلة في نفس الوقت ، «إن استعمال اللغة (في آخر المطاف) يعني إثارة الانتباه حول سؤال مفترض ، قد نكون متفقين حول مضمونه او قد لانكون ، لكنه يشكل نقطة انطلاق التواصل بين الناس» [2] .

من خلال ذلك يتضح أن اختلاف الاستعمالات القولية أي التمييز بين طبيعة قول وآخر (انشاء ، خبر ، تأكيد ، اعتراض) ليست نتيجة للاختلافات الشكلية أو المضمونية ، ولكن هذا الإختلاف يظل قضية إشكالية داخل نظام اللغة كجزء من نظام العالم الاشكالي ، الذي يبني الفكر ويشغل الذهن البشري ، من اجل قول ، وإيجاد شيء ما ، وليست اللغة إلا التمظهر الحقيقي لهذا الإختلاف الإشكالي الذي تجيب عنه وتعالجه نظرية المساءلة لدى مايير . وهكذا فالقول الحجاجي هو جزء من اللغة ، يبدأ في الوقت الذي يعطي فيه الإنسان لنفسه الحق في القول والفعل[3] ويهدف الى إثارة سؤال بواسطة سؤال آخر ، ويكون الإقناع فيه مجرد طرح للمشاكل التي يثيرها المتكلم والمستمع فيما بينهما .

---

1 - Questions de rhétorique et Questions de rhétorique logique– langage – argumentation

2 - Questions de rhétorique P : 74

3 - Ibid P : 92

1-2- إشكالية المساءلة والحجاج.

تعد نظرية المساءلة إحدى النظريات المعاصرة التي قامت بمعالجة الخطاب بصفة عامة والخطاب الذي يتم داخل عمليات التخاطب خاصة ، سواء كان تواصلا عاديا ، أم حجاجا يهدف إلى الإقناع ، وقد استطاع «ماييير» اعتمادا على منطلقات معرفية ومرتكزات فلسفية أن يؤسس منهجا تساؤليا يقوم على مبدإين اثنين :

أولا : المبدإ الإفتراضي في تحليل الأقوال .

الثاني : مبدإ الإختلاف الأشكالي داخل الأقوال .

1-2-1- المبدأ الإفتراضي :

تقوم كل الأقوال في العمليات التخاطبية على مبدإ الافتراض المؤسس على الجواب والسؤال المفترضين ، انطلاقا من مجموعة من المقومات التي تحكم العمليات التواصلية ، كالسياق والمعلومات الموسوعية والتجربة الذاتية والقدرات التفكيرية والتأويلية والتخييلية ، إذ يصبح كل قول (خبراً ، إنشاء ، سؤالا ، تعجبا ، أمرا ، نهيا...) افتراضا لشيء ما داخل سياق تخاطبي معين ، أي جوابا عن سؤال سابق وسؤالا لجواب لاحق ، وبهذا يعبر الافتراض عن انتظارات متعددة ومختلفة تقتضيها العلاقات الإنسانية لتحقيق أهدافها ومراميها .

1-2-2- مبدأ الإختلاف الإشكالي :

يقوم على طرح الاختلافات القائمة بين الأقوال ويهدف إلى تحقيق وظيفة القول ، تواصلا أو إقناعا ، وهذه الاختلافات هي الميزة الحقيقية في العمليات التخاطبية ، ليس باعتبارها تنوعات قولية في الشكل والمضمون بل باعتبارها اختلافات تحكمها ضرورات ترتبط بالمعارف والخلفيات السياقية والثقافية التي يتوفر عليها الذهن البشري ، ويبنين بها تفكيره الخاص ، إذ تصبح محورا للإختلاف الإشكالي الذي تجسده اللغة من متكلم لآخر ، كالبصمة التي تميز شخصا عن الآخر . لكن المظهر الإشكالي للاختلاف الذي يمتاز به تفكير

الإنسان والذي يجسده قوله في علاقاته التخاطبية مع الآخرين ، لا يلبث أن تتقلص حدته وتختفي « أعراضه » ، فالإنسان لا يتواصل ، لأن كل شيء بالنسبة إليه محط اختلاف مع الآخر أو لأن كل شيء جلي وواضح ، وإنما يتواصل ليجيب عن الأشياء الغامضة ، وليحل الإشكالات المعلقة ، أو ليطرح أسئلته ومشاكله ، إنه يتواصل كي يبحث ويوجد القواسم المشتركة التي تفرضها الطبيعة التواصلية الإنسانية .

وهكذا تعد نظرية المساءلة بحثا في الانتظارات المفترضة داخل الأقوال وبحثا في الاختلافات الإشكالية التي تجسدها اللغة ، فبين الإنتظارات الافتراضية والاختلافات الإشكالية يأتي القول لتقريب الاختلاف والإجابة عن الانتظارات وفتح الباب أمام اختلافات وانتظارات أخرى هي غاية الخطاب الحجاجي ، مما يدل على أن التفكير هو دوما مساءلة .

2 - المساءلة والتواصل :

– أن نفكر ، أن نتحدث ، أن نقول شيئا ما ، أن نكتب... يعني أن نطرح سؤالا . وليس التواصل إلا شكلا من هذه الأشكال ، يتحقق عن طريق اللغة وبواسطتها ، لكنه يفترض الغير ويفترض اختلافا إشكاليا معه ، إن التواصل هو الغير الحيوي والمنساب في الفكر والمندمج فيه إلى درجة أن الغير يتشكل داخل الذهن ولا يفارقه[4] .

على أن العمليات التواصلية التي تتم بين الناس ، هي طريقة لا تهدف إلى إيصال شيء ما ، أو تبليغ فكرة ، أو تعبير عن رأي أو موقف ، بقدر ما هي طريقة لتغيير الإختلاف الإشكالي الذي تختزنه الأقوال التواصلية ، وطريقة لتقريب المسافات بين الآراء والمواقف ، أو قل إنها طريقة للإجابة عن أسئلة منتظرة باعتبارها انتظارات يطمح إليها الآخر ، وطريقة لطرح أسئلة تقتضيها الظروف والمقامات التواصلية ، في نفس الوقت ، خصوصا إذا كان الجواب والسؤال مطلوبين داخل السياق ، فحين يلتقي شخص بشخص آخر بالصدفة لا يقول له مباشرة : هل أكلت ؟ مثلا ، ولكن حين يقول له : هل حضرت؟ فهو يجيب

---

4 - Ibid P : 74

قائمة ، لأن المتكلم يقبل كإجابة على تساؤله ما لم يقدمه له المجيب أو ما يقدمه هو من إجابات من خلال تساؤله ، أو ما يفترضه من إجابات من خلال ذاته داخل السياقات التي تؤطر عمليه الحوار . مثل التساؤلات الكبرى التي لا يمكن الإجابة عنها من خلال الحوار ، وتظل معلقة مثل :

«سياسة» هاته ؟ «أو معارضة هذه»

إن التواصل في نظرية المساءلة هي المعرفة الشاملة بالسياقات بما تعنيه من معرفة موسوعية ومن معرفة الآخر ومن معرفة الذات ، ... معرفة تجسد الإختلافات الإشكالية عن طريق الأقوال ، بين المتخاطبين ، لأنه إذا كانت هناك معادلة تطابقية أو تماثلية بين الناس ، فإن التواصل لن يكون له معنى ، ولأن الناس محتاجون دائما لاعتقادات وافتراضات تميز اختلافاتهم أكثر من حقائق معرفية جافة وجاهزة ، تطفئ جذوتهم نحو المساهمة في حل إشكالات المعرفة الإنسانية ، إن التواصل في الأخير هو الإمكانات القولية المختلفة التي تسمح للمتخاطبين أن يستنتجوا ويستدلوا ويحاجوا أو يقنعوا ، إنه الوسيلة التي تكشف عن مكمن السؤال في ما يقال دون أن يقال مباشرة [14] .

3- الحجاج ونظرية المساءلة .

3-1- البلاغة والحجاج : من خلال نظرية المساءلة قام مايير بتقديم مجموعة من الأسس النظرية ذات البعد الفلسفي التي تندرج في الاسهامات التنظيرية المعاصرة لأبعاد اللغة ووظائف الكلام ، وهي «جهود تنظيرية في مجال البلاغة ، تبقى متينة الاتصال بنظرية المعنى المرتبطة بالسؤال أشد الارتباط ، وبالسؤال المنفتح على الأجوبة المتعددة التي تتظافر المقاصد التداولية (ظروف إنجاز الخطاب) والتأويلية (علاقة السؤال بالجواب) والبلاغية الحجاجية أساسا في تحقيقه » [15] .

وهكذا يتبين أن المجال المفضل للحجاج هو البلاغة ، التي يحددها مايير تحديدا وظيفيا أساسيا ، باعتبارها «مفاوضة المسافة القائمة بين الأشخاص حول

14- Questions de rhétorique P : 81

15- أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية ص 401

وما ليس جوابا ، وهي معالجة تخالف ما ذهب إليه كل من أو ستين وسورل وكراس وغيرهم[7] .

1-2- أفعال الكلام :المساءلة وفعل الانعكاس :

إن الأقوال التي تأتي في صيغة الأمر أو النهي تخلق دائما إشكالا تواصليا بين المتكلم والسامع ، ويتمثل هذا الاشكال في الانعكاسية التي تحدثها هذه الأقوال بالنسبة للمستمع ، والقول الانعكاسي هو نتيجة لجواب يفترض رد فعل أو انفعال ، وليس وسيلة مباشرة للطلب أو السؤال ، ومن هنا ينبغي التمييز بين نوعين من الإجابات :

أ -الجواب الصريح الذي يكون مقيدا بسؤال محدد .

ب-الإجابة الإشكالية التي تترجم ما هو تساؤلي .

إن أفعال الكلام التي قام كل من أو ستين وسورل بتحليلها ليست في الأخير سوى إجابات إشكالية مرتبطة بانعكاسية الأقوال التواصلية بين المتكلم والمستمع ، وتدرس فقط من هذا الجانب الإنعكاسي وتحدد انطلاقا من القدرة الاستيعابية التي يتمثلها المستمع من خلال جواب محدد أو إجابة إشكالية[8] . وقد اعتبر «ماير» أفعال اللغة وجوها من الأجوبة تشبه إلى حد ما حججا وأدلة تخفي المعنى الحقيقي للقول[9] فالقول : أطلب منك إغلاق النافذة أو - اغلق النافذة .

هو وجه لإجابة ينتظرها المتكلم قصد تحقيق رغبته [هي أن يرى النافذة مغلقة] عن طريق قول غير دقيق ، أي قول من الدرجة الثانية :

- أرغب ، أو أود ، أن أرى النافذة مغلقة .

إلا أن هذه العملية التي تنقل القول من الضمني إلى الحرفي (أي من الأمر إلى الخبر) تتحقق في مستوى ثان ، وتنتهي في العمق التساؤلي للقول ، لتجعل من المعنى الضمني داخل الخطاب وعن طريقه ، معنى لا يقال مباشرة ، أي بصيغة غير مباشرة : فلإشكالية في الإجابة . « أن نتساءل حول المعنى ،

7- Ibid P : 79

8- Ibid P : 79

9- Ibid P : 80

يعني أن نستخرجه من سؤال ثان ، يختلف عن المعني الذي يظهره المتكلم في قوله الأول « [10] .

2-2 - السياق والمساءلة :

إن السياق القولي عند «مايير» يختلف عن مفهوم السياق العام أو السياق الخاص الذي يكون فقط عنصرا ضمن العناصر التواصلية كما هو الشأن لدى أصحاب النظريات التداولية الأولى فالسياق بالنسبة لمايير يتداخل مع القول بشكل متفاعل . إذ لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر ، فالقول يترجم الإختلاف الإشكالي الذي يرتبط بالسياق ، والسياق يعكس مضمون وشكل القول ، كما في المثال التالي :

-ما أجمل الجو !

* فإذا كان السياق يفتقر إلى المعلومات الضرورية ، فالقول سيكون واضحا ، أي تعبير عن التعجب ، لذلك فإن السياق هنا يفترض إغناء القول بما يلائم المستمع كي يتحقق معنى القول .

* أما إذا كان السياق غنيا بالمعلومات فإن القول سيستقبل درجات من الاختيار للوصول الى المعنى ، ويفسح المجال لطرح ومعالجة الاختلافات الإشكالية القائمة بين التساؤلات والاجابات المفترضة داخل السياق [11] .

2-3 - الأبعاد الحوارية في التواصل اللساني

للغة التواصلية عدة أبعاد : حجاجية وجدلية ودلالية وتأويلية وحوارية . وكل بعد منها يفترض الآخر ، إذ لا يمكن أن نفهم دون أن نبين الدلالة ، ولا يمكن أن نبين الدلالة دون أن نجادل وهكذا دواليك .

أما البعد الحواري في التواصل فيقتضي الآخر بالضرورة ، إذ لا يمكن أن نبلغ (أو نقنع) شيئا ما دون وجود الآخر ، ولا يكون هذا الآخر فقط مستقبلا أو سامعا محايدا بل يكون فاعلا أي سائلا ومجيبا في الآن نفسه ، فالقول

---

10 - Ibid P : 80

11 - Ibid P : 81

الإشكالي المقدم من طرف المتكلم (بشكل من الأشكال) ، هو موجه نحو مستمع هو نفسه يحمل تساؤلات في ذهنه ، وحين يستقبل القول تتفاعل تساؤلاته مع تساؤلات وإجابات المتكلم [12] ، وخلال هذه العملية التفاعلية تتحدد الإختلافات الإشكالية للأقوال باعتبارها افتراضات متبادلة داخل الحوار ، مما يسمح بتحديد مجموعة من الأبعاد الحوارية التي تميز بين حوار وآخر وهي :

2-3-1- الحوار الواضح : يكون فيه القول واضحا أي : سؤال وجواب ، دون أن يتفرع عن هذا السؤال وعن جوابه أقوال أخرى فالجواب يعالج السؤال وينتهي القول ، والحوار هنا لا يرقى إلى مستوى الإختلافات الإشكالية ، ويكون ذا أبعاد حوارية ضعيفة ، لا تفتح هامشا للافتراض والتأويل ، ويمثل الحوار هنا كل الأقوال الواضحة التي لا تثير تساؤلات في الغالب .

2-3-2- الحوار الإشكالي : يكون فيه القول افتراضيا منذ البداية ، وتستدعي فيه الأسئلة أجوبة متنوعة يكون فيها للمستمع والمتكلم هامشا من الحرية والإختيار والمعالجة ، عن طريق الإفتراض ، والتساؤل الإشكالي في هذا الحوار ، قد لا يكون موجها للمجيب الحقيقي (الداخل مع السائل في الحوار) بل قد يكون المجيب هو نفسه السائل أو الآخر المفترض داخل السياق العام للحوار ، والإجابة الإشكالية قد تتجه نحو سائل آخر مفترض ، أو تعبر عن تساؤلات أخرى دون ان تعالج التساؤل الأول ، وهنا تكمن حقيقة الحوار ويتجلى أساس الحوار الناجح الذي يقبل كل التأويلات الممكنة ويتمثل في الخطابات الاجتماعية والسياسية ...

2-3-4- الحوار الصامت : يتم في الحالات التي يطرح فيها سؤال إشكالي من طرف المتكلم في اتجاه مستمع موجود أو مستمع مفترض ، أي «نحو آخر غير محدد لأنه ضمنيا يمثل كل واحد فينا »[13] ويكون الاتفاق او الاختلاف في هذا الحوار بالصمت ، وتظل بالرغم من ذلك العملية التساؤلية

12 - في هدا السياق يورد الجاحظ ما يقارب هذه الفكرة ، يقول : المفهم لك و المتفهم عنك شريكان في الفعل «البيان و التبيين » 1/11

13 - Questions de rhétorique P : 84

قائمة ، لأن المتكلم يقبل كإجابة على تساؤله ما لم يقدمه له المجيب أو ما يقدمه هو من إجابات من خلال تساؤله ، أو ما يفترضه من إجابات من خلال ذاته داخل السياقات التي تؤطر عمليه الحوار . مثل التساؤلات الكبرى التي لا يمكن الإجابة عنها من خلال الحوار ، وتظل معلقة مثل :

«سياسة» هاته ؟ «أو معارضة هذه»

إن التواصل في نظرية المساءلة هي المعرفة الشاملة بالسياقات بما تعنيه من معرفة موسوعية ومن معرفة الآخر ومن معرفة الذات ، ... معرفة تجسد الإختلافات الإشكالية عن طريق الأقوال ، بين المتخاطبين ، لأنه إذا كانت هناك معادلة تطابقية أو تماثلية بين الناس ، فإن التواصل لن يكون له معنى ، ولأن الناس محتاجون دائما لاعتقادات وافتراضات تميز اختلافاتهم أكثر من حقائق معرفية جافة وجاهزة ، تطفئ جذوتهم نحو المساهمة في حل إشكالات المعرفة الإنسانية ، إن التواصل في الأخير هو الإمكانات القولية المختلفة التي تسمح للمتخاطبين أن يستنتجوا ويستدلوا ويحاجوا أو يقنعوا ، إنه الوسيلة التي تكشف عن مكمن السؤال في ما يقال دون أن يقال مباشرة [14] .

3- الحجاج ونظرية المساءلة .

3-1- البلاغة والحجاج : من خلال نظرية المساءلة قام «مايير» بتقديم مجموعة من الأسس النظرية ذات البعد الفلسفي التي تندرج في الاسهامات التنظيرية المعاصرة لأبعاد اللغة ووظائف الكلام ، وهي «جهود تنظيرية في مجال البلاغة ، تبقى متينة الاتصال بنظرية المعنى المرتبطة بالسؤال أشد الارتباط ، وبالسؤال المنفتح على الأجوبة المتعددة التي تتظافر المقاصد التداولية (ظروف إنجاز الخطاب) والتأويلية (علاقة السؤال بالجواب) والبلاغية الحجاجية أساسا في تحقيقه» [15] .

وهكذا يتبين أن المجال المفضل للحجاج هو البلاغة ، التي يحددها مايير تحديدا وظيفيا أساساً ، باعتبارها «مفاوضة المسافة القائمة بين الأشخاص حول

14- Questions de rhétorique P : 81

15- أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية ص 401

مسألة أو مشكل»[16] ، تلعب فيه المساءلة المتصلة ببنية الأقوال البلاغية دورا تحليليا داخل الحجاج ، حيث تبرز أهدافه وغاياته الإقناعية . وهذا التصور الجديد للبلاغة ، المرتبط بنظرية المساءلة يجد له موقعا مهما في التراث البلاغي العربي ، خصوصا عند ابن المقفع حين يقول «البلاغة اسم جامع لمعاني تجري في وجوه كثيرة ، فمنها ما يكون في السكوت ومنها ما يكون في الاستماع ، ومنها ما يكون في الإشارة ، ومنها ما يكون في الاحتجاج ، فإذا أعطيت لكل مقام حقه ، وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام ، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام ، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحسد والعدو ...» [17] .

إن الأهمية الأولى لهذا التعريف للبلاغة تكمن في كونه يجعل منها أداة للتعبير عن رفض الواقع[18] ، كما نجد ذلك عند مايير في تعريفه للبلاغة أو المجاز فهو عنده «يخلق المعنى ويصدم كل من لا يشاطر المتكلم وجهة نظره ، وهو إلى ذلك طريق للتعبير عن الأهواء والإنفعالات والمشاعر التي هي صور من الإنسان مثلما يكون المجاز صورة من الأسلوب» [19] .

أما الأهمية الثانية فتكمن في ربط الحجاج بالبلاغة ربطا تساؤليا ، وذلك على مستوى النطق «حين يقترن الإحتجاج بسياق الجواب والإبتداء» [20] . وهو نفس المنطلق الذي اتخذه «ما يير» لتحقيق عملية الحجاج ، فهو «يبدأ في الوقت الذي نعطي فيه الحق لأنفسنا في القول والفعل» [21] .

إن الوصل بين البلاغة والحجاج عند ابن المقفع يقع في الوظيفة التي تؤديها الأقوال المتميزة بالتوتر والإستدلال بحيث تؤدي إلى الالتفات إلى مايقوله المتكلم وتنفذ إلى اعتقاده «بما يحب من سياسة ذلك المقام «باعتقاد الآخر ، وهي وظيفة يراها «مايير» ضرورية في القول لأنها تؤدي إلى نتيجة أو موقف يحمل الغير على الإقرار به اتجاه مشكل مطروح في سياق يوفر

---

16 - Questions de rhétorique P : 28

17- المجاز والتمثيل ص 11مجلة «ألف»

18 - نفسه 11

19 - أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية ص 394

20 - المجاز و التمثيل 12

21 - Questions de rhétorique P : 92

للمتخاطبين مواد اخبارية ضرورية للقيام بعملية الاستنتاج المتصلة بالتساؤل والاجابة [22] .

3-2 - الحجاج والمفاوضة حول المسافة :

إن أساس القول الحجاجي الهادف إلى اتخاذ موقف أو تبني اعتقاد أو طرح إشكالات وقضايا جديدة للنقاش ، هو عملية المفاوضة (أو التفاوض) التي تدور بين المتخاطبين حول المسافة ، وهي الطريقة التي يتعامل بها الناس فيما بينهم إزاء المسائل التي تشغل تفكيرهم ، وما ينتج عن ذلك من اختلاف أو اتفاق أو رغبة في التقارب أو التنافر أو الحياد ، وهي مواقف تندرج في صلب الحجاج وتفترض استعمال أساليب وآليات حجاجية متعددة لتقريب المسافة .

3-2-1 - المسافة الحجاجية :

تتمظهر المسافة الحجاجية في كل العلاقات التي تجمع بين البشر والتي اختزلها مايير في لعبة الهوية والاختلاف «في كل علاقة بشرية يمكن أن نلاحظ رهان الهوية والاختلاف[23] فالهوية هي تقريب للعواطف والأحاسيس المشتركة بين الناس أي تقريب للمسافة التي تفصل بينهم ، أما الاختلاف فيمثل كل أشكال التعارض والتباين بين الناس ، ويتجسد في السلطة والإقصاء ... الذي يمارسه فعل الاختلاف . أي توسيع المسافة .

لكن الإشكال الأساسي في لعبة الهوية والاختلاف ، يرجع إلى اختلاف الناس حول نفس الهوية الجماعية التي يتقاسمونها ، وهكذا تغدو الهوية اختلافا والاختلاف هوية ، في لعبة الاقتراب والابتعاد الممكنة ، لعبة الاتفاق والإقصاء ، ومن هنا يكون سعي الحجاج في آخر المطاف إلى خلق هوية جديدة أي إلى تحقيق الإقتناع [24] ، والإقتناع هو انتصار يمر عبره المتكلم والمستمع من الاختلاف إلى الإختلاف المؤكد [24] ، ويجعل اللعبة المتسقة للهوية والإختلاف مهمة مستحيلة رمزيا .

---

22 - أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية ص 394

23- Questions de rhétorique P : 125

24 - Ibid P : 126

3-2-2 - الحجاج والمسافة :

لما كان كل واحد من الناس يختلف طبيعيا عن الآخر في أمور لا حصر لها ، فإن التفاوض حول الهوية والاختلاف أي الحجاج حول المسافة ، يعبر عن المجال الممكن أو المحتمل لحل ومعالجة تحديات الواقع ، حيث يكمن الإقناع أو الاستمالة في خلق متخيل يخترق المتخاطبين ويجعلهم يحسون برغبة مستعارة تتحول إلى هوية جديدة .

إن الإشكال الحقيقي في الحجاج حول المسافة يكمن في تأكيد الهوية أو العثور عليها ، لذلك يقدم كل من المتكلم والمخاطب في أقوالهم إمكانات الرفض أو درجات القبول وهما عنصران يسمحان للمتخاطبين بالتملص من الإختلاف المعطى والانطلاق بحرية نحو البحث عن الاختلاف الجديد المفترض وتأكيد الهوية المفترضة الجديدة .

3-3 - العلاقات الحجاجية :

تقوم العلاقات الحجاجية وتتأسس على ثلاثة عناصر أساسية هي الإيتوس (الصفات المتعلقة بالمتكلم) والباتوس (التأثير في الآخر) واللوغوس (الخطاب أو اللغة أو العمليات الاستدلالية العقلانية داخل الخطاب) وهي عناصر لا تخرج عن الطرح الذي قدمه برلمان انطلاقا من التصور الأرسطي[25] ، لكن (مايير) يقدم تصورا وظيفيا لهذه العناصر يختز لها في عنصرين أساسين هما : عنصر الايتوس (الأخلاق أو الصفات المرتبطة بالمتكلم والمخاطب) . وعنصر العلاقة الثنائية التي تجمع بين المتكلم والمستمع والتي يحددها اللوغوس[26] في (الخطاب / الشكل) إذ يعتبر هذا التصور الجديد في الوظيفة الحجاجية ، تجاوزا للفهم التقليدي (أرسطو وبرلمان) الذي ينحصر في الوظيفة التي تدور حول الاستمالة والإقناع ، تصور يرتكز على العلاقة الثنائية (بين المتكلم والمستمع) باعتبارها مكونا أساسيا في العملية الحجاجية ، يهدف إلى تهييء الفضاء الأصح لإثارة السؤال ، وإذكاء المساءلة القائمة باستمرار على الحجاج ، باعتباره مفاوضة لتقريب المسافة ، وتكثيفها حسب مقاصد المقام أو السياق .

---

25 - أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية ص 398

26 - Questions de rhétorique P : 23

3-3-1 - العلاقة الثنائية في الحجاج :

تتحدد العلاقة الحجاجية بين المتكلم والمستمع حول طرح أو فكرة أو انتظار ، انطلاقا من اعتبار الاختلاف القائم أصلا بينهما أو المفترض ، عن طريق طرح السؤال بخصوص القضايا المعروضة للنقاش والتي تهم الناس ، فالقضايا التي تحكمها معرفة مسبقة أو مفترضة ، هي التي تحدد المسارات المختلفة للعلاقات الحجاجية بين المتكلم والمستمع انطلاقا من المرجعيات التي يعتمدها كل واحد منهما . ولا يكون الإتفاق والإختلاف إلا في درجات متفاوتة من القوة والضعف ، وتكون إما :

* لتقريب الإختلاف إذا كان المخاطب يميل إلى الإقرار بجواب المتكلم .
* لتضخيم الإختلاف إذا كان المخاطب لا يشاطر المتكلم إقراره بجوابه .

كما تتحدد العلاقة الحجاجية بمعرفة الطرفين لبعضهما ومعرفتهما بظروف المقام وإحاطتهما بالموضوع ، عن طريق المعارف الموسوعية والمرجعيات المشتركة أو المختلفة وإلا سيتحول النقاش إلى أشكال أخرى من الحجاج مثل المغالطة والتجهيل والتضليل والتمويه ، وهذه المعرفة تعود عموما إلى ما يتصوره ويدركه الناس من علاقات اختلاف أو اتفاق تربطهم فيما بينهم أو تربطهم بالعالم الخارجي المحيط بهم ، بما يعنيه ذلك من إكراهات وانتظارات ومشاكل و... ليأتي اللوغوس (القول) في الأخير لتحقيق هذه العلاقات القائمة بين أشياء العالم وانتظاراته وإكراهاته .

3-3-2 - البعد الحجاجي للغة :

يعرف مايير اللوغوس (أي القول الحجاجي) بأنه كلام العقل الذي يدرك نفسه في كل أبعاده ، دون أن يحده اتجاه مخصوص ، «إن اللغة هي العقل المتكلم» [27] . وإذا كان الحجاج معقود بركنيه الأساسين ، ركن العلاقة الثنائية وركن اللغة ، القائم على العلاقة الخطابية فإن الحجاج ليس إلا استغلال ما في الكلام من قوة وثراء [27] . استغلال المصادر المرتبطة باللغة التي تراهن على الأسئلة والأجوبة لتشكيل القول . فيكون معنى الحجاج هو إثارة سؤال بواسطة سؤال آخر يسمح بمعالجة أو تداول إشكال يكون موضوعا للنقاش

27- Ibid p : 142

ويؤدي إلى نتائج معينة ، ويهدف إلى تحقيق مكاسب غير مضمونة ، لذلك كان اللجوء إلى ما تتيحه اللغة وخاصة المجاز من ضمانات ، هي حجاجية بدون شك .

3-3-3 - الواضح والضمني أو الحرفي والخفي في اللغة الحجاجية :

تعبر لغة التخاطب داخل القول الحجاجي عن أسئلة خفية ، وتطرح قضايا مشتركة بين الناس فالقول الذي لا يثير أسئلة [أي القول الذي لا يتجاوز ظاهر لفظه] ، لا يقيم علاقة حجاجية بين المتخاطبين ، سواء كان المعنى الذي يحمله خفيا أو حرفيا ، لذلك فالواضح والضمني في الحجاج مرتبطان بما يتيحانه من إمكانات تساؤلية لإبراز الاختلاف الإشكالي ، فالقول أو اللغة واستعمالاتها هي مصدر الإختلاف حول مضمون القضايا التي يتجادل الناس حولها لتأكيدها أو رفضها أو التشكيك فيها ... ولأن اللغة تسعى إلى تكثيف القول بما تنتجه من آليات وأدوات تجعل من الواضح والخفي أسئلة مختلفة ومتنوعة فالقول التالي يبين دور هذه الآليات التكثيفية :

- «كل شيء قابل للتغيير لكن الوقت لم يحن بعد» .

فالجواب الأول «كل شيء قابل للتغيير» ، يسير في اتجاه القبول والاتفاق ، بينما الجواب الثاني «لكن الوقت لم يحن بعد «يسير في اتجاه الرفض والاختلاف ، إن القول هنا عن طريق توظيف « لكن « هو عبارة عن سؤال خفي يحول المعنى الواضح والمعنى الخفي إلى سؤال إشكالي ، ويجعل المخاطب يقوم بتقدير الجواب الحقيقي أو المفترض في القول وهو على نقيض ما يطرحه المتكلم ، إن استعمال الأداة «لكن» يدل على الشك أي أن تحقيق التغيير ليس إلا احتمالا دون أن يكون حقيقة ، والجواب هو دليل ممكن ومحتمل لمعالجة قضية التغيير ، عن طريق إثارة أسئلة أخرى وإجابات أخرى .

3-4 - الحجاج والمجاز :

بعيدا عن سلطة الضرورة الملزمة وبعيدا عن المنطق الرياضي الصارم ، وبعيدا عن الفهم التقليدي للحجاج ، يولي (مايير) أهمية قصوى للبلاغة

وصورها المجازية في عمليات التخاطب ، ذلك لأن المجالات الإنسانية المختلفة والمتعددة تكثر فيها الآراء والأطروحات وتنمو فيها الاختلافات فتكون الفضاء المناسب لتقارع الحجج والأدلة ، حيث تعمل على تأسيس فعل الحجاج وإغنائه ، فيصبح الحجاج ما تتيحه البلاغة من صور مجازية [28] صور قادحة للخيال ومعبرة عن الأهواء الإنسانية ، وأداة سانحة للتفكير والتأمل وفرصة لخلق الملاءمة بين ما يقوله وما يتحاور حوله الناس وما ينتظرونه ، ولهذه الأسباب يعمد الإنسان إلى استخدام عبارات غير معتادة للتعبير عن الطريقة التي تدفعه إلى تصور الأشياء وتمثلها وإقناع الآخرين بها ، عبارات تهدف إلى إبراز حضور الفكرة أو تأكيدها أو تلطيفها أو إلغائها... كل ذلك يبرز ، أن ما يفهمه الإنسان أو يؤمن به أو يعتقده ، مقيد بأشكال متعددة من السلط ، المادية والمعنوية والقولية والمجازية .

وهكذا يبلور (مايير) نظريته المجازية في الحجاج انطلاقا من مجموعة من المفاهيم المتعارضة ، هي عبارة عن ثنائيات متقابلة ، يتشكل بها القول الحجاجي ، ويحقق بها وظيفته وغاياته ، وخصوصيته ، منها : الحقيقة والمجاز ، الافتراض واليقين ، الاستعمال والابتكار ، الاقناع والتمويه ، السلطة المجازية والسلطة المادية ...

3-4-1 - المجاز والحقيقة أو الافتراض واليقين : *

إذا كانت الحقيقة هي التعددية الفكرية المتغيرة ، وهي السؤال المطروح باستمرار ، فإن المجاز ، باعتباره تمظهرا من تمظهرات العقل الكلامي ، -من منظور تساؤلي- ، [وليس انفلاتا عن المعيار القضوي الذي يجعل القول خارج العقلانية ، من منظور تقليدي] [29] ، يحين ويشيد هذه الحقيقة المتغيرة ، فعن طريق تعدد المعنى المجازي وتعارض الحجاج يكون القول وحده ملائما للعقل من أجل فتح المجال للتعارض والاختلاف ، وتجسيد الالتباس ، أو طرح إشكال

28 - Ibid P : 143

* الحقيقة هنا تعني الحقيقة المشيدة المرتبطة بالمجال الثقافي و الاجتماعي .

29 - Ibid P : 24

أو سؤال إن «المجاز هو معركة الوجود الاجتماعي على أرض البلاغة» (كما يقول نصر أبو زيد) . أما الحقيقة فتؤدي إلى اليقين واليقين يؤول في النهاية إلى الدغمائية والوثوقية واليقينية التي تترجم تعصبا وربما عنفا [30] ، و أما المجاز فيؤدي إلى الإفتراض ، والافتراض يؤول إلى الجدل والنقاش ، وإلى التعارض الخصب الذي يترجمه الحجاج .

3-4-2 - الاستعمال والابتكار :

إن الاستعمال العادي للغة - الذي يكرر كل ما هو معطى وموجود مسبقا - ، يحول القول إلى نفق مسدود ، لكن الابتكار أو الخلق هو الذي يفتح الأفق أمام الاختلاف والتجديد ، لذلك حين يتحول الحجاج إلى تكرار مبتذل للأدلة والحجج والمفاهيم والآليات فإنه يصبح نزوعا استبداديا يقتل طبيعة الإنسان الخلاقة ويتعامى عن إيقاعات الزمن وآليات التطور[31] ، فحين تصبح مثلا الحرية أو الديمقراطية ، حقيقة قبلية أو جوهرا ثابتا و تصبح منشودة في كل خطاب حجاجي ، قصد تمرير موقف أو تأكيد أطروحة ، فإنها تغدو وسيلة للنزوع إلى التملك والسيطرة والتمركز ، إن الخطاب - نتيجة للوهم بامتلاك الحقيقة والسيطرة على الزمن - يسقط في خطر التصلب- ، في حين أن الابتكار(أو الخلق) وحده يعزز قيام بدائل أخرى إضافية للحيلولة دون الوقوع في خطر الحقيقة المطلقة ، التي ليست مركب الحجاج .

3-4-3 - الإقناع والتمويه :

قد لا يخرج دور الحجاج في الأخير عن الإقناع أو التمويه ، إنه طريقة تقود الإنسان إلى تحقيق رغباته المختلفة ، انتصارا لفكره أو تعزيزا لمذهبه أو تأكيدا لأطروحته أو إبرازا لقدراته ومهاراته العقلية واللغوية ، إنه ممارسة تخفي وراءها الذات مجموعة من الميولات والاقتضاءات والافتراضات ، حتى وإن حققت وظيفتها الإقناعية أو التمويهية ، لذلك يظل الحجاج مرهونا بطبيعة المصالح المشتركة بين الناس ، وبانتظاراتهم واشتغالاتهم وما به تتحقق هذه المطالب .

30 - الماهية والعلاقة نحو منطق تحويلي ص 22

31 - نفسه ص 55

خلاصات واستنتاجات

ستظل كل محاولة للبحث في موضوع من مواضيع العلوم الإنسانية معرضة للنقد والتقويم لأن الإدعاء بأن الفكر الإنساني مغلق أو مطلق لا يحالفه الصواب ، ما لم يخدم مصلحة التطور والتغيير الذي تشهده حقول المعرفة الإنسانية ، الأمر الذي يتطلب منا : تقديم أهم الخلاصات لتي وقفت عليها هذه الدراسة في مختلف فصولها وعناوينها بغية فتح حوار علمي حولها ووضعها أمام المهتمين والباحثين لإغنائها ، أو تجديد البحث حولها ، وعرض أهم الاستنتاجات التي نراها ضرورية لفتح مجال التأمل والتفكير في طرق ومناهج ووسائل البحث الأكاديمي والجامعي بجامعاتنا ، وذلك في أفق ربطها بمحيطها الخارجي حتى تساهم في تطوير مؤسساتنا الإنتاجية (اجتماعية وديمقراطية وسياسية) لمواجهة التحديات الداخلية والخارجية .

خلاصات :

لقد انطلقنا منذ البداية من فرضية مفادها أن علوم التواصل والحجاج لا تصدر إلا عن فكر مركب ، و هي فرضية تطلبت منا على المستوى النظري والإجرائي إعمال منهج متعدد يناسب غنى علوم التواصل والحجاج ، في طبيعة مواضيعها ، وآليات تشكلها وتقاطعاتها المتحققة والممكنة مع مختلف العلوم الانسانية ، وارتباطها الوثيق بواقعنا الإنساني المعيش من افتراضات وتوقعات وانتظارات ، وقد مكنتنا معالجة هذه الإشكالات من استخلاص مجموعة من الخلاصات يمكن إجمالها في القضايا التالية :

أولا : قضايا الفكر المركب وآليات المنهج المتعدد :

من منطلق أن الفكر الإنساني (في التواصل والحجاج) نسيج مركب من مكونات غير متجانسة ومرتبطة بطريقة غير منفصلة ، ومن منطلق أن

الواقع مركب وملتبس باستمرار ، ومن منطلق أن الكائن يخترقه الاختلاف والتعارض ... من خلال كل ذلك يظل الإنسان في بحث مستمر عن منافذ ومخارج لهذه القضايا ، سواء ارتبطت بالبحث العلمي أو التفكير المنتظم أو ارتبطت بالبحث في الحياة العامة للناس (اجتماعية ، سياسية ، ثقافية ، حياة يومية...) من أجل تجاوز إكراهات الفكر والواقع معا من خلال حوار متفاعل وهادئ و مستمر ، يضمن للإنسان حقه في الوجود والاختلاف .

لقد كانت محاولتنا تتجه نحو استثمار النظرية التداولية المعرفية ، التي لا تقر بمنهج صارم ومحدد بل تشتغل وفق منهج متعدد ، حيث فسحت لنا المجال أمام الانفتاح على مختلف مناهج العلوم الإنسانية الملائمة ، من بحث عن آليات تشكل الخطاب التواصلي عامة والخطاب الحجاجي خاصة ، إلى آليات تأويله ، وقد تبين لنا بأن الآليات التي تتحكم في إنتاج الخطاب وتشكله هي نفسها الآليات التي تعمل وتساعد على فهمه وتأويله ، من منطلق أن الذهن البشري (معرفي ، تأويلي ، تركيبي ، أنظمة وقوالب) هو الآلة المحركة والأساسية في الانتاج والتأويل ، أما الاختلافات فهي تظهر فقط في المستويين التحليلي والإجرائي بين المنتج والمؤول . وهذه المقاربات التي قمنا بها لتحديد برنامج اشتغال هذه الآليات ووظائفها واستعمالاتها الممكنة (لغة وتفكيرا ومعرفة) كانت تسعى إلى تنمية النزعة الإبستمولوجية لدى الإنسان ، بحيث ندرك كيف تعمل آليات التفكير ، وذلك لمعرفة أنواع وأنماط وأساليب التفكير المختلفة ، وتحصيل القدرة على التعامل مع العوالم الرمزية بجانب العوالم المحسوسة دون أن نفقد الصلة التي تربط بينهما .

وعلى الرغم من أن توظيفنا للمنهج المتعدد كان يتوخى إدراك الأشياء في شموليتها و تفاعلها لفهم مقتضيات الخطاب في كليته (إنتاجا وتأويلا) ، فإن ذلك كان محطة أولي في الدراسة [لأن المنهج كما يقول «كادمير» لا يظهرنا على حقيقة جديدة وإنما يوضح الحقيقة المقررة] ، تلتها محطة أخرى كانت أعقد وأعمق ، هي البحث في علاقة الإنسان بالخطاب ، ولقد اتضح لنا بأن الخطاب ينطلق من الإنسان ليعود إلى حياته الذهنية وينفذ إليه من خلال لحظتين متفاعلتين معا ، الأولى لحظة لغوية والثانية لحظة سيكولوجية بمعناها

الواسع الذي يشمل كل شيء ، لذلك اتجه بحثنا نحو السياق الانساني ، انطلاقا من دراسة التحول الذهني الغامض للخطاب ، فالحقائق والموضوعات في فضاء الخطاب ذات مضمون إنساني وليست مجرد أشياء ، والخطاب كما يقول «هايدجر» إظهار للوجود وإفصاح عنه .

ثانيا : أسئلة الافتراضات والمساءلة والانتظارات :

إن الإلتزام بما يلعبه المنهج في التحليل وما يقره الخطاب في ذاته ، لا يمنع من ممارسة وجودنا خارج هذه الأنظمة (بما فيها الحقائق المشكلة) وتأسيس أنظمة جديدة تخرجنا إلى مجال الافتراض والتساؤل ، وهو مجال يحدد غاية الإنسان في وجوده ، ويميز أو يوضح الفرق بين الحق والباطل وبين الصائب والخاطئ ، وهو مجال البحث أساسا في الهوية والاختلاف ، أن نتساءل يعني أن نفترض وجود الممكن والمحتمل ، يعني أن نطور معارفنا وعلومنا وتقنيات تواصلنا العلمية والإنسانية ، ومن هذا المنطلق فتحنا مجال الحجاج على المساءلة والافتراض ، وهي شكل من أشكال الإجابة على التوقعات والانتظارات الانسانية ، لأن الأفضل قد يعني اليوم مالا يعنيه بالأمس وغدا ، وذلك من أجل استثمار آليات ومناهج الفكر التساؤلي في البحث عن تطلعات الإنسان نحو المستقبل وإشباع رغبة الشك لديه ، الشك الهادف إلى البحث عن إجابات مطمئنة إن السؤال الصحيح يتضمن نصف الإجابة كما روي عن عمر بن الخطاب . فالتساؤل هو إجابة عن اللحظة بشكل مؤقت تطرح بدورها تساؤلا جديدا .

استنتاجات :

من خلال معانقتنا و تفاعلنا مع مختلف العلوم والمعارف ، ومن خلال الإشكالات التي وقفنا عليها وعالجناها في حدود ما سمحت به دراسة علوم التواصل والحجاج من موضوعات ومناهج ومفاهيم وآليات ، ارتأينا في الأخير تقديم بعض الاستنتاجات التي نعتبرها ضرورية في سبيل تقدم مسيرة البحث العلمي والأكاديمي :

القضية الأولى :

إذا اسلمنا بأن هناك علما حجاجيا باعتباره نظرية وممارسة لفن التفكير في الممكن ، فإننا نفترض أن هناك على الأقل آليات عامة وتقنيات خاصة ينبغي تشغيلها حتى لا يخرج أو ينزلق الخطاب (القول) إلى مجالات بعيدة عن الحجاج والتواصل الهادف ، لكن غايتنا في ذلك لم تكن تصبو فقط إلى تقديم إنتاج نظري محض ، بل كانت تستهدف قضيتين أساسيتين :

القضية الأولى : وضع أسس وقواعد عامة تساهم في تمكين المهتمين والباحثين في حقول المعارف الإجتماعية والثقافية والسياسية من الاطلاع على هذه الآليات أولا من أجل صقل قدرتهم على فن الاستدلال باعتباره تأملا وممارسة تتعلق بأنماط وصيغ الفكر الخطابي الإنساني ، وثانيا من أجل تنمية الفكر النقدي في مختلف مجالات البحث المعرفي .

القضية الثانية : فتح أفق الدرس البلاغي (الذي لازال يلقن بطرق تقليدية مرتبطا بالنحو والبلاغة الشعرية والتأريخ و الذي لازال يعرف الاجترار والتكرار) أمام مجالات أرحب وأوسع ترتبط بحقول المعرفة الإنتاجية ، (سياسية واجتماعية ، وأدبية ومؤسساسية) وبنظريات التواصل المعاصرة لأن البلاغة التي تتجسد في الثورة الاتصالية والمعلوماتية (بمفهومها الواسع) أصبحت قادرة لا فقط على التأثير وتحويل القول والصورة إلى فعل أو ممارسة وإنما أصبحت متحكمة في الأذواق وصانعة للثقافة ، ويمكن القول بأن العولمة اليوم ليست في أبعادها الإقتصادية والثقافية إلا وجها من الوجوه البارزة للبلاغة الحديثة التي تقوم بتمرير الأفكار والتصورات والأخيلة على حساب ما هو قائم في ذهن المتلقي ، وذلك بتحريك الإعجاب بما تعرضه من «امتيازات» أو بما تخلقه من صدمة أوإقتناع... وهي وإن كانت أشكالا من « المسخ «الثقافي فهي تبدو مقبولة لسبب بسيط هي أنها آتية من سلطة الخطاب والصورة وليست صادرة عن التسلط بالقوة .

وبهذا يمكن إعتبار البلاغة و الحجاج دعوة لممارسة نقد الفكر وتربية الفكر النقدي لأجيالنا بعد أن كان النقد مرتبطا أساسا بنقد الأدب ، لقد أصبح ضرورة ملحة في هذا العصر الذي يسير بسرعة فائقة يتداخل فيه الغث بالسمين و الحق

بالباطل ، إن التفكير في إشكالات التواصل هو التفكير في الحداثة والحداثة هي فن الاستدلال والاقناع ، تجنبا للوقوع في شرك الحيلة والتغليط . إنها دعوة إلى تدريس فن الاستدلال في مختلف قطاعات العلوم الإنسانية بجامعاتنا لكي تقوم الجامعة بمهمتها في التغيير الثقافي والسياسي والإجتماعي ، وتساهم في بلورة حياة مبنية ومؤسسة على المواجهة العقلانية والنقاش الجاد والهادف .

القضية الثانية :

إذا سلمنا بأن مصلحة ومستقبل الفكر تتجلى في فتح حوار عقلاني بين مختلف المؤسسات التعليمية والمجتمعية فإن ذلك سيؤثر لا محالة على سيرورة الحياة العامة للمجتمع في اتجاه مجتمع : (المؤسسات والمكونات والفعاليات ...) تسود فيه روح الإختلاف وتتأسس وتتبلور فيه مقولات التوافق والتراضي حول الممكن والمحتمل الذي يخدم المصالح العامة ، وتنمحي منه كل مظاهر الخلافات المشحونة بالتعصب والإقصاء والتهميش ، أو تلك المؤسسة على السفسطة والخداع والتمويه ، فالتوافق الذي ندعو إليه هو الذي يتأسس على صلابة الأسباب المعقولة التي تؤسس القيم ، والتي تؤدي بدورها إلى التوافق كما يقول «R BOUDON» ، قيم تبنى على حرية الاختيار وعلى ديمقراطية الرأي ، قيم لا تحتاج إلى تطبيق حرفي أو عن طريق السلطة والإكراه بل تحتاج بالدرجة الأولى إلى إعادة الإبتكار والتشكيل في مجال التجربة وعلى أرض الواقع ، مستندة إلى السلوك والممارسة الفعلية والإيجابية .

والله تعالى ولي التوفيق ومنه العون

ملحق 1

كلمة الوزير الأول أمام البرلمان [14يناير 2000]

بسم الله الرحمان الرحيم *وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه*

السيد الرئيس ،

السادة النواب المحترمين ،

حضرات السيدات والسادة ،

اسمحوا لي بادئ ذي بدء أن أعبر لكم عن مدى سعادتي بالتوجه إلى مجلسكم الموقر بعد مرور ما يربو عن السنة والنصف منذ أن نالت الحكومة التي أتشرف برئاستها ثقتكم وتصويتكم على برنامجها الذي تضمنه التصريح الحكومي ل 17 أبريل 1998 .

وأود قبل كل شيء ، أن نستحضر جميعا روح فقيدنا المغفور له جلالة الملك الحسن الثاني طيب الله روحه ، ونترحم على ذلك القائدالذي كان له الفضل في وضع بلادنا على نهج الإصلاحات السياسية والسوسيواقتصادية التي نضطلع بمسؤولية متابعة بلورتها على أرض الواقع في إطار ترسيخ دعائم التوافق الذي دشنه رحمه الله مع القوى الديمقراطية .

حضرات السيدات والسادة ،

ونحن على أعتاب قرن و ألفية جديدين ، وبعد أن فارقنا إلى عفو الله ذلكم الرجل العظيم ، تعيش بلادنا لحظة متميزة من تاريخها تتسم بحلول عهد ملكي جديد ، عهد جلالة الملك محمد السادس أيده الله ونصره ، عهد مر الانتقال إليه في إطار من الاستمرارية والاستقرار والطمأنينة والحماس والتفاؤل ، وهي

ميزات أبان عنها شعبنا الناضج وأثارت إعجابا تقاسمه الأصدقاء والخصوم ، واستقينا منه الفخر والاعتزاز ، واستمددنا منه في ذات الوقت ، مزيدا من العزم والإصرار على مواصلة رسالة التناوب التي تحملنا عبئها بكل شجاعة وتبصر .

ومما زكى سعادتي وفخري وشحد عزيمتي على المزيد من العطاء لصالح بلادي ومواطني في هذا الظرف الاستثنائي من تاريخ بلادنا ، أني حظيت بتجديد ثقة مولوية سامية أتت في خطاب تاريخي مجيد على لسان ملك شهم محبوب ، جلالة الملك محمد السادس نصره الله ، أكد خلاله على إرادته الحازمة وعزمه الصلب على تحقيق الإصلاحات التي لم يلبث أن فتح أوراشها الواحد تلو الآخر بدينامية المؤمن الطموح ، سواء فيما تعلق ببناء دولة الحق والقانون ، أو المفهوم الجديد للسلطة ، أو القضاء على البطالة ، أو إدماج المرأة ، أو إصلاح التعليم ، أو النهوض بالعالم القروي ، أو مكافحة الفقر والتهميش ، أو إصلاح الإدارة والعدل .

بفضل هذه المبادرة المولوية ، تتكرس الاختيارات التي حددتها الحكومة وتتعزز إرادتها في السير إلى الأمام . كما تستنير طريق التقدم والنمو والحداثة امام بلادنا .

ولقد تبلورت هذه الإرادة المولوية فيما يتعلق بقضيتنا الوطنية الأولى في القرارالحكيم لجلالة الملك بتفعيل دور المجلس الاستشاري الخاص بالشؤون الصحراوية وإعادة انتخاب أعضائه ليساهم بفعالية في التعبير عن رأي سكان الأقاليم الجنوبية في القضايا التي تهمهم في الميادين الاقتصادية والتنموية .

وقد سهرت الحكومة ، تنفيذا للتعليمات الملكية السامية وانسجاما مع روح التصريح الحكومي ، على اتخاذ التدابير اللازمة لمواصلة البرامج التنموية بالمنطقة .

وفي هذا الإطار ، أتاحت لي الزيارة التي قمت بها أواخر العام الماضي إلى تلك الأقاليم فرصة عقد لقاءات مع ممثلي مختلف الفعاليات بالمنطقة وإعطاء الانطلاقة لعدد من المشاريع الهامة ذات الطابع القتصادي والاجتماعي ، خاصة

إنجاز الشطر الاول من البرامج السكني العودة الذي يتضمن تشييد 10 آلاف سكن موزعة على مجموع الاقاليم الجنوبية ، وسيكون هذا الشطر المتكون من 3000 وحدة سكنية جاهزا في غضون شهر ماي المقبل . كما انني سأسعد في الأسابيع المقبلة بزيارة باقي الاقاليم الجنوبية لأطلع عن كثب على أحوال رعايا جلالة الملك والالتقاء بهم والتحاور معهم .

ولقد انكب على معالجة ملف البطالة بهذه المناطق ، خاصة في صفوف حاملي الشهادات . وسيتم قريبا الإعلان عن برامج للتشغيل بالإدارات العمومية والمؤسسات العمومية وشركة فوسبوكراع ، إضافة إلى الإمكانيات التي سيتيحها القطاع الخاص .

ولا يفوتني بهذه المناسبة أن أؤكد التزام المغرب بتنفيذ مضامين المسلسل الاممي وتمسكه بمواقفه الثابتة ورفضه التام لإقصاء أي مواطن من المنحدرين من الأقاليم الجنوبية أو حرمانه من ممارسة حقه المشروع في المشاركة في الاستفتاء التأكيدي لمغربية الصحراء . وإني لاعبر عن استنكار بلادنا للمماطلات والعراقيل والمناورات التي يحيكها خصوم وحدتنا الترابية لإفشال مخطط التسوية وتأخير رزمانة مراحله .

ومن هذا المنبر ، أجدد الدعوة إلى أبناء صحرائنا المغرر بهم للتحلي بالتعقل والحكمة وروح المواطنة والالتحاق بوطنهم لمشاركة إخوانهم في بناء صرح الديمقراطية ، باعتبارها الإطار الملائم الكفيل بضمان حرية التعبير المشروعة عن جميع التطلعات والطموحات تحت القيادة السامية لصاحب الجلالة الملك محمد السادس أيده الله .

السيد الرئيس ،

السادة النواب المحترمين ،

إذا استثنينا قضيتنا الوطنية الأولى التي تستقطب الإجماع الوطني ، فإني أعتقد أن أي تقييم لما قمنا به وما أنجزناه في الميادين الاخرى ، لا يجوز ، إذا ما أردناه متسما بسمات الموضوعية والوجاهة ، أن يصدر بالقياس مع الإنتظارات والطموحات مهما كانت مشروعيتها ، بل بالقياس مع الوضعية التي ورثناها

والظروف والاكراهات العسيرة التي تحملنا فيها المسؤولية والتي انتم مدركون مدى أبعاد التحديات التي تنطوي عليها والتي أصبحنا نكشف مدى جسامة بعض مظاهرها يوما بعد يوم .

أجل ، لقد تحملنا المسؤولية في ظرفية كان فيها نسيجنا الإقتصادي يعاني من اختلالات خطيرة ، ومقاولاتنا تعاني من صدمات مثبطة ، وماليتنا العمومية من عجز منهك ، وكاهل بلادنا من مديونية متفاقمة ، ووضعنا الاجتماعي من تدهور خطير ، ونظامنا التربوي والتعليمي من عجز صارخ عن مسايرة متطلبات التقدم التكنولوجي والتشغيل .

هذا وبالرغم مما كان قد تم تحقيقه في إطار استكمال مقومات الصرح السياسي ببلادنا ورغم التوسيع النسبي الذي كان قد عرفه فضاء الحريات وحقوق الإنسان ، فلقد كانت جراح الماضي لم تندمل بعد ، وأكتفي مما كان من مظاهر هذه الوضعية بالإشارة إلى مستوى الامتناع عن التصويت أثناء الاستشارات الانتخابية مما كان يعكس النفور العميق من الاهتمام بالشأن العام وعدم الثقة في العمل السياسي من لدن جماهير شعبنا ومن أوساط الشباب على الخصوص .

تلكم بإيجاز كبير ، حضرات السيدات والسادة ، سمات الوضع الذي ورثناه والذي كاد أن يزج ببلادنا في الطريق المسدود الذي قال في شانه صاحب الجلالة المغفور له الملك الحسن الثاني طيب الله ثراه في إحدى خطبه المشهودة بان المغرب تتهدده ما يشبه السكتة القلبية ، وكان ذلك مما دعا إلى التوافق الذي حصل بين العرش والقوى الديمقراطية حول ضرورة إحداث انتفاضة وطنية تلتئم فيها الإرادة الملكية وعزيمة القوى الديمقراطية ومساندة الشعب المغربي .

وسأركز عرضي أمام مجلسكم الموقر على ما قمنا به خلال هذه المدة في ميدان ستاثر بالحظ الاوفر من التزاماتنا في التصريح الحكومي المذكور ويرهن إلى حد كبير تطور بلادنا ورفاهية شعبنا ومناعة أمتنا ، ألا وهو ميدان الاستثمار والتأهيل الديمقراطي باعتبار هذه الثنائية متلازمة ومترابطة تتحكم في مسيرة النمو والتشغيل وتحتل مكانا مركزيا في المهام الوطنية للمرحلة التاريخية التي تجتازها بلادنا .

السيد الرئيس ،

السادة النواب المحترمين ،

لقد أعطت الحكومة أهمية قصوى للإنسان كهدف وغاية لسياستها الاقتصادية ، كما أكدنا على هذا والتزمنا به خلال تقديمنا امام مجلسكم الموقر للتصريح الحكومي .

ومن هنا أصبح إحداث اكبر عدد من فرص الشغل والحد من آفةالبطالة هدفا مركزيا للسياسة الاقتصادية والإجتماعية للحكومة ، مما جعلنا نعبئ كل جهودنا من أجل توفير كل الشروط المتاحة لتشجيع الإستثمار وإشاعة قيم المبادرة والمنافسة وإرادة التفوق والجودة ، يقينا منا بأن ذلك هو الحل الجذري لمعضلة البطالة ، وخاصة بطالة الشباب .

وعلى هذا الأساس ، وانسجاما مع إلتزاماتنا ، اتجهت الحكومة إلى إعادة الاعتبار للتخطيط واعتماد منهجية جديدة في إعداده بصيغة ملائمة استجابة لمتطلبات الشروط الوطنية والدولية المحيطة بالإقتصاد الوطني وضرورة منظور شمولي لإعداد التراب الوطني .

وهكذا تم وضع مشروع المخطط افترة 1999-2000/2003-2004 الذي سوف يعرض قريبا على مجلسكم الموقر وفقا لمقاربة تجعل منه أداة ديمقراطية لتعبئة الفاعلين الاقتصاديين والاجتماعيين ، ووسيلة لتوضيع الرؤية واستشفاف توجهات ورهانات المستقبل ، قصد استباق التطورات الضرورية والحد من آثار التقلبات الظرفية ، وترتيب الأسبقيات وضبط مسلسل الإصلاحات الإقتصادية والإجتماعية .

ويرتكز مشروع المخطط الخماسي في هذا الإطار على رؤية مجالية واضحة أساسها ، بعكس المخططات السابقة التي كانت تعتمد المقاربة القطاعية ، تصور شامل لإعداد التراب الوطني يهدف إلى تقليص الفوارق بين الجهات ، وإلى تحقيق توزيع متوازن للموارد . وسيكون الملتقى الذي نعتزم تنظيمه في متم شهر يناير الحالي مناسبة مواتية للوصول إلى التوافق الضروري لكل استيراتيجية شاملة لإعداد التراب الوطني .

السيد الرئيس ،

السادة النواب المحترمين ،

حضرات السيدات والسادة ،

من هذه المنطلقات ، اتجه مجهودالحكومة إلى تاهيل اقتصادنا لخوض غمار المنافسة الدولية في عالم يعرف سرعة متنامية لانفتاح الاقتصاديات وارتفاعا مطردا لوتيرة عولمة المبادلات ، وذلك عن طرق المزيد من تحديث إطاره القانوني والمؤسساتي . وهكذا وخلال أقل من سنتين ، اخرجنا إلى الوجود أو قمنا بعملية تحيين عدة مشاريع قوانين ترتبط بمحيط المقاولة . فقد تمت المصادقة على مجموعة من النصوص من بينها : القانون المتعلق بالمجموعات ذات النفع الإقتصادي ن والقانون الخاص بحماية الملكية الصناعية والتجارية ، والقانون المتعلق بسوق السندات الرهنية ، والقانون الخاص بالمنافسة وحرية الأسعار ، وقانون التأمينات ، والقانون الخاص بالطاقة البترولية ، وقانونا إصلاح القرض الشعبي والصندوق الوطني للقرض الفلاحي ، وستعرض على أنظاركم عما قريب ، مدونة الشغل .

هذا ولقد سعت الحكومة من جهة أخرى ، إلى تبدبد مناخ الحيطة والحذر الذي كان يطبع العلاقة بين الإدارة والفاعلين الاقتصاديين ، وإحلال جو الثقة والشراكة القائمة على أرضية التعاقدية والقانون عبر عملية تصحيح الحصيلات وإصلاح مدونة الجمارك ومدونة تحصيل الديون العمومية .

السيد الرئيس ،

السادة النواب المحترمين ،

حضرات السيدات والسادة ،

لقد عكفت الحكومة ، في إطار وضع آليات التدخل لتنشيط الاستثمار ، وفي ظرف لا يتعدى السنة ، على تفعيل أهم المقتضيات الواردة في ميثاق الاستثمارات والتي لم تعرف منذ صدور هذا القانون في شهر نوفمبر 1995 ، سبيلها إلى التطبيق . وهكذا تم إحداث صندوق إنعاش الاستثمارات وتأسيس

اللجنة الوزارية للاستثمارات التي هي جزء من الوكالة الوطنية لإنعاش الاستثمار الموجود مشروع المرسوم المتعلق بها في طور المصادقة .

وفي نفس السياق ، قامت الحكومة بتحسين ملموس لعمليات دعم تأهيل المقاولات ، وذلك بتقوية صناديق ضمان الاستثمارات وإعادة تنشيط الصندوق المركزي للضمان وتحريك خطوط قروض خارجية وضعت رهن إشارة المقاولات الصغرى والمتوسطة بشروط ملائمة .

السيد الرئيس ،

السادة النواب المحترمين ،

حضرات السيدات والسادة ،

لقد سهرت الحكومة على أن تؤسس سياستها الاقتصادية على التحكم في التوازنات المالية الأساسية واستقرار الغطاء الإجمالي للإقتصاد الوطني ، وعيا منها بان هذا الاستقرار ضروري لتوفير شروط النمو الإقتصادي والحفاظ على القدرة الشرائية لمواطنينا . إذ لم تتجاوز نسبة التضخم 1 وتم حصر عجز الخزينة في حدود 2,3 % .

ولنفس الغاية سعينا في إطار سياستنا الجبائية إلى إعفاء استيراد معدات التجهيز من الرسوم الجمركية والاقتطاع الجبائي عند الاستيراد من الضريبة على القيمة المضافة ، وذلك بالنسبة للاستثمارات التي تفوق 500 مليون درهم .

ولقد بذلنا كل المجهودات لمحاربة التبذير والتقليص من المصاريف الكمالية ، استطعنا من خلالها توفير ما يناهز 3 ملايير درهم غذت الادخار العمومي مما مكن من رفع مستوى استثمارات الدولية وتحريك عجلة الاقتصاد .

وموازاة مع ذلك حرصت الحكومة على دعم الموارد المالية للمقاولات عن طريق تسديد مجمل متاخراتها المستحقة ، التي تقلصت من 13 مليار درهم في دجنبر 1998 إلى مليارين مع متم نونبر 1999 ، وهو المستوى الذي لم يسبق قط تسجليه من قبل .

ومن بين مجموعة من المبادرات التي تم اتخادها في إطار السياسة النقدية ، لن تفوتني الإشارة إلى ما عرفته أسعار الفائدة التوجيهية للبنك المركزي من

تخفيضات أدت إلى بروز جو من المنافسة بين الأبناك ، وإلى تخفيض أسعار الفائدة التي انتقلت ما بين أبريل 1998 إلى دجنبر 1999 من حدود 9,25% و 10,25% إلى حدود 7,25% و 8,50%

السيد الرئيس ،
السادة النواب المحترمين ،
حضرات السيدات والسادة ،

إننا واعون بأن سياسة التأهيل الإقتصادي التي نسير على هديها لا يمكن أن تعطي كل أكلها على الفور ، لكننا استطعنا والحمد لله تسجيل بعض ثمارها الاولى تبرزها عدة مؤشرات .

فلقد بلغت الاستثمارات الأجنبية سنة 1999 مستوى قياسيا يقارب 17 مليار درهم (منها مبلغ 8,9 مليار درهم المتحصل من منح الرخصة الثانية للهاتف النقال GSM) ، أي بزيادة إجمالية تقدر ب 275% . هذا ، وبعد أن كان متوسط الاستثمار الوطني لا يتعدى 4٪ خلال الفترة بين 1996 و 1997 ، ارتفع بنسبة 16,6% سنة 1998 و 12,7% سنة 1999 ، بينما ارتفع معدل الاستثمار إلى 23,7% سنة 1999 مقابل 20,7% سنة 1997 . ويرتقب في إطار مشروع المخطط أن يرتفع هذا المعدل إلى ما يفوق 25% سنويا .

وفي غضون سنة واحدة تمكنت اللجنة الوزارية للاستثمارات المحدثة لدى الوزير الاول من جهتها من دراسة 50 مشروعا استثماريا ، أصبحت ثلاثون منها جاهزة للتنفيذ وتمثل مبلغا للاستثمار يفوق 6,5% مليار درهم وما يقارب 9000 منصب شغل . كما أنها صادقت على عشر اتفاقيات تهم على الخصوص الميدان السياحي ، وتمثل مبلغا إجماليا يقدر ب 13 مليار درهم ، بينما توجدثمان اتفاقيات أخرى تمثل عشرة ملايير درهم قيد الدرس ، وستصبح جاهزة في القريب العاجل .

ويشكل الارتفاع المهم الذي عرفه استيراد معدات التجهيز خلال السنتين الاخرتين بحيث وصلت نسبة 33,5% سنة 1998 و17% خلال الأحد عشر شهرا الاولى من سنة 1999 ، مؤشرا أخر على نفس الإتجاه .

هذا وقد عرف قطاع السياحة في السنتين الأخيرتين انطلاقة كبيرة يؤكدها تطور المداخيل السياحية التي سجلت ارتفاعا بنسبة 19% سنة 1998 و 12% سنة 1999 ، محققة بذلك رقما قياسيا وصل 18 مليار درهم .

وعلى صعيد المالية العمومية أثمر جو الثقة بين المقاولات والسلطات العمومية وشفافية التعامل التعاقدي بينما انعكسا إيجابيا على مداخيل الضرائب المباشرة والضريبة على الشركات التي عرفت خلال الخمسة أشهر الاولى من السنة ، ارتفاعا على التوالي بنسبة 12,4% . وبما يفوق نسبة 50% . في حين بلغت احتياطاتنا من العملة الصعبة في متم شهر أكتوبر 1999 . مستوى قياسيا بلغ 60 مليار درهم ، أي ما يعادل ستة أشهر ونصف من الاستيراد . وسجلت خدمة الدين الخارجي نزعة نحو الانخفاض منم جراء تقليص حجم مديونيتنا إزاء الخارج لذى تحول ما يقارب 20 مليار دولار سنة 1997 إلى أقل من 18 مليار دولار سنة 1999 .

السيد الرئيس ،

السادة النواب المحترمين ،

حضرات السيدات والسادة ،

إذا كانت هذه النتائج الأولية ، رغم حصيلة ما ورثناه في ميدان الأداء الاقتصادي والتدبير الإداري ورغم تاخر بداية العمل بميزانية 1998-1999 والظروف المناخية غير الملائمة التي عرفتها السنة المنصرمة ، لاترقى إلى مستوى الحاجيات المتراكمة منذ عقود من السنين ، وبالاحرى إلى طموحاتها ، فإنها تطمئننا بما تتسم به من إيجابيات على أننا نسير في الاتجاه الصحيح .

وبناء على ذلك فإن الحكومة عازمة على مواصلة سياستها على أساس نفس المنهجية في اتجاه المزيد من تحديث الإطار القانوني والمؤسساتي للاقتصاد لفائدة المقاولة والاستثمار والتشغيل ، وتفعيل آليات التنشيط الاقتصادي مع الحرص على المحافظةعلى التوازنات الماكرو اقتصادية الضرورية ووضع أولويات قطاعية في عمليات توظيف الموارد المتاحة .

سيداتي سادتي ،

ستتم في إطار مسلسل التحديث المؤسساتي وبكيفية ممنهجة ، مراجعة المسطرة الإدارية المرتبطة بعناية الاستثمار على ضوء توصيات الدراسة المتعلقة ب « مسار المستثمر» التي هي الآن في مرحلتها النهائية ، واتخاذ مجموعة من التدابير الملموسة الرامية إلى تبسيطها .

وسنولي أهمية قصوى للمقاولة الصغرى والمتوسطة التي تمثل أكثر من 90% من نسيجها الإنتاجي ، وذلك بوضع مشروع ميثاق وطني للمقاولة الصغرى والمتوسطة يتم تقديمه إلى البرلمان خلال الدورة الربيعية المقبلة .

وفي نفس السياق ، ستقوم الحكومة التي عملت على تسوية وضعية المقاولين الشباب ، ممن تعترض سبيلهم صعوبات في تدبير مشاريعهم ، بإعادة النظر في النص المتعلق بتمويل هذه الفئة من المقاولين من أجل ملاءمته مع ضرورة التعامل معهم بصفتهم فاعلين اقتصاديين وإحداث قطيعة مع المقاربة الاسعافية التي تم ترجيحها في الماضي .

وسيتم تنشيط الاقتصاد الاجتماعي ومواصلة مسلسل إعادة هيكلة القطاع التعاوني وتحديث النصوص المنظمة له وتفعيل دور التعاونيات في تسيير مكتب تنمية التعاون ، وذلك اعتبارا لاهمية القطاع التعاوني والجمعيات والتعاضديات ذات الاهداف الاقتصادية وقدراتها على خلق الثروات وفرص الشغل والمساهمة في تأهيل شامل للاقتصاد الوطني .

السيد الرئيس ،

سيداتي سادتي ،

سعيا منا إلى تعزيز الآليات والبنيات التي من شأنها ان ترفع من مستوى الاستثمار وتأهيل المقاولات ، سيتم إنشاء هياكل الوكالة الوطنية لإنعاش الاستثمار تحت سلطة الوزير الأول . والتي ستتكفل بإنعاش الاستثمارات

واستقبال وتوجيه المستثمرين ومساعدتهم ، فيما سيتم إعادة تنشيط اللجن التقنية بالعمالات والأقاليم بحيث تصبح عمليا شبابيك وحيدة تساعد المستثمرين في إنجاز مشاريعهم ، على أن تتولى الأجهزة المركزية للوكالة عند الإقتضاء ، مهمة الدعم والتنسيق .

ولنفس الغاية ستعمل الحكومة هذه السنة على :

- تكثيف برنامج تهيئة المناطق والمراكز الصناعية ، وخاصة حول مدن طنجة والدار البيضاء ومكناس وفاس والناظور والعيون والجرف الأصفر ، في إطار إستراتيجية شراكة متعددة الأطراف بين الدول والجماعات المحلية والقطاع الخاص .

- التسريع بإنشاء مراكز تقنية تعهد لها مهمة مؤازرة مجهود المقاولات الصناعية ودعم تأهيلها في إطار برامج تعاقدية بين الدول وفروع بعض الصناعات .

سيداتي ، سادتي ،

امتدادا للإتجاه الذي سرنا فيه ، ستبقى السياسة الاقتصادية والمالية للحكومة في خدمة الإستثمار والتشغيل ، وذلك عن طريق :

- توسيع مجالات الميزانية المخصصة للاستثمار مع الحرص على التغيير التدريجي لبنية ميزانية الدولة حتى تصبح هذه الأخيرة أداة للنمو الاقتصادي المستديم والتنمية الاجتماعية .

- التمسك بتطبيق مسلسل عقلنة الإنفاق العمومي والتدبير النشيط للمديونية قصد الوصول إلى حجم متنام من الإدخار ورفع مستوى الاستثمار العمومي .

- الرجوع إلى العمل بالسنة المدنية كقاعدة للسنة المالية ولإعداد الميزانية . وتبعا لذلك ستعرض الحكومة على انظار مجلسكم الموقر في غضون شهر أبريل مشروع المخطط الخماسي بعد ملاءمته مع هذا المعطي الجديد .

- مواصلة مسلسل الخوصصة بفتح رأسمال عدد من المقاولات العمومية كالخطوط الملكية المغربية واتصالات المغرب والبنك الشعبي ومؤسسات صناعية اخرى .

السيد الرئيس ،

حضرات السيدات والسادة ،

ستركز الحكومة من زاوية الاولويات القطاعية ، اهتمامها وتوظيفات الموارد المتاحة في القطاعات الواعدة والقادرة على تحقيق أكبر حجم من القيمة المضافة وأكبر عدد من مناصب الشغل .

ومن ذلك :

- قطاع المواصلات الذي يشكل فضاء إستراتيجيا لدخول بلدنا عهد مجتمع الإعلام والمعرفة ، وذلك بنهج سياسة تحرير هذا القطاع في أفق سنة 2002 وفتح رأسمال شركة «اتصالات المغرب» وتاهيلها للمنافسة في أفق أن تصبح بلادنا محورا جهويا في هذا الميدان .

- القطاع السمعي البصري بالشروع في إصلاحه على أساس مبادئ الحرية والتعددية والمهنية والجودة والحوار والانفتاح . وستضع الحكومة مشروع القانون الإطار الذي سيحدد نوعية المؤسست والإجراءات والآليات الضرورية لضمان هذه المبادئ .

- القطاع الفلاحي بالشروع في إنجاز برنامج لتامين حجم إنتاج الحبوب في مستوى 60 مليون قنطار في السنة ، واستغلال مياه السدود بهدف توسيع المساحة القابلة للزراعة ، وخاصة في المناطق البورية بكل من أحواض سبو وملوية ووادي لاو ، والرفع من وتيرة التشجير وتجديد الغابات وفق مستلزمات الحد من تعرية الأراضي وتوحل السدود واندثار التنوع البيولوجي .

- قطاع الصيد البحري بالرقي به إلى مستوى الأولويات على أساس وضع حد لكل شكل من أشكال الاتفاقيات التي تستهدف الاستغلال المباشر لثرواتنا السمكية و تقديم قانون بمثابة مدونة للصيد البحري والمحافظة على الانظمة البيئوية البحرية .

- القطاع السياحي باتجاه توفره على إمكانيات عقارية ميسرة وإطار ضريبي ونظام تمويلي ملائم للرفع من تنافسيته وتحسين منتوجه ورفع قدرة عرضه بما لا يقل عن 30 ألف سرير مصنفة في أفق عام 2003 .

- قطاع الصناعة التقليدية بتوفير الشروط الضرورية لجعله يحتل المكانة اللائقة به كقطاع أولي في مجال الإستثمار وإنعاش التشغيل ، وكذا في الرفع من التنافسية الخارجية لاقتصادنا الوطني .

- قطاع الإسكان ، وخاصة السكن الإجتماعي ، بتوفير مزيد من آليات إنعاشه وإعادة هيكلته والرفع من قدرته على تنشيط المقاولات الصغرى والمتوسطة وخلق مناصب الشغل .

- قطاع البيئة بتوفير آليات التنسيق بين متطلباته ومختلف الأنشطة في القطاعات الاقتصادية والاجتماعية بتبني استراتيجية تشريعية وطنية ملائمة .

السيد الرئيس ،

سيداتي ، سادتي ،

فضلا عما أجملناه من مكونات سياستنا في تنشيط الاستثمار اعتبارا لدوره في حل معضلة التشغيل بكيفية مستديمة وجذرية ، فقد أعطت الحكومة اهمية قصوى للمسألة الاجتماعية إدراكا منها للعجز الفادح الذي تعانيه بلادنا في هذا الميدان والذي لا يمكن ضمان أي فعالية اقتصادية أو تنمية مستديمة دون تقليصه .

وهكذا تمحورت سياسة الحكومة في مجال مقاومة البطالة حول خلق إطار مؤسسي ملائم وبلورة آليات ناجعة لتدبير محكم لسوق العمل الوطني ، وذلك بغية التحسين النوعي لعروض وطلبات الشغل ، وزرع دينامية ذات آثار جذب إيجابية من زاوية إنعاش التشغيل الذاتي والتشغيل المباشر من طرف المقاولات الكبرى والجماعات المحلية والمؤسسات العمومية وتنظيمات المجتمع المدني ، وموازاة مع ذلك اعدت الحكومة استرانيجية شاملة ومندمجة للتنمية الاجتماعية التزمت من خلالها بالعمل على توسيع ولوج الخدمات الأساسية لفائدة الشرائح الفقيرة من مواطنينا .

وسنعطي الاولوية في هذه المجالات للعالم القرو ، وإصلاح نظام التربية والتكوين وتشغيل الشباب ، ومحو الأمية ، وتحسين وضعية الأشخاص المعاقين ، والطفولة وتوسيع التغطية الاجتماعية ، وإنعاش السكن

الاجتماعي ، مع اعتماد الحوار الاجتماعي النزيه الذي هو أساس التوافق والتقدم الاجتماعي .

وستكون لي الفرصة لاستعراض مختلف جوانب سياستنا في مجالي التشغيل والعمل الاجتماعي بتفضيل في التصريح الذي التزمت بالقيام به أمام زملائكم بمجلس المستشارين .

السيد الرئيس ،

السادة النواب المحترمين ،

حضرات السيدات والسادة ،

لن يتأتى تأهيل اقتصادنا ولا تيسر شروط تقدمنا الحضاري دون إقامة مجتمع ديمقراطي يتمتع بالإستقرار وتتوفر له سبل المناعة ولاعضائه شروط الكرامة وظروف الامل والطموح . لذلك أولت الحكومة منذ تنصيبها عناية قصوى لقضايا حقوق الغنسان والنهوض بشؤون المرأة وتخليق الحياة العامة واستكمال البناء المؤسساتي .

ففي مجال حقوق الغنسان ، التزمت الحكومة بالتسوية النهائية للحالات التي بقيت عالقة على مستوى التنفيذ ، بتنسيق مع المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان ، وفي هذا الصدد تمحور عمل الحكومة حول :

-طي ملف الاختفاء القصري والاعتقال التعسفي الذي وإن كان شهد تطورا إيجابيا على يد جلالة الملك الحسن الثاني طيب الله تراه ، فقد عرف خطوة كبيرة بفضل المبادرة المباركة لجلالة الملك محمد السادس حفظه الله بتشكيل هيئة تحكيم مستقلة عهد إليها النظر في طلبات التعويض من جميع الأضرار التي لحقت بذوي الحقوق من جراء الاختفاء القصري والاعتقال التعسفي .

وستخصص الحكومة ، ابتداء من هذا الأسبوع ، الاعتمادات المالية الضرورية حسب تقديرات المجلس الاستشاري لحقوق الانسان لصرف تسبيقات لمن هم في حاجة إليها من بين المؤهلين للاستفادة من التعويضات ، وذلك في انتظار أن تقوم هيئة التحكيم بحصر لائحتهم النهائية .

- إدماج جميع ضحايا إجراءات الطرد والتوقيف التعسفي لأسباب سياسية ونقابية وتمتعهم بحقوقهم وأجورهم ورواتبهم ابتداء من تاريخ توقيفهم أو طردهم من وظائفهم .

إحداث لجنة وزارية مشتركة برئاسة الوزير الاول تعني بمباشرة كل القضايا المتعلقة بحقوق الإنسان وتتبعها .

- إصدار منشور يضع ، بمنتهى الدقة والوضوح ، الضوابط التي تحكم استعمال القاعات العمومية من طرف الجمعيات والأحزاب والنقابات ، وتحمي بالتالي الحق في الاتماع وحرية الرأي .

- وضع مشاريع قوانين تعدل بمقتضاها قوانين الحريات العامة وقانون المسطرة الجنائية ستعرض على البرلمان خلال الدورة التشريعية المقبلة بحول الله .

- تشخيص شروط تفعيل مأمورية الضابطة القضائية ، باعتبار أهميتها في سير المسطرة من بدايتها وضمان تفعيل روح العدل في كافة أطوارها .

- تعميم البرنامج الوطني للتربية على حقوق الإنسان ، ابتداء من الموسم الدراسي المقبل (2001-2000) ، بكل مؤسسات التعليم الأساسي والثانوي .

- إحداث شبكة مراكز للدعم القانوني والنفسي للأطفال والنساء في وضعية صعبة بشراكة مع جمعية هيئات المحامين بالمغرب .

- الاستجابة لطلبات منح صفة المنفعة العمومية لفائدة المنظمات ذات الاشعاع الوطني في مجال حقوق الأنسان .

- ملائمة القوانين مع أحكام المعدات الدولية ذات الصلة بحقوق الإنسان ، وستقدم المملكة المغربية قريبا التقرير 14 حول تطبيق اتفاقية مناهضة جميع أشكال التمييز العنصري ، والتقرير الدولي الثاني حول الإتفاقية المتعلقة بحقوق الطفل ن وكذا التقرير الخامس حول تطبيق العهد الدولي المتعلق بالحقوق المدنية والسياسية .

- إنشاء مركز دولي للتكوين والغعلام والتوثيق في مجال حقوق الغنسان ببلادنا وذلك بتعاون مع المفوضية السامية لحقوق الإنسان بالامم المتحدة .

وفي مجال الهجرة ، تم إحداث لجنة وزارية تعني بقضايا جاليتنا المقيمة في الخارج والبحث عن انجع الحلول لمعالجتها على أساس الربط بين موضوع الهجرة والتنمية ، وسينشأ مرصد خاص لرسم خريطة دقيقة لجاليتنا بالخارج في أفق بلورة استراتجية في مجال الهجرة في غضون هذه السنة .

السيد الرئيس ،

السادة النواب المحترمين ،

حضرات السيدات والسادة ،

وفقا لالتزامنا بالعمل على الإشراك الفعلي للمراة في مسلسل التنمية والحرص على تحسين أوضاعنا وتقوية مكانتها ، أولينا لهذه القضية الحيوية اهتماما بالغا حيث عملنا على إثارة الانتباه إلى ما تعانيه النساء في بعض المجالات والاوساط ، وعلى كشف مختلف مظاهر العنف والفقر والامية وانتهاك ممنهج لحقوقهن الأساسية التي تعانين منها في حياتهن اليومية ، مما يتنافى مع قيمنا الروحية وتعاليم ديننا الحنيف ووصايا رسولنا المصطفى صلى الله عليه وسلم

وعلى هذا الهدي ، وسعيا إلى وضع مجتمعنا على درب النمو الشامل والمستديم ، وإيمانا منا بأن التصدي للتحديات التي تواجهها بلادنا تقتضي تعبءة كل الطاقات الحية لمجتمعنا ، معززين في ذلك ، بالنظرة المستقبلية والمتفتحة لعاهلنا الكريم ، فقد كونا لجنة وزارية دائمة للمراة أوكلنا إليها دراسة مشروع الخطة الوطنية لإدماج المرأة في التنمية قصد تفعيل ما تتضمنه من اقتراحات ومشاريع قوانين وإجراءات لفائدة المرأة ، والتي تهدف إلى :

- توسيع استفادة الفتيات والنساء من التربية ومحو الامية وتكريس تقافة المساواة ،

- تطوير خدمات الصحة الإنجابية وتوسيع الاستفادة منها ،

- القضاء على الفقر الذي تعاني منه المرأة وتمكينها من مختلف الوسائل والإمكانيات لولوج سوق الشغل وتأهيلها وتكوينها ،

- تعزيز دور المراة المغربية في النهوض باقتصادنا ومجتمعنا وحضارتنا ،

ولقد اتضح أن أهم ما ورد في هذه الخطة قابل للتنفيذ وسنعمل على بلورة في مشاريع قوانين نعرضها على أنظار البرلمان الموقر في أقرب الآجال .

وبالموازاة ، سنحرص كل الحرص على فتح حوار هادئ وهادف حول ما تضمنته الخطة من مقترحات تتصل ببعض أحكام مدونة الاحوال الشخصية والتي تقتضي بالتالي إعمال ملكة الاجتهاد بتوافق مثمر بين أهل الاختصاص وكل الفعاليات الوطنية المعنية بالموضوع .

وسأسهر شخصيا على أن يتم الحوار في جو من الشفافية والنزاهة الفكرية ، مع الحرص على ألا يفضي ذلك إلى الجوانب الأخرى التي لا تخفى أهميتها على أحد والتي تستقطب موافقة كل مغربية و مغربي .

ويظل المبتغى في جميع الحالات أن تصبح الخطة بمختلف عناصرها محل توافق وطني ، وذلك في انسجام تام مع قيمنا الروحية وشريعتنا الإسلامية وفي إطار من الوعي بحتمية تطور مجتمعنا ، وسوف يعرض هذا الأمر في آخر المطاف على النظر السديد لأمير المؤمنين لكي يقول كلمته فيه وفقا لصلاحيته الدستورية .

السيد الرئيس ،

السادة النواب المحترمين ،

حضرات السيدات والسادة ،

إن أكبر التحديات التي تواجهنا كحكومة هو ربح رهان التخليق السياسي والبناء المؤسساتي . وفي هذا الصدد فإن حكومة التناوب واعية كل الوعي بما يكتنف قانون الانتخابات الحالي من ثغرات وما لحق الانتخابات السابقة من انتهاكات واختلافات وانحرافات ، سواء من جراء التقطيع الجغرافي أو تنظيم عمليات الاقتراع وتسييرها أو إعلان نتائجها . ولهذه الغاية ستتقدم الحكومة بمشروع قانون انتخابي متكامل في مضمونه ، سليم وشفاف في جوهره وعمقه ، كأداة لتخطيط ديمقراطي للخريطة الانتخابية ولضمان حرية التعبير والاختيار للناخبين من الأمة .

وفي نفس السياق ، وتنفيذا لتوجيهات الملك المضمنة في الخطاب السامي الذي ألقاه بالدار البيضاء يوم 12 أكتوبر 1999 ، ستتقدم الحكومة إلى مجلسكم الموقر بمشروع إصلاح شامل لنظام اللامركزية ببلادنا على الخصوص ، سير المجالس المحلية المنتخبة واختصاصاتها وتنظيم الوصاية على مداولاتها ونظام المدينة .

ولقد اعتمدت الحكومة انطلاقا من هذه السنة ميثاق اللاتركيز الذي سيهيئ الظروف الموضوعية لإحداث التفاعلات الضرورية بين مبادرات الدولة في إطار عدم التركيز زمبادرات الجهات والأقاليم والجماعات في إطار اللامركزية .

كما ان إقدام الحكومة على إحداث مجالس جهوية للحسابات وتبني مدونة المحاكم المالية ، وكذا دعم دور المحاكم الإدارية ، يشكل عائقا أساسيا في استكمال البناء المؤسساتي الذي التزمنا بتحقيقه .

السيد الرئيس ،

السادة النواب المحترمين ،

حضرات السيدات والسادة ،

وفي إطار إصلاح العدل الذي يحتل مكانا مركزيا في انشغالاتنا ، تمت المصادقة على مشروع قانون تنظيم السجون الرامي إلى التغيير في العلاقات مع السجناء وتحسين أوضاعهم بهدف إعدادهم لاندماج أفضل في المجتمع ، وبرمجة الزيادة التدريجية في عدد المحاكم التجارية وإحداث محاكم استيناف إدارية في أفق إنشاء مجلس للدولة . وقد تم في هذا الإطار خلال العشرة أشهر الأولى من سنة 1999 تنفيد الاحكام الصادرة في مواجهة شركات التأمين بنسبة 81% ، وفي مواجهة عموم المتقاضين بنسبة تزيد عن 51% .

وأغتنم هذه المناسبة لاتوجه بخالص التقدير إلى هذه الطائفة الخيرة من أغلبية قضاتنا الأفاضل والنزهاء التي ساهمت في الحفاظ على شموخ ما بناه الاولون من أمجاد أخلاقية واجتهادات قضائية رائدة .

هذا ولقد شرعنا في مسلسل تخليق تدبير الشأن العام ، وهو التزام اخذناه على عاتقنا ، مدركين ألا سبيل لتغيير حقيقي ومستديم دون التأسيس لتدبير مغاير للشأن العام في بلدنا .

إنه لمن العسير أن نفلح في استعادة القانون كلمته ، واسترجاع القيم والأخلاق مكانتها ، وإحلال الشفافية المطلقة ، في أجل يقل عن سنتين ، وأن نستطيع في هذه الفترة الوجيزة تذويب الاختلالات وتقويم الانحرافات ، إلا اننا حرصنا في هذا المجال الحيوي على وضع الأسس لعمل ممنهج يسعى ألى استئصال الداء من جذوره ، والتهييئ له عبر إجراءات تقويمية قابلة للتطبيق تعكس إرادتنا في خلق قطيعة مع الماضي وإشاعة ثقافة جديدة للمرفق العمومي .

ولقد حرصنا في هذا الإطار على دعم الشفافية واللأخلاقيات ، كلما دعت الضرورة إلى ذلك ، في النصوص ذات البعد الاقتصادي او ذات صلة بالمقاولة أو الاستثمار .

وإن حكومة منكبة على دراسة نتائج جميع الأبحاث والتدقيقات التي أجريت لحد الآن ، على حسابات وتسيير عدد من المؤسسات العمومية والجماعات المحلية وغيرها من الشركات التابعة للقطاع العام ، وسوف تحيل على القضاء الملفات التي ثبت أنها تحتوي على أفعال يجرمها القانون .

كما قمنا في مجال محاربة الرشوة بإحداث لجنة منبثقة من المناظرة التي نظمت في شهر يونيو من السنة الماضية ، عهد إليها باقتراح خطط عمل على المدى القصير والمتوسط سيشرع في تجسيد بعض جوانبها على أرض الواقع في الأسابيع المقبلة .

وسنقوم بإدخال إصلاحات عميقة على المنظومات المعتمدة لتسليم الرخص الإدارية بمختلف أنواعها ، وذلك باعتماد ضوابط وقواعد جديدة تتلاءم وضرورة تعزيز دور المبادرة الخاصة في بلادنا في إطار من المنافسة الشريفة وتشجيع مقاولات الشباب ومكافحة البطالة والتهميش .

وستهدف سياستنا هذه القضاء على التسيب والانحراف الذي تعرفه بعض المجالات كاستغلال المقالع وقطاع النقل الذي سيواصل تحريره بشكل يكرس

الحرفية والتنافسية الشريفة ةالشفافية اللازمة لخدمة المواطنين ، ويضع حدا للامتيازات غير المستحقة والمحابات .

السيد الرئيس ،

السادة النواب المجترمين ،

حضرات السيدات والسادة ،

إن تخليق الإدارة لا ينفصل في منظورنا عن الإصلاحات البنيوية التي قررت الحكومة إدخالها على الجهاز الإداري .

ولقد أحدثنا لهذا الغرض بالذات لجنة استراتيجية أنطنا بها مهمة تحديد الرؤية على المدى المتوسط والبعيد في هذا المجال وتقديم مشاريع الإصلاحات الضرورية .

وتهييئا لهذه الإصلاحات ، قررنا من جهة ، تفعيل جهازين أساسيين في المجال الإداري ، ويتعلق الامر ب :

- المجلس الأعلى للوظيفة العمومية الذي ستتقدم الحكومة بمشروع قانون بشأنه حتى تتمكن هذه الهيئة الاستشارية في مجال الوظيفة العمومية والتي لم يكتب لها أن تجتمع بعد ، من مباشرة عملها في أقرب الآجال وإبداء رأيها في الإصلاحات التي تهيئ لها الحكومة .

- المفتشيات العامة للوزارات ، وذلك بوضع إطار قانوني خاص يجعل منها أداة لعقلنة وتخليق ومراقبة العمل الإداري .

كما تقرر من جهة أخرى ، تعيين مندوب وزاري من ذوي الاختصاص يتولى صياغة مقترح نظام بديل لنظام الاجور الجاري به العمل في الوظيفة العمومية وإعداد نظام جديد للمعاشات المدنية والعسكرية يتدارك ما يشوب النظام الحالي من نواقص وثغرات تسببت في إلحاق الحيف بفئات عريضة من المتقاعدين .

ولقد أصدرت تعليمات دقيقة من أجل تفعيل مضامين ميثاق حسن التدبير حتى يتجسد تدريجيا على أرض الواقع . وقد همت على الخصوص تطبيق القانون المتعلق بالممتلكات العقارية والقيم المنقولة الذي سيتم مراجعته لسد الثغرات التي تعتريه ، وكذا إلغاء التعويضات التي كانت تصرف لأطر وموظفي الدولة

والمؤسسات العمومية والجماعات المحلية عن عضويتهم في المجالس الإدارية للمؤسسات العمومية التابعة للدولة والجماعات المحلية . كما اتخذنا تدابير صارمة قصد الحيلولة دون تعاطي الموظفين بصفة مهنية وقارة لأنشطة حرة تجارية أو صناعية بالموازاة مع وظائفهم . وقررنا كذلك ، صيانة لكرامة المرفق العمومي ، وجوب قيام الوزير أو رئيس الإدارة المعني بتوجيه التوضيحات اللازمة إلى الوزارة الأولى بشأن المقالات الصحافية التي تعنيه أو تعني مصالحه .

وفي مجال ترشيد الإنفاق العام ، تم تمديد إصلاح نظام تدبير واستغلال حظيرة السيارات المطبق على إدارة الدولة ، إلى المؤسسات والمنشأة العمومية . ومن المقرر أن يشمل كذلك الجماعات المحلية ، كما عملنا على عقلنة تدبير المأموريات بالخارج ، والتصدي لحالات تغيب الموظفين والاعوان مع استمرارهم في تقاضي أجورهم ، وذلك بغية القضاء على هذه الظاهرة المشينة ، في غضون هذه السنة .

وفي مجال التواصل مع المواطنين ، تم إحداث شعبة قانونية بمختلف القطاعات الوزارية تعني بدراسة وحل النزاعات التي قد تنشأ بين الإدارة والمواطن ، و «خلية التواصل» على صعيد الوزارات والإدارات والمؤسسات التابعة لها .

ويسرني في هذا الصدد أن أعلن عن عزم الحكومة على التقدم لمجلسكم الموقر في إحدى دورات هذه السنة بمشروع قانون تحدث بمقتضاه مؤسسة وطنية مستقلة ، على غرار مؤسسة « الوسيط « التي تعرفها بعض الدول تعني بتظلمات المواطنين والعمل على حمايتهم من كل أشكال الحيف والظلم .

السيد الرئيس ،

السادة النواب المحترمين ،

حضرات السيدات والسادة ،

إن من دواعي التفاؤل بالنسبة لنا أن نرى بلادنا تؤخد على انها بلاد مستقرة تسير نحو الحداثة والتقدم ، حيث يمتد مجال القانون وتتسع فضاءات الحريات ، وتصبح مضرب المثل في مجال الإنتقال الديموقراطي .

وهذه الصور بدون منازع ، ثمرة دينامية التغيرات المؤسساتية والسياسية التي أعطى انطلاقتها جلالة المغفور له الملك الحسن الثاني قدس الله روحه ، والتي نتج عنها التناوب الديمقراطي . وقد توجت هذه الصورة اليوم ، بتولي صاحب الجلالة الملك محمد السادس أيده الله ونصره عرش أسلافه الميامين ، وبالدفعة التي ثمن بها جلالته هذا التغيير .

وقد يسرت هذه الصورة العمل الديبلوماسي الذي بذلته الحكومة على كل اللأصعدة ، ليس فقط في اتجاه شركائنا التقليديين الذين هم بلدان الإتحاد الاوربي والولايات المتحدة الأمريكية والبلدان العربية والإسلامية الشقيقة ، ولكن كذلك في اتجاه مناطق هامة أخرى من المعمور ، وهي إفريقيا واوربا الوسطى وآسيا .

ولقد ساهم انعقاد عدة لجن مختلطة على المستوى العالي ، وتنظيم بلادنا لمجموعة من اللقاءات المتعددة الأطراف ، وكذا الزيارات التي تشرفت بالقيام بها إلى الخارج والتي حرصت على أن يشارك فيها ممثلو الامة والفاعلون الاقتصاديون ، في تقوية الإشعاع الدولي لبلادنا .

وبموازاة ذلك عملت الحكومة على تعزيز دبلوماسيتنا الاقتصادية وتنويع علاقاتنا الاقتصادية الخارجية بإبرام اتفاقيات جديدة للتبادل الحر ، خاصة مع البلدان العربية جنوب البحر الأبيض المتوسط ، وستسير الحكومة على رفع الحواجز التي تعوق المبادلات الفلاحية مع الإتحاد الاوروبي في أقرب أجل .

ولقد بدأنا نلمس النتائج الإيجابية لهذه الصورة التي تألقت من جديد ، خاصة على الصعيد الاقتصادي ، وذلك ما يؤكد الاهتمام الذي يوليه الفاعلون الاقتصاديون الدوليون لبلادنا .

والمغرب بكل مكوناته ، قوي بهذه الديناميكية ، عازم على رفع التحدي الذي يمثله ترشيح بلادنا لتنظيم نهائيات كأس العالم لكرة القدم 2006 ، هذا المشروع الطموح الذي يحظى بإشراف صاحب السمو الملكي الأمير الجليل المولى الرشيد ، ويتعبأ حوله بحماس شبابنا ومختلف شرائح المجتمع المغربي .
وفي هذا الصدد ، فقد قررت الحكومة ، منذ الآن ، استثمار ما فوق من خمسة

ملايير درهم لإنجاز التجهيزات الرياضية الأساسية مما سيعزز حظوظ بلادنا للفوز بمسؤولية تنظيم هذه التظاهرة العالمية وتكون له ، دون شك ، انعكاسات إيجابية على المقاولات الوطنية وعلى التشغيل .

السيد الرئيس ،

السادة النواب المحترمين ،

حضرات السيدات والسادة ،

إن الحكومة على وعي تام بأن برنامج الإصلاح والتغيير يتطلب جهدا متواصلا وقدرة على المثابرة والصبر ، ويستلزم إرادة وطنية لا تلين ، لتذليل الصعاب والصمود أمام قوى مناهضة التغيير أيا كان موقعها ومهما اختلفت مصالحها وتنوعت الأساليب التي تخدم أغراضها .

ولا يسعني في هذا الصدد إلا أن أعتز بالتأييد والدعم الذي تلقاه حكومة التغيير من لدن صاحب الجلالة نصره الله ، ومن ورائه الشعب المغربي الذي يعي طبيعة المرحلة ودقتها ، ويحرص على نجاح تجربة التناوب التي تدعمها القوات الحية في البلاد بشتى التعابير ، بما فيها النقد البناء ، وتنبيها للحكومة إلى مواطن الضعف في عملها وما يعترضها من مخاطر .

وإنني واثق بأن النهج الرصين الذي سلكته حكومة جلالة الملك ، باعتماد التغيير الذي يتوخى النفاذ إلى العمق ، ليكون جذريا وشموليا ومتحكما فيه يضمن توفير الشروط الضرورية لتامين بلادنا ومجتمعنا من كل المخاطر .

السيد الرئيس ،

السادة النواب المحترمين ،

أود أن أعبر بهذه المناسبة عن اعتزازي وافتخاري بالاغلبية البرلمانية وبمجموع القوى المساندة للحكومة ، هذه الأغلبية الواعية والنشيطة التي تشكل درعا هاما من الادرع التي تحمي وتعزز العمل الحكومي . إذ بفضل تأزرها وتماسكها أمكننا وضع التشريعات الكفيلة بإصلاح النظام القانوني الذي هيأ الإطار الشرعي لبرنامج الإصلاح والتغيير في عدد وافر من القطاعات .

ولقد اعطى أسلوب التعاون المبني على التشاور والحوار فيما بيننا نتائج إيجابية حسنت من أداء السلطتين التشريعية والتنفيدية ، وامتد هذا الأسلوب إلى أحزاب المعارضة التي حرصت الحكومة على إشراكها في الحوار والإهتمام باقتراحتها ومساهمتها الإيجابية .

وأود هنا تسجيل حصيلة مشاريع القوانين المقدمة للبرلمان التي بلغت منذ تنصيب هذه الحكومة ، 68 مشروع قانون وهو عدد هام بالمقارنة مع نفس المدة المتعلقة بالولايات التشريعية السابقة .

السيد الرئيس ،

السادة النواب المحترمين ،

أسمحوا لي قبل اختتام خطابي هذا أن أستحضر أمامكم بكل تأثر العهد الذي أعطيته لجلالة المغفور له الحسن الثاني طيب الله ثراه ، عندما أولاني ثقته السامية وقبلت تشكيل حكومة التناوب . لقد كان عهدا على كتاب الله تعالى ، إذ أن المصحف الكريم كان موضوعا على الطاولة بجانب جلالته وأشار رحمة الله عليه قائلا : « هذا المصحف بيننا » .

أجل ، إن هذا العهد الذي يطوق عنقي هو أعظم ميثاق والتزام متبادل جمع بيني وبين جلالة الملك الحسن الثاني رحمة الله عليه ، ولا يزال يلزمني في علمي تحت قيادة جلالة الملك محمد السادس نصره الله .

وإن إيماني بعظمة هذه المسؤولية وتقديري للمهمة الملقاة على عاتقي ووفائي للقيم التي ألهمتني طيلة مسيرتي النضالية في خدمة وطني ، كل ذلك يجعلني أستهين بما لنفسي وأسرتي وصحتي علي من حق ، متجاوزا ما يروج هنا وهنالك من مآخذ لا تتحرى الموضوعية والإنصاف ، على خدمة هذا الوطن العزيز ومساعدة شبابه على الخصوص نساء ورجالا ، على التوجه نحو المستقبل ، مستقبل المنافسة والتحدي ، معرضين عن ترسبات الماضي السلبية ومستحضرين المقدرات الهائلة التي يزخرون بها .

وفقنا الله لما فيه صالح وطننا تحت القيادة الرشيدة لصاحب الجلالة الملك محمد السادس أيده الله ونصره .

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

ملحق 2

فقرة من تدخل الوزير الأول في الرد الحكومي
المنشور بجريدة الإتحاد الإشتراكي بتاريخ [25 أبريل 1998]

[. . . نعم هناك من وجد التصريح الحكومي مناسبة للتباري الخطابي بقصد انتقاد تجربة التناوب والتشكيك في نجاحها بمختلف ا لحجج الواهية والتنبؤات المتشائمة التي لا نشاطرهم إياها ، كما لا يشاطرهم إياها الرأي العام المغربي في أوسع أوساط قواه الحية .

ومن أغرب ما ورد في مثل هذا الصنف من التدخلات أن يعاب على حكومة التناوب ولم تر النور إلا قبل أيام ، أن تتحدث عما ستعمله بصيغة المضارع وأن تستعمل حرف «سوف» المسكين ، قد يكون لهؤلاء حنين ألى الماضي ، أي لما كان ، وهم مسؤلولون في الحكومات المتاقبة ، لكن من اليقين أن الشعب المغربي ليس له أي حنين لذلك العهد .

فلعله كان من السهولة بمكان علينا أن نستجيب لرغبة هؤلاء وأن نسهب في الحديث عن الوضعية التي ورثناها ، والتي تعرفها لكل تأكيد الغالبية العظمى من المغاربة ، لأنها تعاني من آثارها يوميا ، تلك الوضعية التي مررنا عليها مر الكرام ترفعا وإشارة إلى إرادتنا في الاهتمام بالمستقبل وتجنيد كل القوى في مراهنة البناء والتحدي] .

أهم المصادر والمراجع العربية

ابن وهب أبو إسحاق : (1969) البرهان في وجوه البيان تحقيق حفني محمد القاهرة

الآمدي سيف الدين : الإحكام في أصول الأحكام دار الكتب العلمية بيروت

أرسطو : (1979) الخطابة ترجمة عبد الرحمن بدوي دار القلم بيروت

(1979)فن الشعر ترجمة عبد الرحمن بدوي دار القلم بيروت

ابن رشيق القيرواني : (1972) العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده ترجمة محمد عبد الحميد دار الجيل بيروت

ارسطا طاليس : (1968) فن الشعر ترجمة شكري عياد دار الكتاب العربي القاهرة

(1980) منطق ارسطو تحقيق عبد الرحمن بدوي دار القلم بيروت

امام عبد الفتاح امام : (1996) المنهج الجدلي عند هيجل المجلد الأول مكتبة مدبولي القاهرة

ابن تيمية تقي الدين : (1948) الرد على المنطقيين سليمان الندوي دار المعرفة للطباعة و النشر بيروت

ارمنكو فرانسو : (1986) المقاربة التداولية ترجمة سعيد علوش مركز الانماء القومي

أوستين : (1990) نظرية أفعال الكلام العامة ترجمة قنيني إفرقيا الشرق

بول موي : المنطق وفلسفة العلوم ترجمة فؤاد حسن زكرياء دار نهضة مصر

بدوي عبد الرحمن : (1977) المنطق الصوري و الرياضي ط . الرابعة وكالة المطبوعات

البخاري عبد العزيز : (1994) كشف الأسرار عن أصول فخر الدين البزدوي ضبط و تعليق محمد المعتصم بالله البغدادي دار الكتاب العربي ط 2 بيروت

باشلار غاستون : (1981) تكوين العقل العلمي ترجمة خليل أحمد خليل المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر والتوزيع بيروت

بارث رولان : (1994) قراءة جديدة للبلاغة القديمة ترجمة عمر أوكان إفرقيا الشرق

التفتزاني سعد الدين وآخرون : شروح التلخيص ط . عيسى البابي الحلبي

الجاحظ أبو عثمان : (1968) البيان و التبيين الخانجي القاهرة

الجرجاني عبد القاهر : دلائل الإعجاز تحقيق محمد محمود شاكر مكتبة الخانجية مصر

- أسرار البلاغة تحقيق محمد رشيد رضا بيروت 1978

حنفي حسن : (1998) في الثقافة السياسية آراء في أزمة الفكر والممارسة في الوطن العربي

حرب علي : (1998)الماهية والعلاقة نحو منطق تحويلي المركز الثقافي العربي
(1995) نقد النص المركز الثقافي العربي ط 2 . الدار البيضاء
الزمخشري ابو قاسم جار الله : (1966) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل مطبعة الحلبي
الزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله : (1973) البرهان في علوم القرآن تحقيق ابو الفضل إبراهيم 4 أجزاء) دار المعرفة بيروت

سبيلا محمد : (2000) النزعات الأصولية والحداثة المعرفة للجميع مارس 2000
السرخسي أبو بكر : 1996 المحرر في أصول الفقه علق عليه ابو عبد الرحمن عريضة دار الكتب العلمية بيروت
دي سوسير فردينان : (1985) دروس في الألسنية العامة تعريب صالح القرمادي الدار العربية للكتاب
السيوطي جلال الدين : (1978) الإتقان في علوم القرآن الطبعة الرابعة مصر بدون تحقيق
السجلماني أبو القسم : (1980) المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع تحقيق علال الغازي مكتبة المعاريف الرباط
الشاطبي أبو اسحاق : الموافقات في أصول الشريعة) 4 أجزاء (دار المعرفة بيروت
العمري محمد : البلاغة العربية أصولها و امتداداتها في بلاغة الخطاب الإقناعي
طه عبد الرحمن : (1987) أصول الحوار و تجديد علم الكلام المؤسسة الحديثة للنشر
((1994تجديد المنهج في تقويم التراث المركز الثقافي العربي
(1998) اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي
(2000) حوارات من أجل المستقبل منشورات مجلة الزمن عدد 13 أبريل 2000
الغزالي ابو حامد : (1981) معيار العلم في فن المنطق دار الأندلس ط . 3
(1971) المستصفى من علم الأصول تحقيق محمد مصطفى أبو العلاء القاهرة
غانيم محمد : (1987) لتوليد الدلالي في البلاغة والمعجم دار توبقال للنشر
الفدي محمد ثابت : (1976) أصول المنطق الرياضي دار النهضة العربية بيروت
المتوكل أحمد : (1985) الوظائف التداولية في اللغة العربية دار الثقافة البيضاء
(1987) من قضايا الرابط في اللغة العربية منشورات عكاظ
(1995) البنية التحتية أو التمثيل الدلالي التداولي دار الآمان الرباط
مفتاح محمد : (1990) دينامية النص الطبعة الثانية المركز الثقافي العربي مجهول البيان دار توبقال للنشر
المرادي حسن بن قاسم : (1973) الجنى الداني في حروف المعاني تحقيق خير الدين قباوة دار الآفاق بيروت
كورنفورنت موريس : (1979) مدخل إلى المادية الجدلية نظرية المعرفة م : III ترجمة محمد مصطفى دار الغرابي بيروت

النشار سامي : (1971) المنطق الصوري منذ أرسطو حتى عصورنا الحاضرة ط .الخامسة دار المعاريف مصر

ناصف مصطفى : (2000) نظرية التأويل : النادي الأدبي الثقافي جدة

لايكوف جورج : (1991) اللسانيات ومنطق اللغة الطبيعي ترجمة عبد القادر قنيني إفرقيا الشرق

المجلات

ألف

المجاز والتمثيل في العصور الوسطى الطبعة الثالثة (3919)
مجموعة من الباحثين

(1998) أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من ارسطو إلى اليوم جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية تونس

(1986) المنهجية في الآداب العلوم الإنسانية دار توبقال للنشر

أهم المصادر والمراجع الأجنبية

ANSCOMBRE J. C (1977)La problématique de l'illocutoire dérivé, langage et société 2
ANSCOMBRE J. C, et Ducrot O (1977), Deux mais en français ?, Lingua
ANSCOMBRE J. C, et Ducrot O (1983), L'argumentation dans le langage, Bruxelles, Mardaga
ANSCOMBRE J.C, et Ducrot O (1983), Argumentativité et informativité in : M. Meyer (éd), de métaphysique à la rhétorique, Bruxelles, Edition de l'université de Bruxelles
ANGENOT MARC :
la parole pamphlétaire contribution à la typologie des discours modernes
ED Payot Paris 1
AUSTIN J. L (1970), Quand dire c'est faire, Paris, éd. Du Seuil
Baye René 1991, Introduction à la logique at à l'argumentation
ED. Louvain la–Neuve
Blanchet Philippe La pragmatique d'austin à Goffman
ED. BERTRAND–Lacoste PARIS 1995
BENVENISTE E (1966a), De la subjectivité dans le langage, in : Problèmes de linguistique générale, Paris, Gallimard
BENVENISTE E (1966b), La philosophie analytique et le langage, in Problèmes de linguistique générale, Paris, Gallimard
BENVENISTE E (1981), Eléments de pragmatique linguistique), Paris éd. de Minuit
BOUDON Raymond (1995), Le Juste et le vrai Etudes sur l'objéctivité des valeures et de la connaissance Ed. Fayard
Caron Jean (1983), Les régulations du discours psychologie. Psychologie et pragmatique du langage Ed. Presse universitaire de France
Communications(1981), les actes de discours, paris, éd du Seuil
Chomsky NOAM 1971, Aspects de la théorie syntaxique 1965
Traduction de Jean – Claude Milner
ED. Seuil
DUCROTO (1972a), Dire et ne pas dire, Paris, Hermann
DUCROT O (1972b), De Saussue à la philosophie du langage, préface à J. R. Searle, les actes de langage, (Paris), Hermann
DUCROT O (1979), Les lois de discours, Langue française (repris dans Le dire et le dit, Paris, éd). de Minuit
DUCROT O (1980a), Les Echelles argumentatives, Paris, éd. de Minuit
DUCROT O (1980b), Analyse de texte et linguistique de l'énonciation in Ducrot. O et al, Les Mots du discours, Paris, éd. de Minuit

DUCROT O (1980c), Illocutoire et performatif, in Dire et ne pas Dire Paris, Hermann, 2ème éd. corrigée et augmentée
Ducrot O. et Jean Claude Anscombre 1983, L'argumentation dans la langue Ed. Pierre Mardaga Bruxlles 2 ème édition
DUCROT O (1983), Opérateurs argumentatifs et visée argumentative cahiers de linguistique française
DUCROT O (1984), Le Dire et le Dit, Paris, éd. de Minuit
DUCROT O et al. (1980), Les Mots du discours, Paris, éd. de Minuit
FAUCONNIER. G (1976), Remarques sur la théorie des phénomènes scalaires, semantikos
FAUCONNIER. G (1984), Espaces mentaux, Paris, éd. de Minuit
FODOR. J. A (1986), La Modularité de l'esprit, Paris, éd. de Minuit
GOFFMAN. E (1973), La mise en scène de la vie quotidienne, vol 2, Paris , éd. de Minuit
GRICE. H. P (1975), Logic and conversation, in Cole, P & Morgan, J. L(eds) Syntax and Semantics 3 : Speech Acts, New York Academic Press
GRICE. H. P (1979), Logique et conversation, communication 30.
HALLE EDWARD T. 1984 Le langage silencieux, éd. du Seuil .
KERBRAT. ORECCHIONI. C (1990), Les Interactions verbales, t. 1, Paris, Armand Colin .
KERBRAT. ORECCHIONI. C (1986), L'implicité, Ed. Armand Colin
LATRAVERSE. F La pragmatique histoire et critique
Ed. Pierre Mardaga
Edgar MORIN (1991) Introduction à la pensée complexe ED. E.S.F Pr
Maingneau Dominique 1991, L'analyse du discours
Introduction aux lettres de l'archive
Ed. Hachette
Maingneau Dominique 1993, Eléments de linguistique pour le texte litteraire 3 ème Edition
Ed. Dunod
MEYER Michel 1982 Logique, langage et argumentation
Ed.Hachette
MEYER Michel 1993 Questions de rhétorique
Langage raison et seduction Ed. Livre de poch
MOESCHLER. J (1996),Théorie pragmatique et pragmatique conversationnelle ED.Armand Colin 1996
MOESCHLER. J (1985), Argumentation et conversation éléments pour une analyse pragmatique du discours ED. Hatier–Paris
MOESCHLER. J (1989a), Modélisation du dialogue. Représentation de l'inférence argumentative, Paris, Hermès .
MOESCHLER. J (1989b), La problématique des règles d'enchaînement et d'interprétation revisitée, in : Rubattel, C. (éd), Modèles du discours. recherches actuelles en Suisse romande, Berne, Peter lang .
MOESCHLER. J et REBOUL. A (1994), Dictionnaire encyclopédique de pragmatique, paris, éd. du seuil .
PLANTIN Christian 1990 Essais sur l'argumentation
Introduction à l'étude linguistique de la parole argumentative
Ed. Kime

RECANATI. F 1981 Les Enoncés performatifs Ed. Minuit
RICOEUR Paul 1986 Du texte à l'action Essais d'hermeneutique II Ed. Seuil
ROBRIEUR J. J 1993 Eléments de rhétorique et d'argumentation
Ed. Dunod
SEARLE. J. R (1972), Les Actes de langage, Paris, hermann.
SEARLE. J. R (1982), sens et expression, Paris, éd. De Minuit .
SPERBER. D et Wilson. D (1989), La pertinence. communication et cognition, Paris, éd. De Minuit.
STRAWSON. P. F (1977) Etude de logique et de linguistique
Traduit de l'anglais par Judith Milner Ed. Seuil
STRAWSON. P. F (1971), De l'acte de référence, in : Etudes de logique et de linguistique, Paris, éd. Du Seuil.
WILSON. D et SPERBER. D (1979), L'interprétation des énoncés selon Paul Grice, communication 30.
Windisch Uli. (1987), la communication Conflictuelle
Ed. L'âge d'homme
Woods John et Douglas Walton 1992, Critique de l'argumentation
Logigue des sophismes ordinaires Traduit cordonnée par : Ch. Plantin
Ed. Kime

Lucien Sfez - Dictionnaire critique de la communication
- Dictionnaire Encyclopédique de paragmatique
ED. Pesses universitaire de France 1992

Langages

N°62 Analyse du discours politique
N°52 Analyse linguistique du discours jauresien
Jean - Dubois 1973 Dictionnaire de linguistique Larousse 3
Laplead 1967 Encyclopédie de philosophie
Gallimard 1967 Logique et connaissance scientifique
Encyclopédie de la pleade

محتوى البحث

تقديم 7

مدخل عام 9

الفصل الأول

التداوليات المعرفية ونظريات التواصل

البلاغة و تحليل الخطاب 17

موقع المستمع في الدراسات البلاغية 20

1 - إشكالية التأويل وعملية الفهم في التداوليات المعرفية 23

1-1 - مبدأ الملاءمة 25

1-2 - العلم المعرفي وأسئلة الفهم الكبرى 25

1-3 - النظرية التداولية المعرفية مبدأ الإصابية وإشكالات التأويل 31

2 - نظريتا التواصل والتداوليات المعرفية : التواصل بين المقاربة الترميزية والمقاربة الاستنتاجية

2-1- المقاربة الترميزية 37

2-2 -المقاربة الاستنتاجية 37

2-3 - التداوليات المعرفية ونماذج الاتصال 43

3 - التواصل والتحليل التداولي للخطاب 51

3-1- التحليل التداولي اللساني 59

3-2- الأبعاد التداولية في تحليل الخطاب : الفعل والانجاز 61

64

الفصل الثاني

نظرية الحجاج : الآليات والمفاهيم حدود وتقاطعات

تمهيد 67

1 - الآليات اللسانية في الخطاب الحجاجي 67

1-2 - الآليات اللسانية : وظائفها الحجاجية قديما وحديثا 72

1-1-1- النظم في اللسان العربي وآليات تشكله 73
1-1-2- البعد التداولي للآليات اللسانية لدى الجرجاني 74
1-1-3 – البعد التداولي للآليات اللسانية في التداوليات المعاصرة 82

2 – الآليات المنطقية الحجاجية : البنيات الاستدلالية الداخلية وبنيات الواقع الخارجية 89
2-1 – البنيات الاستدلالية الداخلية 88
2-2 – القياس آلية لتوليد الخطاب الطبيعي 89
2-3 – البنيات والوقائع الخارجية في الحجاج 94

3 – المفاهيم التداولية وأبعادها الحجاجية 98
3-1 – القياس التداولي 99
3-2 – الأبعاد التداولية في الحجاج 101
3-2-1 – البعد السياقي 101
3-2-2 – البعد الشمولي 102
3-2-3 – البعد التعاملي و الأخلاقي 103
3-2-4 – البعد التوسعي في أفعال اللغة 104
3-2-5 – البعد التنظيمي والاستراتيجي في الحجاج 105

4 – الآليات المعرفية : الاستدلال والفرضيات 105
4-1- مفهوم الفرضيات كمقدمات 107
4-2- آلية الاستنباط 108
4-3 -آلية الاستنتاج وعملية الفهم 110
4-5 -خلاصة القول 111

5 – الآليات المجازية بين التمثيل والتخييل : الاستعارة نموذجا 112
5-1- الاستعارة في التقليد العربي بين الأصوليين و البلاغيين 112
5-2- الاستعارة في المنظور الغربي بين النظرية الدلالية «سورل وايكو» والبنية التصورية «لايكوف وجونسون 114
5-3 -الاستعارة كآلية من آليات الحجاج 120

الفصل الثالث

استراتيجية الخطاب الحجاجي : إمكانات التحقق وإمكانات التأويل

1 - الخصائص العامة للخطاب الحجاجي 128
1-1 – خاصية البناء والدينامية 129
1-2 – خاصية التفاعل 130

1-3 - خاصية الالتباس 131
1-4 - خاصية التأويل 131
1-5 - خاصية الاعتقاد 133
1-6 - خاصية العمل 134

2 - الاستدلالات الحجاجية أطرها وطرائقها 135

2-1 -أشكال التعريف وتوظيفاتها في الحجاج 136
2-1-1 -التعريف التصوري التجريدي 137
2-1-2 -التعريف في الدلالة المعرفية 139
2-1-3 - التعريف الحجاجي 141
2-1-4 -الأشكال المجازية للتعريف 144
2-1-5 -التعريف بالمقارنة و المخالفة 147
2-2 -السببية في الممارسة الحجاجية 150
2-3 -أشكال الحجاج وأنواع الحجج 156
2-3-1-أشكال الحجاج 158
2-3-2 - أنواع الحجج 164
2- 4 -الطرائق والتقنيات الحجاجية في الخطاب السياسي 171
2 -4-1 -الطرائق الذاتية : الأسلوبية 172
2-4-2- الطرائق الموضوعية : العقلانية 179
2-4-3 -الطرائق الواقعية : الحدسية 187

الفصل الرابع

الحجاج ونظرية المساءلة والبلاغة

1- نظرية المساءلة و البلاغة 193
1- إشكالية المساءلة والحجاج 196
1-1 -المبدأ الافتراضي 196
1-2 -مبدأ الاختلاف الإشكالي 196

2 -المساءلة والتواصل 197

2-1 -أفعال الكلام : المساءلة وفعل الانعكاس 199
2-2 -السياق و المساءلة 200
2-3 -الأبعاد الحوارية في التواصل اللساني 201

3 -الحجاج ونظرية المساءلة 202
3-1 -البلاغة والحجاج 202
3-2 -الحجاج والمفاوضة حول المسافة 204
3-3 -العلاقات الحجاجية 205
3-4 -البعد الحجاجي للغة 206
3-5 -الحجاج والمجاز 207
خلاصات واستنتاجات 211
ملاحق 217
لائحة المراجع والمصادر 241

تم الطبع بمطابع أفريقيا الشرق 2012
159 مكرر، شارع يعقوب المنصور، الدار البيضاء
الهاتف : 04 95 25 0522 / 13 98 25 0522
الفاكس : 20 29 25 0522 / 80 00 44 0522
مكتب التصفيف الفني : 54 / 53 67 29 0522
الفاكس : 72 38 48 0522
الدار البيضاء
E.mail : africorient@yahoo.fr

عندما نتواصل نغير

مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج

ليس هناك حجاج جاهز أو معطى منذ البداية ، بل هو عملية يتم بناؤها تدريجيا وتتطلب تكيفا مستديما لعناصرها الى نهاية اتمام الحجاج ، سواءا كان على شكل خطاب أو عرض أو خطبة أو جدال...» إذ أن الادعاء بوجود قواعد كلية ومطلقة لا يمكن أن يحالفه الصواب» ومن ثم فإن غاية ما يمكن تحصيله من عملية الحجاج او عمليات الحجاج هو أن القواعد والأسس ترتبط بميدان اللغة في علاقتها بالإنسان والعالم ، عبر التقنيات التي تبلور تلك الافكار ، والعلاقات والتمثلات ، سواء تعلقت بمنطق الحياة وقطاعاتها المختلفة (منطق السياسية ، منطق الاخلاق) أو بمنطق اللغة أو بمنطق العقل . لذلك تأتي فعالية الخطاب الحجاجي من طريقة بنائه وتفاعل عناصره ، ودينامية مكوناته ، فالإقتصاد في الأدلة الحجاجية مثلا يكون له دور مهم في عملية الإقناع ، إذ المبالغة في سرد الحجج في غيرما مناسبة ، يفقد الحجاج فعاليته وقوته ، ذلك لأن الذهن البشري (حسب دراسة أشار اليها سيموني) لا يقوى على معالجة سوى عدد محدود من عناصر القول ، وأن السامع لا يستطيع الحصول إلا على 10% مما يسمع ، لذلك ينبغي التركيز على الأهم والأساسي في الحجاج ، كأن يجيب عن حاجة أو مطلب أو انتظار معين ، بالبحث عن الأسباب الدقيقة التي تبرره وتفسر أسسه ومتطلباته ، وذلك بالتدليل بالحجة الملائمة والمؤثرة حسب الحاجة ، لذلك تكون العلاقة بين الحاجة إلى الحجاج والحجاج ضرورية ، وهو الطريق الأنسب إلى الإقناع كما يقول «باسكال» ، فلا تتصور قيمة الحجة بمعزل عن الشخص الموجهة إليه ، إذ لا وجود لحجج وأدلة معيار تطابق مستمعا جاهزا ، وإنما هناك مخاطبون لهم حاجات وانتظارات خاصة ،لا تتجاوب مع لغة الخشب التي تصاغ في قوالب جامدة تعكس حالات دوغمائية (عقائدية وثوقية) تتكرر في كل خطاب بطريقة كاريكاتورية ، كما نراها في خطابات بعض الأحزاب ، مما يفقدها كل مصداقية وينزع عنها كل قوة حجاجية ممكنة ، وهي بهذا تبعد كل البعد عن الأشكال التعبيرية التي يوظفها الحجاج الناجح .

ISBN 9981-25-343-X

9 789981 253438

Yamaguchi Bunzō
فنان ياباني
مشروع تصميم دار للثقافة